التوكل على الله تعالى

وعلاقته بالأسباب

تأليف

د. عبد الله بن عمر الدميجي

كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى

دار الوطن

الرياض - شارع المعذر - ص. ب ٣٣١٠

☎ ٤٧٩٢٠٤٢ - فاكس ٤٧٦٤٦٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

(7)

التوكل على الله تعالى

وعلاقته بالأسباب

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ

المقدمة

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾(١) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾(١) .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٠٢ .

(٢) سورة النساء ، آية : ١ .

(٣) سورة الأحزاب، آية : ٧٠ ـ ٧١ .

فإن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وأكرمه بهذا الدين القويم ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾[(١)] ؛ ولذا كان الشكر سبيل عباد الله الصالحين ، ودأب أولياء الله المتقين من أتباع الأنبياء والمرسلين ، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .

وإذا ما نظرنا إلى تركيب هذا الإنسان وجدنا خالقه العليم به ، وبما يصلحه، ركبه من عنصري الروح والجسد ، قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾[(٢)] . وشرع لهما ما يصلح شأنهما ، فجعل شرائع لأعمال القلوب ، وأخرى للجوارح ، وقَدَّر بينهما من التلازم والترابط ما لا يمكن معه أن ينفكّ أحدهما عن الآخر ، فلا يمكن أن تستقيم أعمال القلوب الباطنة إلا بانقياد الجوارح الظاهرة ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالجوارح ، فاستقامتها رهن بسلامة القلوب واستقامتها .

وإننا حين ننعم النظر في أعمال القلوب التي هي أصل الإيمان، ومادته التي ينبثق منها، نجد أنه ما من مقام أجمع لعلم القلب وعمله من التوكل على الله تعالى ؛ فهو من بين هذه الأعمال آكدها، ومن بين تلك المنازل أشرفها، وهو المقام الذي لا يمكن أن يستغني عنه الإنسان أبداً ؛ فإما أن يحقق التوكل على الله تعالى، الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه ، وإما أن يكون متوكلاً على مخلوق ضعيف مثله ، شأنه شأن المخلوقات الضعيفة التي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ، ولا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

---

(١) سورة إبراهيم ، آية : ٣٤.

(٢) سورة السجدة ، آية : ٩ .

ويظهر ذلك جلياً على بقية الأعمال القلبية الأخرى ، ويستتبع أعمال الجوارح الظاهرة أيضاً ؛ ولأجل ذلك قيل : « القلب مَلِكٌ والجوارح جنوده، فإذا صلح المَلِك صلحت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده»(١).

ومن هنا كان السلف الصالح معنيين ببيان هذا المقام الرفيع للتوكل على الله تعالى ، حتى جعله ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - : « جماع الإيمان»، وقال في حقه سعيد بن جبير « التوكل نصف الإيمان » ، ونعته الفضيل بن عياض بقوله : « التوكل قوام العبادة »(٢) .

وإن أمراً هذا شأنه لجدير باهتمام سلفنا الصالح ، وعناية علمائنا الأفاضل الذين تناولوه في كتاباتهم وتآليفهم ، وبوبوا له في سننهم ، ومصنفاتهم ، ومنهم من أفرده برسائل خاصة، كابن أبي الدنيا (رحمه الله تعالى) وتبعهم في ذلك أتباعهم بإحسان ، الذين اقتفوا أثرهم وترسموا خطاهم.

وهذا يدل فيما يدل عليه، على شمول هذه العقيدة السلفية الأثرية لجميع ما تحتاجه النفس، من العلم والعمل والتزكية والتهذيب ، وعلى بطلان دعاوى المناوئين ، القائلين باقتصارها على الاهتمام بالجوانب العلمية المعرفية الجامدة، والمجادلات العقيمة ، دون نظر إلى تزكية النفوس وتربيتها ، والاهتمام بأعمال القلوب ، وأن هذه من خصائص أرباب السلوك وأقطاب التصوف.

وقد تباينت أحوال الناس في أمر التوكل حتى غدوا طرائق قدداً ، فمنهم من استولت عليه الماديات، في غمرة طغيانها على هذه العصور المتأخرة ،

---

(١) قاله أبو هريرة رضي الله عنه . انظر ص٥٠ .

(٢) انظر ص (٥٤) من هذا البحث .

حتى حمل ذلك أكثرهم على التعلق الشديد بالدنيا والتكالب عليها ، على نحو استحوذ على عقولهم وأذهانهم ، وكان له أثر واضح في ضعف أعمال القلوب لديهم ـ والتوكل على الله من بينها ـ وقاد هذا الضعف إلى قلة الكتابة فيها ، وندرة المذكِّرين بها ، وعوّل الناس على الأسباب ، وتعلقوا بها فرحين بما عندهم من العلم ، معتمدين على ما أوتوا من قوة ، ومن وسائل مادية ، وآل أمر أكثرهم إلى أن نسوا الله ، راضين بالحياة الدنيا ، مطمئنين بها اطمئناناً يُخْشَى معه أن ينساهم كما نسوه ـ جزاءً وفاقاً .

ومن الناس من رضي لنفسه بالقعود ، وآثر التقاعس والإخلاد إلى الأرض ، وأعماه الكسل والخمول؛ فأخذ يبحث عن حجة يحتمي بها ، ومسوِّغ يلوذ بحماه عند مواجهة سهام النقد ، مُظهراً شعار التوكل على الله، زاعماً أن التوكل يقتضي ترك الأسباب وينافي الأخذ بها . وقصارى أمر هؤلاء أنهم قبعوا في الزوايا والخلوات ، ورضوا من الرزق بالإحسان إليهم والصدقات .

وهناك أقوام يبدو عليهم الصلاح ، ويظهر عليهم الحرص على طاعة الله، وبذل الجهد في طلب ما يرضيه ، بيد أن جانب التوكل عندهم قد ضعف ؛ فغفلوا عنه ، فنظروا إلى الرزق والحطام ، وأشفقوا على الأهل والأولاد ؛ فأخرست تلك النظرة ألسنتهم عن كلمة الحق ، وأقعدهم ذلك الإشفاق عن القيام بالإصلاح ، وهم غير غافلين عن حاجة الأمة إلى ذلك ، مدركين لمغبة التقصير في هذا الشأن ، وما يترتب عليه من عواقب وخيمة تهدم المجتمع وتقوِّض أركانه .

ومن الناس أقوام غيورون على دين الله ، تنبض قلوبهم بحرارة الإيمان،

راغبون في تدارك ما كان فرط منهم أوان شبيبتهم وغلبة شهوتهم ، فهم يسعون جاهدين للإصلاح ، قد قوي توكلهم على الله تعالى ، واعتمادهم عليه ، وإيمانهم بوعده المحقق ، كل ذلك يحدوه عواطف جياشة وحماس ثائر مصحوباً بعز الطاعة ولذتها التي ذاقوها ، بعد ذل المعصية ومرارتها التي عايشوها ، فأنستهم هذه الفورة ما كان يتعين عليهم من الأخذ بالأسباب ، والنظر في النواميس الكونية ، والاعتبار بالسنن الإلهية حتى جرهم ذلك إلى ما لا تحمد عقباه .

ومنهم من عرف الطريق فلزمه ، وعرف الله فوثق بنصره ، وعرف ما يجب عليه من الحق فصدع به ، قياماً بالواجب ، والتماساً لمرضاة الله ، وابتغاء ما عنده ، فنالهم من جراء ذلك ما جرت به سنة الله : ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾[1] نسأل الله تعالى للجميع الثبات على الحق ، والعزيمة على الرشد .

لنفسي أولاً ، ثم لهؤلاء وأولئك رأيت أن الحاجة ماسة إلى مثل هذه الرسالة ـ تذكرة وتصويباً وتثبيتاً ـ تذكرة للناسين والغافلين من تلك الطوائف ، وتصويباً لمن جانب الصواب ، وتثبيتاً لمن وفقه الله الاستقامة على الحق .

فكانت هذه المحاولة جمعاً للنصوص الشرعية ، وأقوال علماء الأمة المتعلقة بهذا الموضوع وترتيباً لها والتنسيق فيما بينها ، وتقديمها على هذه الهيئة ، على عجالة من الأمر ، وقلة من الزاد ، وضيق من الوقت ، وهو

(١) سورة العنكبوت ، آية : ٢ ـ ٣ .

جهد مُقِلٍّ، يردد مع ابن القيم رحمه الله في مقدمة طريق الهجرتين : « فيا أيها القارئ له ، والناظر فيه ، هذه بضاعة صاحبها المزجاة مسوقة إليك ، وهذا فهمه وعقله معروض عليك ، لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه ، ولك ثمرته وعليه عائدته ، فإن عدم منك حمداً وشكراً فلا يعدم منك عذراً ، وإن أبيت إلا الملام فبابه مفتوح . . . ».

والله المسئول أن ينفع به كاتبه وقارئه وعامة المسلمين ، إنه سميع الدعاء وأهل الرجاء ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وكان الفراغ منها بعد ظهر يوم الخميس الموافق للثاني عشر من شهر رمضان المبارك من العام السادس عشر بعد الأربعمائة والألف من هجرة المصطفى ﷺ في مكة المشرفة حرسها الله بمنه وكرمه .

وصلى الله وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

كتبه

عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي

الفصل الأول

تعريف التوكل وبيان حقيقته

الفصل الأول
تعريف التوكل وبيان حقيقته

أولاً : تعريف التوكل :

أ ـ المعنى اللغوي :

التوكل من مادة « وَكَلَ » يقال : « وَكَل بالله وتوكّل عليه واتكّل : استسلم له »(١) و « وكل إليه الأمر وَكْلاً و وكولاً : سلمه وتركه »(٢) .

و « رجل وَكَلٌ ـ بالتحريك ـ وَوُكَلَهٌ أيضاً مثال هُمَزَة ، وتُكَلَةٌ أي : عاجز يكلُ أمره إلى غيره ويتكل عليه »(٣) ، قال الأزهري : « رجلٌ وُكلة إذا كان يكل أمره إلى الناس »(٤) .

وفرس وَاكلٌ : « يتكل على صاحبه في العَدْو ، ويحتاج إلى الضرب » .

والوكيل فعيل بمعنى مفعول : الذي يقوم بأمر موكله . قال الأزهري :

---

(١) لسان العرب لابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) ط. ١٣٨٨، ن. دار صادر ودار بيروت . مادة (وكل) (١١/ ٧٣٤) .

(٢) القاموس المحيط للفيروز آبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب ، ط. الثانية ١٣٧١هـ، ن. مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي (٤/ ٦٧) مادة (وكل) .

(٣) تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري : إسماعيل بن حماد (ت٣٩٣هـ)، ن. مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي (٥/ ١٨٤٥) ، وانظر : لسان العرب (١١/ ٧٣٤) .

(٤) تهذيب اللغة للأزهري : أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠هـ) ، تحقيق عبد السلام هارون ط. ١٣٨٤ ، ن. الدار المصرية للتأليف والنشر (١٠/ ٣٧١) .

سُمِّيَ وكيلاً لأن موكله به قد وكل إليه القيام بأمره، فهو موكول إليه الأمر»[١].

والوكيل فسره بعضهم : بالكفيل . قال الراغب : « الوكيل أعمّ ؛ لأن كلَّ كفيل وكيلٌ ، وليس كلّ وكيل كفيلاً»[٢] .

والتوكيل : « أن تعتمد على غيرك ، وتجعله نائباً عنك » .

والتوكّل : تفعُّل من الوكَالة، بفتح الواو وكسرها : (إظهار العجز والاعتماد على غيرك)[٣] والاسم التكلان[٤] .

قال ابن الأثير : يقال : « توكل بالأمر : إذا ضمن القيام به ، ووكلت أمري إلى فلان أي : ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه ، ووكّل عن القيام بأمر نفسه »[٥] وقد يجتمعان .

قال الراغب : « التوكُّل يقال على وجهين ؛ يقال : توكلت لفلان بمعنى توليت له ، ويقال وكّلته فتوكَّل لي ، وتوكلت عليه بمعنى : اعتمدته»[٦] .

---

(١) نفس المصدر ١٠/ ٣٧٢ .

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني : أبي القاسم الحسين بن محمد (ت٥٠٢هـ) تحقيق محمد سيد كيلاني ط . دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان ص(٥٣٢) .

(٣) مجمل اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس (ت: ٣٩٥هـ) تحقيق : زهير عبد المحسن خلكان ط . أولى ١٤٠٤ مؤسسة (٣/ ٩٣٤) مادة (وكل) .

(٤) الصحاح للجوهري : إسماعيل بن حماد (ت: ٣٩٣ هـ) تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، ط . ثالثة ١٤٠٤ ، دار العلم للملايين (٥/ ١٨٤٥) مادة (وكل) .

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير : أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت: ٦٠٦هـ) تحقيق : طاهر الزاوي ومحمود الطناحي ، ط١٣٨٣ ، الناشر : المكتبة الإسلامية (٥/ ٢٢١) مادة (و ك ل) .

(٦) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص(٥٣١) .

وعليه ؛ فالوكالة يراد بها أمران : « أحدهما : التوكيل : وهو الاستنابة والتفويض . والثاني : التوكّل : وهو التصرف بطريق النيابة عن الموكل»[١] .

هذه بعض معاني هذه المادة ، وهناك معان أخر آثرت الصفح عنها لعدم تعلقها بالمعنى المراد هنا .

ب ـ المعنى الاصطلاحي :

أما المعنى الاصطلاحي للتوكل ؛ فنظراً لكونه تعبيراً عن حال من أحوال القلب التي يصعب ضبطها بحدّ ؛ فقد جاءت تفسيرات العلماء له على صور شتى ؛ فمنهم من فسره بلازمه ، ومنهم من فسره بأسبابه ودواعيه ، أو بثمرته أو بجزء معناه كما هي عادة السلف في تفسيراتهم .

ومن أسباب هذا الاختلاف ؛ أن أحوال وأعمال القلوب يصعب انضباطها بحدّ وحصرها بألفاظ ؛ لذلك قال الغزالي عن التوكل : « . . . غامض من حيث المعنى ، شاق من حيث العمل»[٢] .

كما أنهم لم يقصدوا بهذه التعريفات حقيقة التعريف الاصطلاحية وإنما قصدوا بيان أهمية هذه الخصلة ، أو مراعاة لظروف القائل أو حتى المستمع أو غيرها من الأسباب .

ولذلك جاءت تفسيراتهم وكأن في ظاهرها شيئاً من التغاير

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم محمد بن أبي بكر الزرعي (ت٧٥١هـ) تحقيق : محمد حامد الفقي ، ط . الثانية ١٣٩٣هـ (٢/ ١٢٦) .

(٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي أبي حامد محمد بن محمد (ت : ٥٠٥هـ) ، ن . دار المعرفة (٤/ ٢٤٣) .

والاختلاف، وهي في حقيقتها أجزاء من المعنى الكلي للتوكل ، أو من لوازمه وآثاره وثماره.

ومن أهم هذه التفسيرات :

١ - قال ابن عباس رضي الله عنهما : « هو الثقة بالله »[(١)] .

٢ - وقال الإمام أحمد : « هو قطع الاستشراف بالإياس من الخلق»[(٢)] ، وقال : « وجملة التوكل : تفويض الأمر إلى الله جل ثناؤه ، والثقة به»[(٣)] .

٣ - وقال عبد الله بن داود الخريبي[(٤)] : « أرى التوكل حسن الظن بالله»[(٥)] .

٤ - وقال شقيق بن إبراهيم[(٦)] : « التوكل طمأنينة القلب بموعود الله

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ) تحقيق : محمد بن عبد الرحمن عبد الله ، خرج أحاديثه السعيد بن بسيوني زغلول ط . أولى ١٤٠٧هـ، ن. دار الفكر (٢/ ٢٤).

(٢) طبقات الحنابلة للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى (ت٥٢٦ هـ) ، ن. دار المعرفة (١/ ٤١٦).

(٣) شعب الإيمان للبيهقي أبي الحسين أحمد بن الحسين (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق : محمد السيد ابن بسيوني زغلول ط. أولى ١٤١٠هـ ، ن. دار الكتب العلمية (٢/ ٥٧).

(٤) هو عبد الله بن داود بن عامر بن ربيع الإمام القدوة ، قال ابن سعد : كان ثقة عابداً ناسكاً ، توفي سنة ٢١٣هـ ، ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي (٩/ ٣٤٦) ، وتذكرة الحفاظ (١/ ٣٣٧) .

(٥) التوكل على الله عز وجل للحافظ أبي بكر بن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ) ، تحقيق : جاسم الفهيد ، ط. أولى ١٤٠٧ ، ن. دار البشائر ح: ٣٠ ص(٦٥) ، وشعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٩٧) ، وسير أعلام النبلاء (٩/ ٣٤٩).

(٦) هو شقيق بن إبراهيم أبو علي البلخي ، من كبار الزهاد . قال الذهبي : كان من كبار المجاهدين رحمه الله ، استشهد في غزوة كولان سنة ١٩٤هـ . ميزان الاعتدال (٢/ ٢٧٩).

عزوجل»[١] .

٥ـ وسئل الحسن عن التوكل ، فقا ل: « الرضا عن الله عز وجل»[٢] .

٦ـ وقال علي بن أحمد البوشنجي[٣] بعدما سئل عن التوكل ، فقال : «التبرئة من حولك وقوتك وحول مثلك وقوة مثلك»[٤] .

٧ـ وقال ابن الجوزي عن بعضهم : « هو تفويض الأمر إلى الله ؛ ثقة بحسن تدبيره»[٥] .

٨ـ وقال ابن رجب الحنبلي : « هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها»[٦] .

٩ـ وقال الحافظ ابن حجر : « وقيل : هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب»[٧] .

---

(١) شعب الإيمان (٢/ ٩٨) .

(٢) التوكل على الله ح :١٧ ص٥٣ ، وشعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٩٨) .

(٣) علي بن أحمد بن إبراهيم البوشنجي ، الصوفي الزاهد الورع توفي بنيسابور عام(٣٤٧ هـ وقيل :٣٤٨هـ) . ترجمته في حلية الأولياء (١٠/ ٣٧٩) والمنتظم لابن الجوزي (٦/ ٣٩١) وطبقات الشافعية للسبكي (٣/ ٣٤٤) .

(٤) شعب الإيمان (٢/ ٩٩).

(٥) زاد المسير (٢/ ٢٤) .

وانظر نحو هذه التفسيرات : شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٩٥) فما بعدها ، وإحياء علوم الدين (٤/ ٢٦٥) ، ومدارج السالكين (٢/ ١١٦).

(٦) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم لابن رجب الحنبلي أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين (ت : ٧٩٥هـ) ن. دار المعرفة ص(٤٠٩).

(٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) ط. الثالثة ١٤٠٧هـ ، ن. المكتبة السلفية ـ القاهرة (٣/ ٤٤٩).

١٠ ـ وقال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب : « هو إسناد العبد أمره إلى الله وحده لا شريك له في جميع أموره الدينية والدنيوية»[١].

١١ ـ ولعل أقرب التعريفات التي يمكن أن تجمع الجزئيات السابقة أن يقال في تعريفه : « هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله ، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع والعطاء والمنع ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ؛ فيوجب له اعتماداً عليه وتفويضاً إليه وطمأنينة به وثقة به ، ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه »[٢] .

ثانياً : حقيقة التوكل :

مما سبق يظهر أن التوكل حال مركب من مجموعة أمور لا تتم حقيقة التوكل إلا بها ، ولذلك قال ابن القيم : « وقد تقدم أن كثيراً من الناس يفسِّر التوكل بالثقة ، ويجعله حقيقتها ، ومنهم من يفسره بالتفويض ، ومنهم من يفسره بالتسليم ، فعلمت أن مقام التوكل يجمع ذلك كله »[٣] .

ومن سبق ذكرهم من العلماء فسر التوكل بواحد من هذه الأمور ، أو اثنين أو أكثر ، وقد سماها الحافظ ابن القيم درجات[٤] ، وهي كالتالي :

---

(١) الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، ط . الثانية ١٤٠٠هـ ، ن . المطبعة السلفية ـ القاهرة ص(٦ ـ ٧).

(٢) انظر : مدراج السالكين (١/ ٨٢) بتصرف . وانظر قريباً منه تجريد التوحيد للمقريزي ، ص(٢٨).

(٣) مدارج السالكين (١/ ١٤٤).

(٤) انظر المصدر السابق (٢/ ١١٧).

الأولى : معرفة بالرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيوميته ، وانتهاء الأمور إلى علمه ، وصدورها عن مشيئته ، واليقين بكفاية وكيله ، وكمال قيامه بما وكله إليه ، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك[١] .

قال ابن القيم : « وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل »[٢] ، ونقل عن شيخ الإسلام قوله : « ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف ولا من القدرية النفاة القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء ، ولا يستقيم أيضاً من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله ، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات »[٣] فهم بحق - أي الفلاسفة والقدرية النفاة - قطاع الطريق على القلوب بينها وبين خالقها ومحبوبها سبحانه وتعالى[٤] .

وكيف يتصور منهم ذلك - أي التوكل على الله تعالى - وهم ينكرون علم الله تعالى بالجزئيات ، وينفون عنه تعالى صفات الفعل الاختيارية ، والإرادة والمشيئة .

الثانية : إثبات الأسباب ورعايتها والأخذ بها .

فلا يستقيم توكل العبد إلا بإثبات الأسباب ؛ لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه . وقد فهم بعض المتصوفة أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل ، وأن نفيها من تمام التوكل .

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر (ت : ٧٥١هـ) ، ط . الثالثة ١٤٠٠هـ ، ن . المكتبة السلفية - القاهرة - ص(٢٣٩) .

(٢) مدراج السالكين (٢/ ١١٨) .

(٣) نفس المصدر (٢/ ١١٨) .

(٤) نفس المصدر (٣/ ١٧) .

ولهم في ذلك أقوال معروفة سيأتي الكلام عليها والرد عليها في موضعه إن شاء الله[١] . لكن من تمام التوكل عدم الركون إلى هذه الأسباب ، والاعتماد عليها وقطع علاقة القلب بها ، كما سيأتي تفصيله .

ولذلك : «فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب ، وتعلق الجوارح بها ، فيكون منقطعاً منها ، ومتصلاً بها ، والله سبحانه وتعالى أعلم»[٢] .

الثالثة : رسوخ القلب في مقام التوحيد .

« فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده ؛ بل حقيقة التوكل توحيد القلب ، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول ، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل»[٣] .

الرابعة : اعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه إليه وطمأنينته به والثقة بتدبيره ، كما قال بعض العارفين : « المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه ، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه »[٤] ، ولذلك قال ابن القيم : «التوكل معنى يلتئم من أصلين : الثقة، والاعتماد ، وهو حقيقة ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾[٥] [٦] .

---

(١) انظر ص(١٢٥).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٢٠) ، وانظر زيادة بيان للأسباب وعلاقتها بالتوكل ص(٥٨) من هذا البحث .

(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٢٠) وموضوع علاقة التوكل بالتوحيد سيأتي لها زيادة بيان وتفصيل إن شاء الله تعالى ص(٥٨).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ١٢١).

(٥) سورة الفاتحة، آية: ٥ .

(٦) مدارج السالكين (١/ ٧٥).

الخامسة : حسن الظن بالله عز وجل .

وقد فسره بعض من تقدم بذلك ، وهو من دواعي التوكل ، حيث لا يتصور التوكل إلا ممن يحسن الظن به تعالى .

قال ابن القيم : « والتحقيق أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه ؛ إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ، ولا التوكل على من لا ترجوه . والله أعلم »[(١)] .

ولذلك قال الله عزوجل في الحديث القدسي : « أنا عند ظن عبدي بي »[(٢)] ، وقال ﷺ قبل وفاته بثلاث : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى »[(٣)] .

السادسة : استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه وقطع منازعته .

---

(١) مدراج السالكين (٢/ ١٢١) .

(٢) رواه البخاري في التوحيد ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ ، ح : ٧٤٠٥ (الفتح١٣/ ٢٩٥) ، ومسلم في التوبة ، باب : في الحض على التوبة ، ح٢٦٧٥ (٤/ ٢١٠٢) والترمذي في الزهد ، باب : ما جاء في حسن الظن بالله ، ح : ٢٣٨٨ (٤/ ٥٩٦) ، وابن ماجه في الأدب ، باب : فضل العمل ، ح : ٣٨٢٢ ، (٢/ ١٢٥٥) ، والدارمي في الرقاق ، باب : حسن الظن بالله ، ح : ٢٧٣٤ (٢/ ٢١٤) ، وأحمد في المسند (٢/ ٢٥١، ٣١٥، ٣٩١) .

(٣) رواه مسلم في الجنة . باب : الأمر بحسن الظن بالله ، ح : ٢٨٧٧ (٤/ ٢٢٠٥) ، وأبو داود في الجنائز . باب : ما يستحب من حسن الظن بالله عند الموت ، ح : ٢٠٩٧ (عون ٨/ ٣٨٢) ، وابن ماجه في الزهد . باب : التوكل واليقين ، ح : ٤١٦٧ (٢/ ١٣٩٥) وأحمد (٣/ ٢٩٣ ، ٣١٥) .

وهذا من تمام التسليم لله تعالى؛ فلا يريد إلا ما أراده الله، ولا يحب إلا ما أحبه الله، ولا يبغض إلا ما أبغضه الله، ولا يفعل أو يترك إلا ما أمره الله بفعله أو تركه.

وهذا هو معنى تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى، وهو معنى حديث الولي، وفيه: « ... **وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه ... الحديث**»[(١)].

السابعة: التفويض[(٢)].

وهذا ما فسره به الإمام أحمد وغيره. قال ابن القيم: « وهو روح التوكل ولُبُّه وحقيقته، وهو إلقاؤه أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلباً واختياراً؛ لا كرهاً واضطراراً»[(٣)].

فالتفويض: براءة وخروج من الحول والقوة، وتسليم الأمر كله إلى مالكه[(٤)] عز وجل، وقد جاء في دعائه ﷺ: « **اللهم أسلمت وجهي إليك**،

(١) رواه البخاري في الرقاق، باب: التواضع، ح: ٦٥٠٢ (الفتح ١١/ ٣٤٨).
(٢) ذهب صاحب منازل السائرين الإمام الهروي إلى أن التفويض أوسع معنى من التوكل، وقد خالفه ابن القيم، وناقشه في أدلته وخلص إلى قوله: « فالذي نذهب إليه أن التوكل أوسع من التفويض وأعلى وأرفع». (انظر المدارج ٢/ ١٣٧-١٣٩) كما غلط شيخ الإسلام من جعل حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض المحض [انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٢)].
(٣) مدارج السالكين (٢/ ١٢٣).
(٤) مدارج السالكين (٢/ ١٣٨).

وفوضت أمري إليك»[١] .

وقال عن مؤمن آل فرعون : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾[٢] ، ثم عقب بجزاء هذا التفويض ، فقال عز وجل : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾[٣] .

روى ابن جرير الطبري بإسناده إلى الشعبي ، قال : تجالس شتير[٤] ابن شكل ومسروق ، فقال شتير : إما أن تحدث ما سمعت من ابن مسعود فأصدقك ، وإما أن أحدثك فتصدقني؟ ، فقال مسروق : لا بل حَدِّث فأصدقك . فقال : سمعت ابن مسعود يقول : إن أكبر آية في القرآن [تفويضاً][٥]﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[٦] قال مسروق : صدقت[٧] .

---

(١) رواه البخاري في الوضوء . باب : فضل من بات على وضوء ح : ٢٤٧ (الفتح ١/ ٤٢٦) ، ومسلم في الذكر والدعاء . باب : ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ، ح : ٢٧١٠ (٤/ ٢٠٨١) ، وأبو داود في الأدب (٩٨) ، والترمذي في الدعوات ١٦١ ، والدارمي في الاستئذان (٥١) ، وأحمد في المسند (٤/ ٢٨٥ ، ٢٩٠) .

(٢) سورة غافر ، آية : ٤٤ .

(٣) سورة غافر ، آية : ٤٥ .

(٤) هو شتير بن شكل بن حميد العبسي أبو عيسى الكوفي . يقال إنه أدرك الجاهلية ، مات في ولاية ابن الزبير ، وكان ثقة قليل الحديث . تهذيب التهذيب (٤/ ٣١١) .

(٥) عند ابن جرير « تفوضاً » ، والتصويب من المصادر الأخرى .

(٦) سورة الطلاق ، آية : ٣ .

(٧) رواه ابن جرير في التفسير (٢٨/ ١٤٠) ، وابن أبي الدنيا في التوكل على الله ح : ٥٠ ص(٨٧) بإسناد جيد . ورواه عبد الرزاق في المصنف ح : ٦٠٠٢ (٣/ ٣٧٠) والطبراني في الكبير ، ح : ٨٦٥٩ (٩/ ١٤٢) بأطول منه إلا أن الآية : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ بدل : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ، قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٢٦) : رواه كله الطبراني بأسانيد ، ورجال الأول رجال الصحيح غير عاصم بن بهدلة ، وهو ثقة وفيه ضعف .

الثامنة : الرضا.

قال ابن القيم : « وهي ثمرة التوكل، ومن فسره بها[١] ، فإنما فسره بأجل ثمراته وأعظم فوائده ؛ فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله»[٢] .

وذكر شيخ الإسلام أن الرضا والتوكل يكتنفان المقدور (فالتوكل قبل وقوعه ، والرضا بعد وقوعه»[٣] ، فمن توكل على الله قبل الفعل ، ورضي بالمقضي له بعد الفعل ، فقد قام بالعبودية ، أو معنى هذا[٤] .

وقد قرن الله تعالى بينهما في قوله : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ** ﴾[٥].

كما جمع بينهما النبي ﷺ في دعاء الاستخارة الذي كان يعلمه أصحابه كما يعلمهم السورة من القرآن ، فقال في أوله : « **اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم** » ؛ وهذا توكل وتفويض ، ثم ختمه بسؤال الرضا في قوله : « **واقدر لي الخير حيث كان ، ثم**

---

(١) كما تقدم عن الحسن (رحمه الله) ، وقول يحيى بن معاذ ، وقد سئل : متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال : إذا رضي بالله وكيلاً . وقال بشر الحافي : يقول أحدهم : توكلت على الله؛ يكذب على الله ؛ لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به . مدارج السالكين (٢/ ١٢٣) .

(٢) المدارج (٢/ ١٢٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٧) في رسالة : التحفة العراقية في الأعمال القلبية لشيخ الإسلام ص(٨٧) ، وانظرها مطبوعة مستقلة مع أمراض القلوب وشفائها . تحقيق د. محمود مطرجي . ط. أولى ١٤٠٦هـ ، ن. دار القلم.

(٤) المدارج ٢/ ١٢٢ .

(٥) سورة التوبة ، آية ٥٩ .

رضني به»[١] .

وكان من دعائه ﷺ في الصلاة « .. وأسألك الرضا بعد القضاء»[٢] . قال شيخ الإسلام : « سأله الرضا بعد القضاء ، لأنه حينئذ بين حقيقة الرضا قبله ، فإنما هو عزم على أنه يرضى إذا أصابه وإنما يتحقق الرضا بعده»[٣] .

فهذه الدرجات الثمانية التي منها ما هو من أسباب التوكل ودواعيه ، ومنها ما هو من ثماره وآثاره ، ومنها ما هو جزء معناه؛ مَنْ استكملها فقد استكمل مقام التوكل ، وثبت فيه ،وإذا انثلم منها واحد نقص من توكله بقدر تلك الثلمة . والله أعلم .

* * *

(١) الحديث رواه البخاري في التوحيد . باب : ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾ ح : ٧٣٩ (١٣/ ٣٨٧) ، والترمذي في الوتر . باب : ما جاء في صلاة الاستخارة ، ح : ٤٨٠ (٢/ ٣٤٥) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة ، باب : ما جاء في صلاة الاستخارة ح : ١٣٨٣ (١/ ٤٤٠) ، وأحمد في المسند (٣/ ٣٤٤) ، ولابن القيم كلام نفيس جداً في تعليقه على هذا الحديث في المدارج (٢/ ١٢٣) فليراجعه من شاء .

(٢) رواه النسائي في السهو ، باب (٦٢) ، ح : ١٣٠٥ و ١٣٠٦ (٣/ ٥٤) ، وأحمد في المسند (٥/ ١٩١) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٤) ، من حديث عمار بن ياسر ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، كما صححه الألباني في تخريجه أحاديث الكلم الطيب لشيخ الإسلام ص(٦٦) ، وقال : « حدَّث به عطاء قبل الاختلاط» .

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٢٣) ، وانظر : مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٧).

الفصل الثاني

منزلة التوكل من العقيدة

الفصل الثاني
منزلة التوكل من العقيدة

للحديث عن بيان منزلة التوكل من العقيدة لابد لنا من بيان منزلته من الإيمان ، ومنزلته من التوحيد ، وبيان منزلته من الإيمان يجرنا إلى الإشارة إلى بيان منزلة أعمال القلوب ـ الذي هو أحدها ـ من الإيمان ، ثم بيان منزلة التوكل من أعمال القلوب .

ولهذا جاء هذا الفصل على النحو التالي :

أولاً : منزلة أعمال القلوب من الإيمان:

لما كانت حقيقة العبد قلبه وروحه ، فلا غرابة أن نجد الإسلام ـ ممثلاً في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ـ قد اعتنى بهذا الجانب أشد العناية فجعل عمل القلب هو صلب قضية الإيمان في كل وقت وحين، وقطب رحاها الذي حوله تدور، وجعله حجر زاوية هذا الدين الذي بعث الله به الأنبياء والمرسلين .

قال الله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ** ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾[٢] .

---

(١) سورة يونس ، آية : ٥٧ .

(٢) سورة الأنفال ، آية : ٢٤ .

فتضمنت هذه الآية: «أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ولرسوله ﷺ؛ فمن لم تحصل له هذه الاستجابة، فلا حياة له وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهراً وباطناً، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم [أمواتٌ][1] وإن كانوا أحياء الأبدان»[2].

قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[3] وقال عز من قائل: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾[4] أي حي القلب[5].

وقال تعالى عن حزب الله المفلحين: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[6] فجعل كتابة الإيمان في القلوب.

وقال تعالى ممتناً على المؤمنين: ﴿...وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾[8].

وقال في الرخصة للتلفظ بالكفر عند الإكراه بشرط اطمئنان القلب

---

(١) في الأصل أمواتاً.

(٢) الفوائد لابن قيم الجوزية ص(٨١).

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٢٢.

(٤) سورة يس، آية ٦٩.

(٥) الفوائد ص(٣).

(٦) سورة المجادلة، آية: ٢٢.

(٧) سورة الحجرات، آية: ٧.

(٨) سورة الفتح، آية: ٤.

بالإيمان فيه : ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(١) .

وعلى ذلك تربى سلفنا الصالح، صحابة رسول الله ﷺ ، فكان يربيهم القرآن بما يحيي هذه القلوب ويوقظها من غفلتها ويداويها من أمراضها وأسقامها ، فعاتبهم الله عز وجل لما استبطأ خشوع هذه القلوب بقوله تعالى : ﴿ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾(٢) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ... ﴾(٣) الآية .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « ما بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ إلا أربع سنوات »(٤) .

وامتدحهم عز وجل بقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ② الَّذِينَ

---

(١) سورة النحل ، آية : ١٠٦ .
(٢) سورة الحديد ، آية : ١٦ .
(٣) رواه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٨/ ٤٥) .
(٤) رواه مسلم في التفسير . باب : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ ... ﴾ ، ح: ٣٠٢٧ (٤/ ٢٣١٩) .

يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾(١) .

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً .

وفي المقابل ذم الله المعرضين بقلوبهم عن الإيمان ، فقال عز وجل عن الأعراب : ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾(٢) .

وقال عن المنافقين : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ** ... ﴾ الآيات(٣) .

وقال عن بني إسرائيل : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ** ... ﴾(٤) .

وقال : ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ... ﴾(٥) .

وغيرها من النصوص القرآنية كثير .

أما من السنة ، فمن ذلك :

* حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه الطويل ، وفيه : « **... ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ،**

---

(١) سورة الأنفال ، آية ٢ـ٤ .

(٢) سورة الحجرات ، آية : ١٤ .

(٣) سورة المائدة ، آية ٤١ .

(٤) سورة المائدة ، آية ١٣ .

(٥) سورة البقرة ، آية ٧٤ .

ألا وهي القلب»[١] .

وقد عظم العلماء هذا الحديث ، فعدّوه رابع أربعة تدور عليه الأحكام، بل أشار ابن العربي إلى أنه يمكن أن ينتزع منه وحده جميع الأحكام . قال القرطبي : «لأنه اشتمل على التفصيل بين الحلال وغيره ، وعلى تعلق جميع الأعمال بالقلب ، فَمِنْ هنا يمكن أن ترد جميع الأحكام إليه»[٢] .

* حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم ؛ لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره . التقوى هاهنا** ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ؛ دمه وماله وعرضه**»[٣] .

ومعناه أن الأعمال الظاهرة فقط لا تحصل بها التقوى ، وإنما تحصل بما يقع في القلب .

* حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**الإسلام علانية**

---

(١) رواه البخاري في الإيمان . باب : فضل من استبرأ لدينه ، ح : ٥٢ (الفتح ١/ ١٥٣).
ومسلم في المساقاة ، باب : أخذ الحلال وترك الشبهات ، ح : ١٥٩٩ (٣/ ١٢١٩).
وابن ماجه في الفتن ، باب : الوقوف عند الشبهات ح : ٣٩٨٤ (٢/ ١٣١٨).
والدارمي في البيوع . باب : في الحلال بين والحرام بين ، ح : ٢٥٢٤ (٢/ ١٦١).
وأحمد في المسند (٤/ ٢٧٠ ، ٢٧٤).

(٢) فتح الباري (١/ ١٥٧).

(٣) رواه مسلم في البر ، باب : تحريم ظلم المسلم ، ح : ٢٥٦٤ (٤/ ١٩٨٦).
والترمذي في البر ، باب : ما جاء في شفقة المسلم على المسلم ، ح : ١٩٢٧ (٤/ ٣٢٥) بنحوه ، وأحمد في المسند (٢/ ٢٧٧ ، ٣٦٠) ، (٣/ ١٣٥ ، ٤٩١) .

والإيمان في القلب»[١] .

* حديث أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول : «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» . قلت : يا رسول الله ؛ آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : « **نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء**»[٢] .

وعليه ؛ فقد جعل العلماء[٣] حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى**»[٤] ؛ جعلوه نصف الدين لتعلقه بأعمال القلوب ، وجعلوا النصف

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/ ١٣٥) بإسناد حسن .

(٢) رواه الترمذي في البر ، باب : ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ، ح : ٢١٤٠ (٤/ ٤٤٨) ، وقال : حديث حسن .
ورواه ابن ماجه في الدعاء باب دعاء رسول الله ﷺ ، ح : ٣٨٣٤ (٢/ ١٢٦٠) ، قال في الزوائد : مدار الحديث على يزيد الرقاشي ، وهو ضعيف .
والحديث رواه أحمد أيضاً في المسند (٣/ ١١٢ ، ٢٥٧) و(٤/ ١٨٢ ، ٤١٨) ، و(٦/ ٩١ ، ٢٥١ ، ٢٩٤ ، ٣٠٢ ، ٣١٥).

(٣) انظر أقوال العلماء في منزلة هذا الحديث ؛ جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص(٥).

(٤) رواه البخاري في بدء الوحي ، باب : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ح : ١ (١/ ١٥) وغيره من المواضع .
ورواه مسلم في الأمارة ، باب : قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات» ، ح : ١٩٠٧ (٣/ ١٥١٥)، وأبو داود في الطلاق . باب : (١١)، والترمذي في الجهاد ، باب : (١٦)، وابن ماجه في الزهد ، باب : (٢٦) ، وأحمد في المسند (١/ ٢٥ ، ٤٣).

الآخر حديث : « **من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»(١) .

وهذا متعلق بأعمال الظاهر(٢) .

ومن هذين الحديثين يظهر شرطا العبادة : الإخلاص والمتابعة . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

ولا غرابة أن الله تعالى قد ذكر لنا أوصافاً عديدة للقلوب الحية السليمة ، ومنها :

١ - الخشوع : كما في قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ** ﴾(٣) .

٢ - الإنابة : كما في قوله تعالى : ﴿ **هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ** ﴾(٤) .

---

(١) رواه مسلم في الأقضية ، باب : نقض الأحكام الباطلة ، ح:١٧١٨ (٣/ ١٣٤٤) .
والبخاري تعليقاً في الاعتصام ، باب : إذا اجتهد العالم أو الحاكم فأخطأ (الفتح ١٣/ ٣٢٩) ، ومثله في البيوع ، باب : النجش (فتح ٤/ ٤١٦) ، ورواه مسنداً في الصلح ، باب : إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ، ح:٢٦٩٧ (فتح ٥/ ٣٥٥) بلفظ : «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**».
ورواه بلفظ مسلم أبو داود في السنة . باب :(٥٠) ، وابن ماجه في المقدمة ، باب :(٢) ، وأحمد في المسند (٢/ ١٤٦) .

(٢) قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله : « الحديثان يدخل فيهما الدين كله أصوله وفروعه ، ظاهره وباطنه ، فحديث عمر ميزان للأعمال الباطنة ، وحديث عائشة ميزان للأعمال الظاهرة). بهجة قلوب الأبرار ، وقرة عيون الأخبار في شرح جوامع الأخبار ص(٨) من الجزء الثاني الخاص بالحديث ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ رحمه الله.

(٣) سورة الحديد ، آية :١٦ .

(٤) سورة ق ، آية :٣٢-٣٣ .

٣ ـ **الوجل** : كما في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ** ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ** ﴾(٣) .

٤ ـ **الإخبات** : كما في قوله تعالى : ﴿ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ** ... ﴾(٤) . أي : تلين وتخشع . والإخبات هنا قريب من الهبوط في قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ﴾(٥)(٦) .

٥ ـ **اللين** : قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾(٧) .

٦ ـ **الربط** : ومنه يقال : فلان رابط الجأش أي : قوي القلب . قال الله

---

(١) سورة الأنفال ، آية : ٢ .

(٢) سورة الحج ، آية : ٣٥.

(٣) سورة المؤمنون ، آية : ٦٠ .

(٤) سورة الحج ، آية : ٥٤ .

(٥) سورة البقرة ، آية : ٧٤ .

(٦) المفردات ، ص(١٤١).

(٧) سورة الزمر ، آية : ٢٣ .

تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾(١) .

وقال عز وجل عن أصحاب الكهف : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾(٢) .

٧ ـ الوحدة وعدم التعدد : قال الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ... ﴾(٣) .

٨ ـ التقوى : قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾(٤) .

٩ ـ الهداية : قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٥) .

١٠ ـ الاطمئنان : قال الله عز وجل : ﴿ ... إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾(٦) .

وقال تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾(٧) ، وقال تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾(٨) .

---

(١) سورة الأنفال ، آية : ١١ .
(٢) سورة الكهف ، آية : ١٤ .
(٣) الأحزاب ، آية : ٤ .
(٤) سورة الحج ، آية : ٣٢ .
(٥) سورة التغابن ، آية : ١١ .
(٦) سورة النحل ، آية : ١٠٦ .
(٧) سورة البقرة ، آية ٢٦٠ .
(٨) سورة الرعد ، آية ٢٨ .

١١ ـ الطهارة : قال الله تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ** ... ﴾(١) .

وقوله تعالى عن اليهود : ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ** ﴾(٢) .

١٢ ـ السلامة : وهو الجامع لجميع الصفات السابقة والذي لا ينجو يوم القيامة إلا مَنْ أتى به . قال الله تعالى : ﴿ **إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾(٣) .

ولذلك وصف الله به قلب نبيه وخليله إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، قال الله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾(٤) .

والسليم هو القلب الذي صارت السلامة لازمة له ، كالعليم والقدير ، وأيضاً فهو ضد المريض والسقيم والعليل(٥) .

قال ابن القيم رحمه الله : « وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم ، والأمر الجامع لذلك أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره ، فسلم من عبودية ما سواه ، وسلم من تحكيم غير رسوله ؛ فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه

---

(١) سورة الأحزاب ، آية : ٥٣ .

(٢) سورة المائدة ، آية : ٤١ .

(٣) سورة الشعراء ، آية : ٨٩ .

(٤) سورة الصافات ، الآيتان : ٨٣ ، ٨٤ .

(٥) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن قيم الجوزية أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ، (ت : ٧٥١هـ) ، تحقيق : محمد حامد الفقي (١ / ٢) .

ورجائه، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والذل له وإيثار مرضاته في كل حال والتباعد من سخطه بكل طريق ، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده .

فالقلب السليم : هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما ؛ بل قد خلصت عبوديته لله تعالى : إرادة ومحبة وتوكلاً وإنابة وإخباتاً وخشية ورجاء وخلص عمله لله . . . »[١] .

وفي مقابل هذه القلوب السليمة نجد أن الله تعالى قد ذكر لنا القلوب الأخرى - الميتة والسقيمة والمريضة - محذراً منها ، ومن الأسباب المؤدية إليها ، ومن أهم هذه الأوصاف التي وصف الله بها تلك القلوب ما يلي :

١ - القسوة : كما في قوله تعالى : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً . . .** ﴾[٢] .

٢ - المرض : كما في قوله تعالى : ﴿ **لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً** ﴾[٣] .

---

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن قيم الجوزية أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ، (ت : ٧٥١هـ) . تحقيق : محمد حامد الفقي (١/ /٧-٨) .

(٢) سورة المائدة ، آية : ١٣ ، وقد جاء هذا الوصف للقلوب في آية (٧٤) من سورة البقرة ، و(٤٣) من سورة الأنعام، و(٥٣) من سورة الحج، و(١٦) من سورة الحديد .

(٣) سورة الأحزاب ، آية : ٦٠ ، وقد ورد هذا الوصف في آية (٣٢) من سورة الأحزاب أيضاً، وآية (١٠) من سورة البقرة ، وآية (٥٢) من سورة المائدة ، وآية (٤٩) من سورة الأنفال ، وآية (١٢٥) من سورة التوبة ، وآية : (٥٣) من سورة الحج ، وآية : (٥٠) من سورة النور ، وآية (١٢) من سورة الأحزاب ، وآية (٢٩) من سورة محمد .

٣ - الختم : كما في قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾(١) .

٤ - الغفلة : كما في قوله تعالى : ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾(٢) .

٥ - عدم الفقه : كما في قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾(٣) .

٦ - الطبع : كما في قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾(٤) .

٧ - الزيغ : كما في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ . . . ﴾(٥) .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٧ ، وذكر الله هذا الوصف في آية (٢٣) من سورة الجاثية ، وآية (٢٤) من سورة الشورى .

(٢) سورة الكهف ، آية : ٢٨ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٧٩ .

(٤) سورة الأعراف ، آية : ١٠١ ، وقد ورد هذا الوصف أيضاً في آية (٧٤) من سورة يونس ، وآية (٥٩) من سورة الروم ، وآية (١٠٠) من سورة الأعراف ، وآية (٨٧) من سورة التوبة ، وآية (٩٣) من السورة نفسها ، وآية (١٠٨) من سورة النحل ، وآية (١٦) من سورة محمد .

(٥) سورة آل عمران ، آية : ٧ ، وقد ورد هذا الوصف في آية (١١٧) من سورة التوبة ، وآية(٥) من سورة الصف .

٨ ـ العمى : كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾(١) .

٩ ـ الاشمئزاز عند ذكر الله : كما قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾(٢) .

١٠ ـ القفل : قال الله تعالى : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾(٣) .

١١ ـ عليها أكنة : قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾(٤) .

١٢ ـ الغلّ: قال تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾(٥) .

١٣ ـ الريْب : قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾(٦) .

١٤ ـ الريبة : وهي اسم من الريْب ، قال تعالى : ﴿ لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ . . . ﴾(٧) .

---

(١) سورة الحج ، آية : ٤٦ .

(٢) سورة الزمر ، آية : ٤٥ .

(٣) سورة محمد ، آية : ٢٤ .

(٤) سورة الأنعام ، آية : ٢٥ ، وود هذا الوصف في آية (٤٦) من سورة الإسراء ، وآية (٦٧) من سورة الكهف ، وآية (٥) من سورة فصلت .

(٥) سورة الحشر ، آية : ١٠ .

(٦) سورة التوبة ، آية : ٤٥ .

(٧) سورة التوبة ، آية : ١١٠ .

١٥ - الوجف : وهو الاضطراب ، قال تعالى : ﴿ **قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ** ﴾[١] .

١٦ - الإثم : كما قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ** ﴾[٢] .

١٧ - الرعب : كما في قوله تعالى : ﴿ **وقذف في قلوبهم الرعب** ﴾[٣] .

١٨ - الصغو : وهو الميل ، قال تعالى : ﴿ **وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ** ﴾[٤] ، أي : لتميل إليه . قاله ابن عباس[٥] رضي الله عنهما . والمراد ما يوحيه شياطين الإنس والجن بعضهم إلى بعض من زخرف القول .

١٩ - الإشراب لمعبوداتهم الباطلة : كما في قوله تعالى : ﴿ **وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ** ﴾[٦] . أي : فكأنما شُدّ في قلوبهم العجل لشغفهم . وقال بعضهم : معناه : أشرب في قلوبهم حب العجل[٧] .

٢٠ - الصرف : كما في قوله تعالى : ﴿ **صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ** ﴾[٨] .

---

(١) سورة النازعات ، آية : ٨.

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٨٣ .

(٣) سورة الأحزاب ، آية : ٢٦ ، وورد هذا الوصف في آية (١٥١) من سورة آل عمران ، وآية (١٢) من سورة الأنفال، وآية (٢) من سورة الحشر .

(٤) سورة الأنعام، آية : ١١٣ .

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٤).

(٦) سورة البقرة ، آية : ٩٣ .

(٧) المفردات ص(٢٥٧) .

(٨) سورة التوبة ، آية ١٢٧ .

٢١ ـ الشدّ : كما في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾(١) .

٢٢ ـ الإنكار : كما في قوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾(٢) .

٢٣ ـ عليها الران : كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(٣) .

٢٤ ـ اللهو : كما قال تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾(٤) .

فهذه الأوصافُ وما قبلها هي أوصاف القلوب الثلاثة : الحي ، والميت ، والمريض ، وقد جمع الله بينها في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٥) .

فجعل الله سبحانه وتعالى القلوب في هذه الآيات ثلاثة : قلبين

---

(١) سورة يونس ، آية : ٨٨ .

(٢) سورة النحل ، آية : ٢٢ .

(٣) سورة المطففين ، آية : ١٤ .

(٤) سورة الأنبياء ، آية : ٢ ، ٣ .

(٥) سورة الحج ، آية ٥٢ ـ ٥٤ .

مفتونين، وقلباً ناجياً ؛ فالمفتونان : القلب الذي فيه مرض ، والقلب القاسي، والناجي : القلب المؤمن المخبت إلى ربه وهو المطمئن إليه الخاضع له المستسلم المنقاد(١) .

فهذه النصوص ـ وغيرها ـ تعطي دلالة واضحة على مدى اهتمام الإسلام بالقلب وإصلاحه وتجنيبه أسباب المرض والسقم ، لأنه مَلك الجسد ، وسائر الأعضاء جنوده ، فإذا صلح صلحت الأعضاء ، وإذا فسدَ فسدت .

أما عن أعمال القلوب من المحبة والخوف والخشية والرغبة والرهبة والإنابة والتوكل والاستعانة والاستغاثة وغيرها ، فالنصوص الواردة فيها أكثر من أن تحصر ، وهي من صميم التوحيد والإيمان ، ومن ركائزه العظام . ولذلك قيل : كل آية فيها (ذات الصدور) فهي تدل على أهمية العمل القلبي، وعلى ارتباط أعمال القلب بأعمال الجوارح(٢) .

وكان الاهتمام بهذا الجانب المهم من ديننا الحنيف هو ديدن سلفنا الصالح رضوان الله تعالى عليهم علماً وعملاً . ولم يكن يخطر لهم ببال ـ فيما يظن ـ أن يأتي أحد يشك في أعمال القلوب ، ودخولها في الإيمان ؛ فضلاً عن أن يخرجها منه بالكلية ، ويجادل في ذلك .

ولكن بعد أن ابتعد الناس عن عصر النبوة كثر الكلام ، وقلّ العمل واستبدلوا الكلام النظري والمعرفة التجريدية الباردة بالإيمان العملي التطبيقي، وساعد على ذلك دخول العلوم ذات الأصول اليونانية والإغريقية

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٠).

(٢) ظاهرة الإرجاء ص(٣٨٨).

الوثنية ، وذات الجذور اليهودية والنصرانية المنحرفة، فكثر الانحراف واتسعت ميادينه وحكمت العقول وقدمت على النصوص الشرعية ، ولبس على المسلمين ما نزل إليهم من ربهم وأثيرت الشبهات التي لم يكن لها وجود في الأصل .

وكان مفهوم الإيمان وعلاقته بالأعمال أحد هذه المفاهيم التي أصابها الغبش والتحريف .

فانبرى علماء السنة يدافعون عن حقائق هذا الدين وأصوله العظام ، ومن أهمها الإيمان وعلاقته بالعمل ، فقلّ أن تجد كتاباً لأهل السنة في العقيدة إلا وينص على أن الإيمان قول وعمل ؛ يزيد وينقص .

وهذه من المسائل البدهية عندهم في صدر الإسلام المجمع عليها ، ولكنهم ألجئوا إلى الكلام فيها والتنصيص عليها، بعد أن ظهر الإرجاء وعم البلاء[(١)] .

قال الإمام البخاري رحمه الله : « أدركت ألفاً من علماء الأمصار ، كلهم يقولون : الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص»[(٢)] .

وقال ابن أبي حاتم : « سألت أبي وأبا زرعة عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين ، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار ، وما يعتقدان في ذلك ؛ فقالا : أدركنا العلماء في جميع الأمصار ؛ حجازاً وعراقاً وشاماً

---

(١) ظاهرة الإرجاء ص(٣٨٨).

(٢) فتح الباري (١/ ٦١) ، وانظر : عقيدة البخاري ـ وفيها هذا النص بمعناه ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١/ ١٧٤).

ويمناً ، فكان من مذهبهم : الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص»[١] .

وقد حكى الشافعي إجماع الصحابة والتابعين على ذلك ، وإنكارهم على من خالفه . وقال ابن كثير : « حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد . . . »[٢] وغيرهم .

وممن ذكر الإجماع أيضاً شيخ الإسلام ابن تيمية ؛ حيث قال : « أجمع السلف على أن الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص ؛ ومعنى ذلك أنه قول وعمل القلب ، ثم قول اللسان وعمل الجوارح»[٣] .

فالإيمان مركب من :

١ - **قول القلب** : وهو العقائد من المعرفة والعلم والتصديق[٤] ، وتشمل : اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه ، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله[٥] .

٢ - **قول اللسان** : وهو الإخبار عنه بذلك ، ومنه النطق بالشهادتين ، والدعوة إليه والذب عنه ، وتبيين بطلان البدع المخالفة له ، والقيام بذكره

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٧٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٥٢) وممن حكى الإجماع أيضاً : اللالكائي في شرح الأصول (٤/ ٨٣٢) ، وابن عبد البر في التمهيد (٩/ ٢٣٨) ، والبغوي في شرح السنة (١/ ٣٨) ، وغيرهم . ونقل شيخ الإسلام عن الإمام أبي عبيد القاسم بن سلام أسماء الأئمة من السلف من أهل الأمصار المختلفة الذين قالوا : الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، فبلغت حوالي صفحتين من كتابه . انظر : الإيمان ص(٢٩٣-٢٩٥) .

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٣) .

(٤) انظر : الإيمان ص(١٧٦) ، وإغاثة اللهفان (١/ ٨).

(٥) مدارج السالكين (١/ ١٠٠).

وتبليغ أمره .

٣ ـ **وعمل القلب** : كالمحبة له والتوكل عليه والإنابة إليه والخوف منه، والرجاء له . وإخلاص الدين له ، والصبر على أوامره ، وعن نواهيه وعلى أقداره ، والرضا به وعنه ، والموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، والذل له والخضوع، والإخبات إليه والطمأنينة به ، وغير ذلك من أعمال القلوب .

٤ ـ **وأعمال الجوارح** : كالصلاة والجهاد ، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات ، ومساعدة العاجز ، والإحسان إلى الخلق ، ونحو ذلك[(١)] .

ومع أن أعمال الجوارح جزء من الإيمان خلافاً للمرجئة ـ كما تقدم ـ إلا أنها تأتي في المرتبة الثانية بعد أعمال القلوب ؛ فالقلب هو موضع الإيمان الأصلي ، وإيمانه أهم أجزاء الإيمان ؛ ومن هنا كان قوله وعمله هو أصل الإيمان الذي لا يوجد بدونه مهما عملت الجوارح « ففرض ـ أعمال القلوب ـ أفرض من أعمال الجوارح ، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها ، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة»[(٢)] ولا خلاف بين عقلاء بني آدم في أن كل حركة بالجارحة لا تكون إلا بإرادة قلبية ، وإلا فهي من تصرفات المجانين أو حركات المضطربين فاقدي الإرادة»[(٣)] .

قال شيخ الإسلام : « دخول أعمال القلب في الإيمان أولى من دخول

---

(١) انظر مدارج السالكين (١/ ١٠٠ ـ ١٠١) ، والفوائد ص(١٠٧) ، وزاد المعاد (٣/ ٤٢)، ومعارج القبول (٢/ ١٥ ـ ١٨).

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٠١) .

(٣) ظاهرة الإرجاء ص(٣٨٨).

أعمال الجوارح باتفاق الطوائف كلها »[١] ، ويوضح ذلك بأن « أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال ، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها»[٢] .

ويقول : « الدين القائم بالقلب من الإيمان علماً وحالاً هو الأصل ، والأعمال الظاهرة هي الفروع ، وهي كمال الإيمان ، فالدين أول ما يبتدئ بأصوله ويكمل بفروعه»[٣] .

ويعلل رحمه الله ذلك بأن « اعتقاد القلب أصل لقول اللسان ، وعمل القلب أصل لعمل الجوارح ، والقلب هو ملك البدن ، كما قال أبو هريرة رضي الله عنه : « القلب مَلكٌ ، والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث الملك خَبثت جنوده»[٤] .

وإيمان القلب ليس هو مجرد التصديق القلبي[٥] ـ كما تدعي جهمية المرجئة[٦] ـ وإنما يشمل :

١ ـ **قول القلب** : من المعرفة والعلم والتصديق . . كما تقدم .

٢ ـ **وعمل القلب** : من الإذعان والانقياد والاستسلام[٧]، كما تقدم أيضاً .

---

(١) الإيمان الأوسط ص(٤٨) ، وانظر : مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٦) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٥٥) .

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٣٤) .

(٥) الإيمان (١٧٨) .

(٦) يذكر شيخ الإسلام أن غالب فرق المرجئة تدخل الأعمال القلبية في مسمى الإيمان .
انظر : الإيمان الأوسط ص(٨٥) ، والإيمان ص(١٨٤) .

(٧) حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة لمحمد عبد الهادي المصري ص(١١٠) .

العلاقة بين الظاهر والباطن :

ومع أننا ذكرنا أن أعمال القلوب (الباطنة) مقدمة على أعمال الجوارح (الظاهرة) إلا أن هناك ارتباطاً وثيقاً جداً بينهما .

يقول شيخ الإسلام : « وهذه الأمور الظاهرة والباطنة بينهما ارتباط ومناسبة ، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أموراً ظاهرة ، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعوراً وأحوالاً »(١) .

ويقول : « إن الظاهر لابد له من باطن يحققه ويصدقه ويوافقه ، فمن قام بظاهر الدين من غير تصديق بالباطن فهو منافق ، ومن ادعى باطناً يخالف ظاهره فهو كافر منافق ، بل باطن الدين يحقق ظاهره ويصدقه ويوافقه ، وظاهره يوافقه باطنه ويصدقه ويحققه ، فكما أن الإنسان لابد له من روح وبدن وهما متفقان ، فلابد لدين الإنسان من ظاهر وباطن يتفقان ، فالباطن للباطن من الإنسان والظاهر للظاهر منه ، والقرآن مملوء من ذكر أحكام الباطن والظاهر ، والباطن أصل الظاهر . . . »(٢) .

ومن التلازم بين أعمال القلب وأعمال الجوارح أيضاً أنه لا يتصور إطلاقاً إيمان القلب من غير ظهور لذلك الإيمان على الجوارح . « وذلك لأن أصل الإيمان هو ما في القلب ، والأعمال الظاهرة لازمة لذلك ، لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح ؛ بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب ، فصار الإيمان متناولاً للملزوم واللازم ، وإن كان أصله في القلب ، وحيث عطفت عليه

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٧٩) ، تحقيق : د. ناصر العقل . ط. أولى ١٤٠٤هـ .

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٦٩).

الأعمال فإنه أريد أنه لا يُكْتَفَى بإيمان القلب ، بل لابد معه من الأعمال الصالحة»[١] .

ويقول شيخ الإسلام أيضاً : « وإذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له ، لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة ، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه ودليله ومعلوله .

كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال، له أيضاً تأثير فيما في القلب، فكل منهما يؤثر في الآخر ؛ لكن القلب هو الأصل والبدن فرع له ، والفرع يستمد من أصله ، والأصل يثبت ويقوى بفرعه ، كما في الشجرة التي يضرب بها المثل لكلمة الإيمان . . . »[٢] .

ولذلك قال رحمه الله : « والتحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة ، ويمنع أن يقوم بالقلب إيمان تام بدون عمل ظاهر»[٣] .

وهذا التلازم هو بالنسبة لحال المؤمن وحقيقته وحكمه في الدار الآخرة ، أما حكمه في الدنيا فلا ينظر إلا إلى الظاهر ، وتجري الأحكام الدنيوية على ما ظهر منه ، وتوكل السرائر والبواطن إلى عالم السر وأخفى سبحانه وتعالى .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « إن الإيمان الظاهر الذي تجري عليه

---

(١) الإيمان ص(١٨٦ ـ ١٨٧) ، وانظر : حقيقة الإيمان ص (١٠٩).

(٢) الإيمان الأوسط ص(٨٣).

(٣) الإيمان ص(١٩٢).

الأحكام في الدنيا لا يستلزم الإيمان الباطن الذي يكون صاحبه من أهل السعادة في الآخرة ، فإن المنافقين الذين قالوا : ﴿**آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾(١) هم في الظاهر مؤمنون ، يصلون مع الناس ويصومون ويحجون ويغزون ، والمسلمون يناكحونهم ويوارثونهم كما كان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ ، ولم يحكم النبي ﷺ في المنافقين بحكم الكفار المظهرين للكفر في مناكحتهم ولا موارثتهم ولا نحو ذلك »(٢) .

ولذلك قال ﷺ : « **إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ، ولا أشق بطونهم** »(٣) في قصة الخارجي وكلام خالد للرسول ﷺ بشأنه .

وهذا التفريق هو ما كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم ؛ فكان سفيان الثوري وابن المبارك يقولان : « الناس عندنا مؤمنون في المواريث والأحكام ، ولا ندري كيف حالهم عند الله عز وجل »(٤) .

وقال ابن جرير : « فإن حكم الله في كل من أظهر الإسلام بلسانه أن يحقن بذلك دمه وماله ، وإن كان معتقداً غير ذلك ، وَتَوَكَّلَ هو جَلَّ ثناؤه بسرائرهم ، ولم يجعل للخلق البحث عن السرائر ؛ فلذلك كان النبي ﷺ مع علمه بهم - أي المنافقين - وإطلاع الله إياه على ما في ضمائرهم واعتقاد

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٨ .

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢١٠) ، وانظر الإيمان ص (٣٣٥) .

(٣) رواه البخاري في المغازي، باب : بعث علي وخالد إلى اليمن ح : ٤٣٥١ (الفتح ٧/ ٦٦٥) ورواه مسلم في الزكاة ، باب : ذكر الخوارج وصفاتهم ، ح : ١٠٦٤ (٢/ ٤٧٢) .

(٤) السنة للخلال (٣/ ٥٦٧) ، وابن بطة في الإبانة ح : ١١٧٦ ص(٧٥٧) والآجري في الشريعة ح : ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، وعبد الله بن أحمد في السنة ، ح : ٦٠٩ (١/ ٣١١)، وأبوداود في مسائل الإمام أحمد ص(٢٧٤) .

صدورهم كان يقرهم بين أظهر أصحابه ، ولا يسلك بجهادهم مسلك جهاد [من] قد ناصبه الحرب على الشرك بالله . . . »[١] .

ثانياً : منزلة التوكُّل من أعمال القلوب :

بعد أن تبين لنا مما سبق منزلة أعمال القلوب من الإيمان ، وظهر أنها هي الأصل وأعمال الجوارح تابعة لها ؛ نبين في هذا المبحث منزلة التوكل من أعمال القلوب التي هي أصل الإيمان وأشرف عناصره .

ومن تتبع مأثور السلف رضي الله عنهم في هذه المسألة وجد أن بعضهم أشار إلى منزلة التوكل من الإيمان نفسه ، ومنهم من أشار إلى منزلته من أعمال القلوب التي هي أصل الإيمان ، ومنهم من أشار إلى منزلته من العبادة بمفهومها الواسع ، ومن هذه النصوص :

١ ـ ما رواه البيهقي بإسناده عن ابن عباس قال : « التوكل جماع الإيمان»[٢] .

٢ ـ وروى ابن أبي شيبة بإسناده إلى سعيد بن جبير : مثله[٣] .

---

(١) التفسير (١٤/ ٣٦٠).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١١١) ، وفيه أبو بلال الأشعري، قال البيهقي : ليس بالقوي .

(٣) المصنف لابن أبي شيبة (١٠/ ٣٥٣) و (١٣/ ٥٣٨) وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة ، ح: ٧٧٦ (١/ ٣٦١) ، والخلال في الحث على التجارة ص(٣٤) ، والبيهقي في الشعب (٢/ ١١١) ، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٧٤) ، وابن أبي الدنيا في التوكل ، ح: ٥ ، ص(٣٩) ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٤/ ١٢).

٣ ـ وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عن سعيد بن جبير ، قال : «التوكل على الله نصف الإيمان»(١) .

٤ ـ وروى البيهقي بإسناده إلى سهل بن عبد الله قال : « من طعن في الاكتساب فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان»(٢) .

٥ ـ وقال الإمام أحمد : « التوكل عمل القلب»(٣) .

٦ ـ وقال الجنيد بن محمد : « التوحيد قول القلب ، والتوكل عمل القلب»(٤) .

٧ ـ وروى البيهقي بإسناده إلى فضيل بن عياض قال : « التوكل قوام العبادة»(٥) .

فهذه النصوص وما في معناها تشير إلى منزلة التوكل من هذه الأمور ، وهي ، وإن كان ظاهرها التغاير ، مؤداها واحد .

ولزيادة إيضاح منزلة التوكل من أعمال القلوب ، نشير إلى هذه التقسيمات باعتباراتها الثلاثة ، التي يظهر لنا من خلالها علو تلك المنزلة :

---

(١) الدر المنثور (٤/ ١٢).

(٢) البيهقي في الشعب (٢/ ١٠٣).

(٣) طريق الهجرتين ص (٢٣٩) ، وانظر : تيسير العزيز الحميد ص(٤٩٦).

(٤) الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية ص(١٧٦) ، وانظر مجموع الفتاوى (١/ ٢٦٨).

(٥) شعب الإيمان (٢/ ١١٢) .

١ ـ باعتبار العبودية على أعضاء الإنسان :

فالعبودية منقسمة على ثلاثة أعضاء من الإنسان ، لكل منها عبودية خاصة قائمه به ، وهذه الأعضاء هي : القلب ، واللسان ، والجوارح .

والأحكام التي للعبودية هي أحكام التكاليف الخمسة : الواجب ، والمستحب ، والمباح ، والمكروه ، والمحرم .

فواجب القلب ـ الذي هو أشرف الأعضاء ومديرها ـ كما تقدم ـ منه متفق على وجوبه ، ومنه مختلف فيه .

فالمتفق على وجوبه : كالإخلاص ، والتوكل ، والمحبة ، والصبر ، والإنابة ، والخوف ، والرجاء ، والتصديق الجازم ، والنية في العبادة . .

وأما المختلف فيه فكالرضا . . [١] .

ومن هذا نخلص إلى أن التوكل من أوجب الواجبات على أشرف الأعضاء الذي هو القلب .

٢ ـ باعتبار عناصر الإيمان :

أما عناصر الإيمان فهي تنقسم كما أسلفنا [٢] إلى أربعة عناصر ؛ قول القلب ، وقول اللسان ، وعمل القلب ، وعمل الجوارح .

وعلى هذا التقسيم ، نجد أن التوكل داخل في أهم هذه العناصر وأشرفها ؛ الذي هو قول القلب وعمله . قال ابن القيم : « إن التوكل يجمع أصلين : علم القلب ، وعمله .

---

(١) انظر : مدارج السالكين (١/ ١١٠) . وسيأتي بيان ذلك ص(١٤٣) .

(٢) انظر : ص(٢٩) من هذا البحث .

أما علمه : فيقينه بكفاية وكيله ، وكمال قيامه بما وكله إليه ، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك .

وأما عمله : فسكونه إلى وكيله ، وطمأنينته إليه ، وتفويضه وتسليمه أمره إليه ، ورضاه بتصرفه له ، فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه .

فبهذين الأصلين يتحقق التوكل ، وهما جماعه ، وإن كان التوكل أدخل في عمل القلب من علمه كما قال الإمام أحمد : « التوكل عمل القلب » ولكن لابد فيه من العلم ، وهو إما شرط فيه وإما جزء من ماهيته . . . »[١] .

٣ ـ باعتبار ترتب الثواب والعقاب :

وذلك أن أقوال القلب وأفعاله تنقسم بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام[٢] :

١ ـ ما هو حسنة وسيئة بنفسه .

٢ ـ ما ليس سيئة بنفسه حتى يفعل ؛ وهي السيئة المقدورة .

٣ ـ ما هو مع العجز كالحسنة والسيئة المفعولة ، وليس هو مع القدرة كالحسنة والسيئة المفعولة .

فالقسم الأول : هو ما يتعلق بأصول الإيمان مع التصديق والتكذيب والحب والبغض . . . ومنه التوكل ، فهذه يحصل بها الثواب والعقاب بما يكون في القلوب ، وإن لم يظهر على الجوارح .

وأما القسم الثاني والثالث فمظنة الأفعال التي لا تنافي أصول الإيمان ؛

---

(١) طريق الهجرتين ص(٢٣٩) .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٥٩).

مثل المعاصي الطبعية [١] . . . وعليه ؛ فالتوكل ـ كما أسلفنا ـ من القسم الأول الذي هو أشرف وأعلى هذه الأقسام .

ونخلص من هذا كله إلى أن التوكل من أشرف الرتب وأعلى المقامات من أعمال القلوب ، التي هي أصل الإيمان ، الذي هو أجل وأعظم ما تعبد الله تعالى به .

وسيأتي زيادة بيان ـ إن شاء الله تعالى ـ لمنزلة التوكل من الإيمان عند الحديث عن كونه شرطاً من شروطه ، ولازماً من لوازمه ومقتضياته [٢] .

ثالثاً : التوكّل والتوحيد :

التوحيد هو أساس التوكل ، وقاعدته الصلبة التي يقوم عليها ؛ لذلك فإنه « لا يستقيم توكل العبد حتى يصلح له توحيده ، بل حقيقة التوكل توحيد القلب ، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول » [٣] .

ولذلك قال الجنيد : « التوحيد قول القلب ، والتوكل عمل القلب » [٤] . قال شيخ الإسلام : « أراد بذلك التوحيد الذي هو التصديق ، فإنه لما قرنه بالتوكل جعله أصله ، وإذا أفرد لفظ التوحيد فهو يتضمن قول القلب وعمله » [٥] .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٦٠) .
(٢) ص (٦٦) .
(٣) مدارج (٢/ ١٢٠) .
(٤) الإيمان ص (١٧٦) ، وتقدم ص (٥٥) .
(٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٦٨) .

لهذا فهو يشاركه أيضاً في المحل ، فكما تقدم[١] أن التوكل يقوم بقول القلب وعمله؛ فكذلك التوحيد وما يضاده « يكون في أقوال القلب ، ويكون في أعمال القلب »[٢] .

وهذا التلازم والعلاقة بين التوحيد والتوكل ظاهرة في أنواع التوحيد الثلاثة :

١ ـ أما توحيد الربوبية : فعلم العبد بتفرد الحق تعالى وحده بخلق الأشياء كلها وملكها وتدبيرها ، وأنه ليس له مشارك في ذرة من ذرات الكون ، من أقوى أسباب التوكل وأعظم دواعيه ، « فإذا تحقق ذلك علماً ومعرفة ، وباشر قلبه حالاً ، لم يجد بداً من اعتماد قلبه على الحق وحده ، وثقته به ، وسكونه إليه وحده ، وطمأنينته به وحده ، لعلمه أن حاجاته وفاقاته وضروراته وجميع مصالحه كلها بيده وحده لا بيد غيره ، فأين يجد قلبه من التوكل بعد هذا؟ »[٣] .

لذا فإنه يستحيل أن يحصل تحقيق التوكل حتى يؤمن العبد بكامل ربوبيته عز وجل ، وما تتضمنه من كامل تصرفه ومشيئته وقدرته وقيوميته وإحاطته بكل شيء ، وأنه وحده مالك النفع والضر ، بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

ولهذا نجد في كثير من الآيات ربط التوكل بالربوبية كما في قوله

---

(١) ص (٥٤) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٦٨) .

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١٣٦) .

تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾(١) ، وقال عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(٢) ، وقوله عن هود عليه السلام : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٣) ، وقال في سورة الفرقان : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾(٤) . فجعل من لوازم الربوبية التي لا جدال فيها تحقيق التوكل على الله عز وجل .

٢ ـ توحيد الأسماء والصفات :

فمعرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته وأفعاله شرط أساسي في حصول التوكل ، وكل من كان بالله تعالى وصفاته أعلم كان توكله أكمل ، فهو من أعظم المقامات تعلقاً بالأسماء ؛ فله تعلق باسم « الغفار والتواب والعفو والرءوف والرحيم » من جهة توكل العبد على ربه في مغفرته الذنوب وتجاوزه عن السيئات .

وله تعلق باسم «الفتاح والوهاب والرزاق والمعطي والمحسن» من جهة توكله عليه في رزقه وقوته . وله تعلق باسم « المعز المذل ، والخافض الرافع»

(١) سورة المجادلة ، آية : ١٠ .

(٢) سورة هود ، آية ١٢٣ .

(٣) سورة هود ، آية : ٥٦ .

(٤) آية : ٥٨ ، قرأ الخوَّاص هذه الآية فقال : «ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله » [إحياء علوم الدين (٤/ ٢٤٥)] .

من جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه ونصره عليه. إلى غير ذلك من التعلقات .

ولهذا فسره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله وصفاته[١] ، وتقدم قول شيخ الإسلام أنه لا يتصور التوكل من الفلاسفة ولا القدرية النفاة . . قال : « ولا يستقيم أيضاً من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله ، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات»[٢] .

والآيات التي ربطت بين التوكل وبين الأسماء والصفات كثيرة .

منها على سبيل المثال : قوله تعالى : ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ** ﴾[٣] ، وقوله : ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾[٤] ونحوها .

٣ ـ توحيد الألوهية :

يستحيل أن يتم توكل العبد حتى يتم أمران ، لهما صلة تامة بتوحيد الألوهية ، هما :

أ ـ حسن الظن بالله عز وجل ، إذ على قدر حسن ظن العبد بربه ورجائه له يكون توكله عليه ، ولا يعقل أن يكون توكّلٌ ممن ساء ظنه بربه ، وقد تقدم تفسير التوكل بحسن الظن بالله[٥] .

---

(١) انظر : مدارج السالكين (٢/ ١٢٥).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١١٨) ، وانظر ص(٧) من هذا البحث .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات من : ٢١٧ ـ ٢١٩ .

(٤) سورة الأنفال ، آية : ٦١ .

(٥) ص(٤) .

ب ـ إلقاء الأمور كلها إلى الله تعالى ، وهذا هو التفويض ، وهو روح التوكل وحقيقته[١] ، وتقدم تفسيره بذلك أيضاً[٢] .

فالتوكل : هو اعتماد القلب على الوكيل ، بحيث يطمئن قلب العبد إلى وكيله ويسكن إليه[٣] ، ويفوض أمره إليه . قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾[٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[٥] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾[٦] وهذه الآية تجمع بين توحيدي الربوبية والإلهية وبين التوكل.

ويصور العلاقة بين الإلهية والتوكل أيضاً الآيات التي ربطت العبادة والإنابة بالتوكل وهي كثيرة جداً سيأتي الكلام عليها في حينه إن شاء الله تعالى[٧] .

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٣).

(٢) ص (٥).

(٣) معالم التوحيد ، د. مروان القيسي ، ط. أولى ١٤١٠ ، ن. المكتب الإسلامي ص(٧٩).

(٤) سورة غافر ، آية : ٤٤ .

(٥) سورة الرعد ، آية : ٣٠.

(٦) سورة التوبة ، آية : ١٢٩ .

(٧) انظر مبحث التوكل والعبادة ص(٧٤) فما بعدها .

الفصل الثالث

أهمية التوكل

الفصل الثالث
أهمية التوكل

ذكرنا فيما تقدم منزلة التوكل من أعمال القلوب التي هي أشرف عناصر الإيمان ، وعلى هذا ؛ فالتوكل جزء من ماهية الإيمان وعناصره العظام ؛ بل إن التوكل جماع الإيمان كما تقدم عن بعض السلف ، وقد عده الحليمي[1] - ومن بعده البيهقي [2] - من شعب الإيمان ، كما أشرنا إلى صلته بالتوحيد بأنواعه الثلاثة ، ولا شك أن أمراً هذه منزلته لابد أن يكون ذا أهمية في دين الإسلام ، كيف وقد ذكره الله تعالى في خمس وعشرين آية من القرآن الكريم، موزعة على ثنتين وعشرين سورة ، بين أمر بالتوكل أو ثناء على المتوكلين ! .

ولعلنا في هذه العجالة نلقي الضوء على بعض الصور المبينة لأهمية التوكل في دين الإسلام ، ومنها :

أولاً : اقترانه بمراتب الدين الثلاث (الإيمان والإسلام والإحسان) وشعائره العظام:

عند استعراضنا للآيات القرآنية الواردة في التوكل نجد أن الله تعالى قد قرن بين التوكل وبين مراتب الدين الثلاثة : الإيمان والإسلام والإحسان،

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي (٢/ ٣) الشعبة الثالثة عشرة .

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٥٧) الشعبة : الثالثة عشرة أيضاً .

وبينه وبين الهداية والتقوى والدعاء والصبر والعبادة .

ومن ذلك :

١ ـ كونه شرطاً للإيمان ولازماً من لوازمه ومقتضياته :

تقدم أن التوكل هو جماع الإيمان ، وجزء من ماهيته ، لكننا عند استعراضنا لآيات القرآن العظيم ؛ نجد أن الله تعالى قد جعله شرطاً من شروط تحقيق الإيمان ، من ذلك :

ـ قول الله عز وجل : ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾[١] ، وفي هذه الآية جعله شرطاً لتحقيق الإيمان والإسلام .

ـ وقال عز وجل : ﴿ **قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[٢]. قال ابن القيم : « فجعل التوكل شرطاً في الإيمان ؛ فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل »[٣] .

ـ وقال تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا** ﴾[٤] ، فربط بين الإيمان والتوكل.

ـ وقال عز وجل : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾[٥] .

---

(١) سورة يونس ، آيتان : ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) سورة المائدة ، آية : ٢٣ .

(٣) طريق الهجرتين ، ص٢٣٧ .

(٤) سورة الملك ، آية : ٢٩ .

(٥) سورة التغابن ، آية : ١٣ .

« فَذكْرُ اسم الإيمان هنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان التوكل، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه ، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى ، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل ، وإذا كان التوكل ضعيفاً فهو دليل على ضعف الإيمان ولابد»(١) .

لكن بقي أن يقال : كيف تَعُدُّون التوكل فيما تقدم جزءًا من الإيمان وعنصراً من عناصره العظام ، وتعدُّونه هنا شرطاً من شروطه ، ولازماً من لوازمه ومقتضياته ؟ .

والجواب : أن الإيمان إذا أطلق دخل فيه التوكل وسائر أعمال القلوب والجوارح ، أما إذا قرن به التوكل فإنه يكون قسيماً له . وذلك نحو الأعمال وصلتها بالإيمان ؛ فإنا نجدها في القرآن الكريم معطوفةً على العمل ، والعطف ـ غالباً ـ يقتضي المغايرة ، مع أن مما أجمع عليه أهل السنة والجماعة دخول العمل في مسمى الإيمان ـ وتقدم ـ وهذا بناء على القاعدة التي تقول : «إن من الأسماء ما يكون شاملاً لمسميات متعددة عند إفراده وإطلاقه ، فإذا قرن بغيره صار دالاً على بعض تلك المسميات ، والاسم المقرون دال على باقيها»(٢) .

والمعطوف هنا إما أن يكون داخلاً في المعطوف عليه ، وإنما ذكر باسمه

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ص(٢٣٨) ، وانظر : بدائع الفوائد له (٢/ ٢٦٨)، وفيه ذكر كتاباً له سماه الفتح القدسي ، أشار إلى أنه ذكر فيه حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه . . . إلخ . انظر ابن قيم الجوزية ، حياته وآثاره ، للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد ص (١٧٥).

(٢) جامع العلوم والحكم ص(٢٦) ، قال : وصرح بهذا المعنى جماعة من الأئمة ، وذكر منهم أبا بكر الإسماعيلي في رسالته إلى أهل الجبل ، والخطابي في كتابه معالم السنن .

الخاص تخصيصاً لئلا يظن ظان أنه لم يدخل في الأول ، فيكون من باب عطف الخاص على العام ، وإما أن لا يكون داخلاً فيه هنا ، وإن كان يدخل فيه إذا انفرد ؛ مثل الفقير والمسكين، والإسلام والإيمان وغيرها ، فتتنوع دلالته بالإفراد والاقتران[١] .

٢ ـ كونه شرطاً للإسلام :

أما علاقته بالإسلام ، فقد قال الله تعالى : ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا** ﴾[٢] ، فجعل دليل صحة الإسلام التوكل[٣] ، ومفهوم ذلك انتفاء الإيمان والإسلام عند انتفائه[٤] ، وكرر الشرط تأكيداً[٥] .

٣ ـ علاقته بالإحسان :

أما علاقته بالإحسان ؛ فيمكن استنباط ذلك من قوله الله عز وجل : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾[٦] . قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله : « في الآية وصف المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإحسان ، وهي : الخوف ، وزيادة الإيمان ، والتوكل على الله وحده . . . »[٧] .

---

(١) انظر : الإيمان ص(١٥٣ ـ ١٩٠) وذكر على ذلك أمثلة كثيرة .

(٢) سورة يونس ، الآيتان : ٨٤ ، ٨٥.

(٣) طريق الهجرتين ص (٢٣٨).

(٤) تيسير العزيز الحميد ص(٤٩٦).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٧٠) .

(٦) سورة الأنفال ، آية : ٢ .

(٧) تيسير العزيز الحميد ، ص (٤٤٩).

٤ ـ التوكل والهداية :

جمع الله بينهما في الآيات التالية :

١ ـ ما حكاه الله تعالى من مقولة الرسل لقومهم : ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾[١] ، فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم ، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبداً[٢] .

ومعنى الآية : « أي شيء يمنعنا من التوكل على الله ، والحال أننا على الحق والهدى ، ومن كان على الحق والهدى ، فإن هداه يوجب له تمام التوكل ، وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدي وكفايته ، يدعو إلى ذلك ، بخلاف من لم يكن على الحق والهدى ، فإنه ليس ضامناً على الله ، فإن حاله مناقض لحال المتوكل »[٣] .

قال ابن القيم : « فالعبد آفته إما من عدم الهداية ، وإما من عدم التوكل ، فإذا جمع التوكل إلى الهداية ، فقد جمع الإيمان كله »[٤] .

٢ ـ وقوله تعالى : ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾[٥] قال ابن القيم رحمه الله : « فأمر سبحانه بالتوكل عليه ، وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل ، مصحح له ، مستدع لثبوته وتحققه ؛ وهو قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ ؛ فإن كون العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام

---

(١) سورة إبراهيم ، آية : ١٢ .

(٢) طريق الهجرتين ص (٢٣٩) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١١) .

(٤) مدارج السالكين (٢/ ١٢٧) .

(٥) سورة النمل ، آية : ٧٩ .

التوكل على الله ، والاكتفاء به ، والإيواء إلى ركنه الشديد ، فإن الله هو الحق،وهو ولي الحق وناصره ومؤيده، وكافي من قام به»[١] .

قال : « وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان، فصاحب الحق لعلمه بالحق ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره ؛ مضطر إلى توكله على الله ، لا يجد بداً من توكله»[٢] .

قال : « والمقصود أن القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأنّ الله وليه وناصره وسكونه إليه ، فما له أن لا يتوكل على ربه ! ، وإذا كان على الباطل علماً وعملاً أو أحدهما ، لم يكن مطمئناً واثقاً بربه ، فإنه لا ضمان له عليه ، ولا عهد له عنده؛ فإن الله لا يتولى الباطل ولا ينصره ولا ينسب إليه بوجه؛ فهو منقطع النسب إليه بالكلية ، فإنه سبحانه هو الموفق ، وقوله الحق ، ودينه الحق ،ووعده حق ، ولقاؤه حق ، وفعله كله حق ، ليس في أفعاله شيء باطل ؛ بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل ، كما أن أقواله كذلك ، فلما كان الباطل لا يتعلق بالله العظيم وكان منقطعاً عن ربه، لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله . . . »[٣] .

قال : « فتدبر هذا السر العظيم في اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى وارتباط أحدهما بالآخر ، ولو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه الفائدة السرية لكانت حقيقة أن تودع في خزانة القلب لشدة الحاجة إليها . والله المستعان ، وعليه التكلان»[٤] .

---

(١) طريق الهجرتين ص (٢٣٩) .
(٢) نفس المرجع ص (٢٣٩) .
(٣) نفس المرجع ص (٢٣٣ - ٢٤٠) .
(٤) نفس المرجع ص (٢٤٠) .

٥ ـ التوكل والتقوى :

لاشك أن التقوى هي روح هذا الدين وأساسه المتين ، وهي وصية الله تعالى للأولين والآخرين ، كما قال تعالى : ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ**﴾(١) ، ولذلك فلا غرابة أن نجد الله تعالى قد قرن بينها وبين التوكل في العديد من الآيات ؛ وما ذاك إلا لأهميته وعظيم منزلته ، ومن ذلك :

أ ـ قوله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ...**﴾(٢) إلى قوله تعالى : ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾(٣) ؛ أي : كافيه. فجعل التوكل سبباً للكفاية .

٦ ـ التوكل والدعاء :

يشرع في الدعاء الطلبي تقديم الثناء على الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، والتوسل إليه بأعظم الأعمال وأقربها منه تعالى منزلة ، وأحبها إليه ، كالتوحيد ونحوه ، وبالافتقار إليه والخضوع والتذلل والاستضعاف والانكسار بين يديه عز وجل ، وهذا (أنجح للحاجة وأنجع للإجابة)(٤) .

ولذلك نجد أن الله تعالى قد ذكر عن بعض الداعين من أنبيائه وأوليائه

---

(١) سورة النساء ، آية : ١٣١ .
(٢) سورة الأحزاب ، الآيات من : ١ـ٣ .
(٣) سورة الطلاق ، الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٤) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤١) .

تقديمهم تحقيق التوكل عليه بين يدي دعائهم الطلبي ؛ لأنه من أجَلِّ ما يتقرب به إلى الله تعالى ، ومن الأمثلة على ذلك :

١ ـ دعاء إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، الذي حكاه الله تعالى عنه في قوله : ﴿ **رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[١] .

٢ ـ دعاء شعيب عليه السلام الذي حكاه الله عنه بقوله : ﴿ **وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** ﴾[٢] .

٣ ـ دعاء قوم موسى عليه السلام الذي حكاه الله تعالى عنهم في قوله : ﴿ **فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾[٣] .

كما نجد ذلك في دعاء النبي ﷺ ، ومنه الدعاء المشهور ، وفيه : « **. . .اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ،وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، أعوذ بعزتك ، لا إله إلا أنت أن تضلني ، أنت الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون** »[٤] .

---

(١) سورة الممتحنة ، الآيتان : ٤ ، ٥ .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ٨٩ .

(٣) سورة يونس ، آية : ٨٥ .

(٤) رواه البخاري في التهجد ، باب : التهجد من الليل ، ح : ١١٢٠ (فتح٣/ ٥) .
ومسلم في الصلاة ، باب : الدعاء في صلاة الليل وقيامه ، ح : ٧٦٩ (١/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣) ، وأبو داود في الصلاة، باب : ما يستفتح بالدعاء في الصلاة ، ح : ٧٥٦ ، (عون٢/ ٤٧٤)، والترمذي في الدعاء (٢٩)، والنسائي في التطبيق (١٤)، وابن ماجه في الإقامة (١٨٠) ، والدارمي في الصلاة (١٦٩) ، وأحمد في المسند (١/ ٢٩٨، ٣٠٢ ، ٣٠٨).

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية التوكل على الله ، وأنه من أجل القربات التي يتوسل بها إلى الله تعالى في تحقيق المطالب الدينية والدنيوية ، ومن مظاهر العبودية والافتقار والانكسار بين يديه عز وجل .

٧ ـ التوكل والصبر :

الصبر من أوجب الواجبات وأعلى المقامات ، وقد ذكره الله تعالى في القرآن الكريم في أكثر من تسعين موضعاً ، وقرنه بالصلاة في أكثر من موضع، كقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ﴾(١) ، وبين أن اقتران الصبر مع اليقين يورث الإمامة في الدين ، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾(٢) .

والكلام في منزلة الصبر يطول، ولكن الذي يهمنا في هذه العجالة هو أنه من خلال استقراء النصوص القرآنية، نجد أن الله تعالى قد قرن بين التوكل والصبر في عدة آيات، منها :

١ ـ قول الله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾(٣) .

٢ ـ وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(٤) .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٤٥ .

(٢) سورة السجدة ، آية : ٢٤ .

(٣) سورة إبراهيم، الآيتان : ١١ ، ١٢ .

(٤) سورة النحل ، الآيتان : ٤١ ، ٤٢ .

٣ ـ وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[1] .

وفي اقتران التوكل بالصبر ـ الذي تقدم بيان منزلته ـ دليل على أن التوكل لا يقل عن منزلة الصبر في الأهمية ، وعلى أنه ليس أمراً سلبياً كما يظنه بعض الجهلة ، وإنما هو عمل إيجابيٌ يدعو إلى اتخاذ الأسباب كما سيأتي بيانه[2] .

قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله : « لأن صبرهم على عبادة الله يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك ، والمحاربة العظيمة للشيطان الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك ، وتوكلهم يقتضي شدة اعتمادهم على الله ، وحسن ظنهم به أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها ، ونص على التوكل وإن كان داخلاً في الصبر ؛ لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأمور به ، ولا يتم إلا به »[3] .

٨ ـ التوكل والعبادة :

أما التوكل والعبادة ؛ فقد جمع الله بينهما في عدة مواضع في كتابه ، منها :

١ ـ قوله تعالى في أم الكتاب : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وهي الآية التي قال الله تعالى فيها في الحديث القدسي : « **هذه بيني وبين عبدي** ،

---

(١) سورة العنكبوت ، الآيتان : ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) انظر : ص(١٧٦) فما بعدها .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٧٠ ـ ٧١) .

ولعبدي ما سأل »[1] بعد أن قال : « **قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل** » وهاتان الكلمتان : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ مقتسم السورة : « فـ ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ مع ما قبله لله تعالى ، و ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ مع ما بعده للعبد ، وله ما سأل ، ولهذا قال من السلف : نصفها ثناء ونصفها دعاء »[2] .

وعن الحسن البصري قال : « إن الله جمع الكتب المنزلة في القرآن ، وجمع علم القرآن في المفصَّل ، وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب ، وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ »[3] .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾[4] .

٣ ـ وقوله لنبيه ﷺ : ﴿ **وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨) رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً** ﴾[5] ، فقرن التبتل ـ وهو العبادة ـ باتخاذه وكيلاً سبحانه وتعالى .

---

(١) الحديث رواه مسلم في الصلاة ، باب : وجوب قراءة الفاتحة ، ح : ٣٩٥ (١/ ٢٩٦) .
وأبو داود في الصلاة ، باب : من ترك القراءة في الصلاة بفاتحة الكتاب ، ح : ٨٠٦ ، (عون ٣/ ٣٨) ، وابن ماجه في الأدب . باب : ثواب القرآن ، ح : ٣٧٨٤ (٢/ ١٢٤٣) .

(٢) كتاب التوحيد لابن تيمية ص (٩٧) ، وانظر : دقائق التفسير (١/ ١٧٧) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨) ، قال شيخ الإسلام في التوحيد ، ص (٩٥) : روي مأثوراً عن الحسن البصري .

(٤) سورة هود ، آية : ١٢٣ .

(٥) سورة المزمل ، الآيتان : ٨ ، ٩ .

٤ ـ قوله تعالى حكاية عن شعيب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[١].

٥ ـ قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام والذين معه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[٢].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[٣].

٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٤].

والإنابة إلى الله والمتاب: هو الرجوع إليه بعبادته وطاعته وطاعة رسوله ﷺ[٥].

ومن السنة قوله ﷺ عند ذبحه الأضحية: «**اللهم هذا منك ولك**»[٦]، قال شيخ الإسلام: «فإن قوله: (منك)، هو معنى التوكل والاستعانة.

---

(١) سورة هود، آية: ٨٨.

(٢) سورة الممتحنة، آية: ٤.

(٣) سورة الرعد، آية: ٣٠.

(٤) سورة الشورى، آية: ١٠.

(٥) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٢٧).

(٦) الحديث رواه أبو داود عن جابر، باب: ما يستحب من الضحايا، ح: ٢٧٧٨ (عون ٧/ ٤٩٤) وابن ماجه في الأضاحي، باب: أضاحي رسول الله ﷺ، ح: ٣١٢١ (٢/ ١٠٤٣)، وفي إسناده محمد بن إسحاق وهو مدلس وقد عنعن.

وقوله: (لك) ، هو معنى العبادة»(١) .

فهذه المواضع جمعت الأصلين : العبادة والاستعانة . والعبادة : غاية العباد التي خلقوا لها ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ...** ﴾(٢) ، ونحوها : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾(٣) ، وقال عز وجل : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾(٤) .

والاستعانة وسيلتهم إليها ، « فإن العبد لابد له من غاية مطلوبة ووسيلة موصلة إلى تلك الغاية ، فأشرف غاياته التي لا غاية له أجل منها : عبادة ربه والإنابة إليه ، وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتة التوكل على الله والاستعانة به . ولا سبيل إلى هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة ، فهذه أشرف الغايات وتلك أشرف الوسائل»(٥) .

وعليه ؛ فإن أنفع الدعاء طلب عون الله تعالى على مرضاته ، قال شيخ الإسلام : « تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته ، ثم رأيته في الفاتحة ، في : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾(٦) ، وهو الدعاء الذي علّمه النبي ﷺ لحبِّه معاذ بن جبل رضي الله عنه ، فقال : « **يا معاذ ، والله إني لأحبك ، فلا تنس دبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن**

(١) التوحيد ، ص (٩٩).
(٢) سورة البينة ، آية : ٥ .
(٣) سورة التوبة ، آية : ٣١.
(٤) سورة الذاريات ، آية : ٥٦ .
(٥) طريق الهجرتين ، ص (٢٣٨) ، وانظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٤١).
(٦) مدارج السالكين (١/ ٧٨) ، وانظر : تجريد التوحيد ، ص(٢٦).

عبادتك»[١] .

وعطف التوكل على العبادة ـ مع أنه جزء منها ، بل هو قوامها ، كما قال الفضيل رحمه الله[٢] ـ هو مثل عطف التوكل على الإيمان ، وقد تقدم توجيهه[٣] .

قال شيخ الإسلام : « إذا أطلق لفظ العبادة دخل فيها التوكل ، وإذا قرن أحدهما بالآخر كان للتوكل اسم يخصه»[٤] . وفيه فائدة مهمة ، وهي : أن الله لم يأمر بالتوكل فقط ؛ بل أمر مع التوكل بعبادته وتقواه التي تتضمن فعل ما أمر وترك ما حذر ، فمن ظن أنه يرضي ربه بالتوكل بدون فعل ما أمر به كان ضالاً ، كما أن من ظن أن يقوم بما يرضي الله عليه دون توكل كان ضالاً»[٥] .

وفي إتيانه بـ ﴿**إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ بعد ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة لأن غيره ليس بيده الأمر[٦] .

والتوكل أعم من الاستعانة ؛ لأن (التوكل يتناول التوكل عليه ليعينه

---

(١) رواه أبو داود في الوتر . باب : في الاستغفار ، ح:١٥٠٨ (عون ٤/ ٣٨٤) ، والنسائي في السهو ، باب : ٦٠ ، ح : ١٣٠٣ (٣/ ٥٣) ، وأحمد في المسند (٢/ ٢٩٩) و (٥/ ٢٤٥ و ٢٤٨) . قال الألباني : إسناده صحيح ، رجاله كلهم ثقات . انظر تخريجه لأحاديث الكلم الطيب ، ص (٧٠) .

(٢) شعب الإيمان (٢/ ١١٢) .

(٣) انظر : ص(٤٤) .

(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٢٧) ، وانظر رسالة حقيقة التوكل لشيخ الإسلام ص(٩١) ضمن جامع الرسائل .

(٥) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٢٧) .

(٦) أضواء البيان (١/ ٣٥) .

على فعل ما أمر ، والتوكل عليه ليعطيه ما لا يقدر العبد عليه ، فالاستعانة تكون في الأعمال ، وأما التوكل فأعم من ذلك)[١] .

والناس في مقام التوكل والعبادة أربعة أقسام[٢] :

١ - إما أن يعبد غير الله ويستعين بغيره ، وإن كان يدعي الإسلام ، فالشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل .

٢ - وإما أن يعبده ويستعين غيره مثل : « كثير من أهل الدين ، يقصدون طاعة الله ورسوله وعبادته وحده لا شريك له ، وتخضع قلوبهم لمن يستشعرون نصرهم ورزقهم وهدايتهم من جهته من الملوك والأغنياء والمشايخ » .

قال شيخ الإسلام : « وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة ، فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله وشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان »[٣] .

٣ - وإما أن يستعينه وإن عبد غيره ؛ مثل كثير من أهل الأحوال وذوي القدرة والسلطان الباطن أو الظاهر ، وأهل الكشف والتأثير الذين يستعينون به ، ويعتمدون عليه ، ويلجئون إليه ، لكن مقصودهم غير ما أمر الله به ورسوله ، وشريعته التي بعث بها رسوله وهؤلاء هم المغبونون حقاً .

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ١٧٧) .

(٢) التوحيد لشيخ الإسلام ص (٨٩ - ٩٠) ، وانظر : ص(١٠٠) أيضاً ، وانظر بتفصيل أكثر مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٢) ، التحفة العراقية ، وانظر تجريد التوحيد المنسوب للمقريزي ص(٢٥ - ٢٨)، ودقائق التفسير (١/ ١٨٠) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٢) ، والتحفة العراقية ص(٨٣) .

٤) الذين لا يعبدون إلا إياه ولا يستعينون إلا إياه، وهؤلاء هم الذين عرفوا الطريق ولزموا الجادة، سلك الله بنا سبيلهم بمنه وكرمه.

وهناك أسرار أخرى لطيفة في تقديم العبادة على التوكل في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وما شابهها، أشار إليها ابن القيم[١] رحمه الله، منها:

١ـ إن تقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل. وتقدم.

٢ـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه (الله)، و ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه (الرب)، فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما قدم اسم (الله) على اسم (الرب) في أول السورة؛ وذلك كما قال شيخ الإسلام: «لما كان علم النفوس بحاجتهم وفقرهم إلى الرب قبل علمهم وحاجتهم وفقرهم إلى الإله المعبود، وقصدهم لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة؛ كان إقرارهم بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته، وكان الدعاء له والاستعانة به والتوكل عليه فيهم، أكثر من العبادة له والإنابة إليه»[٢]؛ يعني: فقدم العبادة على التوكل.

٣ـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: قسم الرب، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى لكونه أولى به، و ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: قسم العبد، فكان من الشطر الذي له وهو ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة.

٤ـ العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس؛ فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به ولا ينعكس؛ لأن صاحب الأغراض والشهوات قد

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٥-٧٦).

(٢) التوحيد لشيخ الإسلام، ص(١٠٦).

يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم؛ ولهذا كانت قسم الرب.

٥ـ الاستعانة جزء من العبادة من غير عكس.

٦ـ الاستعانة طلب منه، والعبادة طلب له.

٧ـ العبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص وغير مخلص.

٨ـ العبادة حقه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة، وهو بيان صَدَقَته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته.

٩ـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ له، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به، وما «له» مقدم على ما «به»؛ لأن ما «له» متعلق بمحبته ورضاه، وما «به» متعلق بمشيئته. وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته. أما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص المسمى بالحصر[1].

بعد هذا كله ظهر لنا أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل[2].

ولعل من أبرز النصوص التي جمعت بين هذه الأصول الإيمانية حديث

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٧).

(٢) طريق الهجرتين ص(٢٤٠).

دعائه ﷺ في التهجد ؛ حيث يقول : « ...**اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، أعوذ بعزتك ، لا إله إلا أنت أن تضلني ، أنت الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون**»[١] .

قال ابن القيم رحمه الله : « التوكل نصف الدين ، والنصف الثاني الإنابة ؛ فإن الدين استعانة وعبادة ، فالتوكل هو الاستعانة ، والإنابة هي العبادة ، ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين ، لسعة متعلق التوكل ، وكثرة حوائج العالمين ، وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفار ، والأبرار والفجار ، والطير والوحش والبهائم ، فأهل السموات والأرض المكلّفون وغيرهم في مقام التوكل ، وإن تباين متعلق توكلهم . . . »[٢] .

وبهذا تظهر لنا مكانة التوكل وأهميته العظيمة من خلال تعلقه بأصول الدين وشعائره العظيمة .

ثانياً : أمر الله به نبيه ﷺ والأنبياء قبله[*] :

ومما يدل على أهمية التوكل ، الأمر الصريح للنبي ﷺ بالتوكل عليه في تسعة مواضع من القرآن الكريم ، وفي ذلك أمر لعباده المؤمنين بالتبع .

فقال سبحانه في حق محمد ﷺ :

---

(١) تقدم تخريجه قريباً ص(٧٢) .

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١١٣) .

(*) هذه هي الفقرة الثانية من فقرات أهمية التوكل ، أما الأولى ، فهي : اقترانه بمراتب الدين الثلاثة ، وشعائره العظام . وتقدمت ص(٦٥) .

١ ـ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(١) .

٢ ـ وقال : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾(٢) ، ويعني بهم : المنافقين .

٣ ـ وقال عز من قائل : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(٣) .

٤ ـ وقال جل جلاله : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(٤) .

٥ ـ وقال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾(٥) .

٦ ـ وقال : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾(٦) .

٧ ـ وقال سبحانه : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾(٧) .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٥٩ .
(٢) سورة النساء ، آية : ٨١ .
(٣) سورة الأنفال ، آية : ٦١ .
(٤) سورة هود ، آية : ١٢٣ .
(٥) سورة الفرقان ، آية : ٥٨ .
(٦) سورة الشعراء ، الآيات : ٢١٦ ـ ٢١٩ .
(٧) سورة النمل ، آية : ٧٩ .

٨ ـ وقال عز وجل : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾[١] .

٩ ـ وقال : ﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾[٢] .

ومع الأمر بالتوكل عليه سبحانه وتعالى ، فقد نهى عن ضده، فقال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾[٣] أي شريكاً ، قاله مجاهد ، وقيل : كفيلاً بأمورهم، حكاه الفراء ، وقيل : رباً يتوكلون عليه في أمورهم ، قاله الكلبي ، وقال الفراء : كافياً ، والتقدير : عهدنا إليه في الكتاب ألا تتخذوا من دوني وكيلاً ، وقيل: التقدير ؛ لئلا تتخذوا ، والوكيل : من يوكل إليه الأمر[٤] .

وقد أمر الأنبياء السابقون أتباعهم وأقوامهم بذلك ، ومن ذلك :

١ ـ ما قاله عز وجل عن موسى عليه السلام مخاطباً قومه ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[٥] .

٢ ـ وقال في حق الرجلين اللذين أنعم الله عليهما من بني إسرائيل[٦] : ﴿ قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا

(١) سورة الأحزاب ، آية : ٣ .
(٢) سورة الأحزاب ، آية : ٤٨ .
(٣) سورة الإسراء ، آية : ٢ .
(٤) تفسير القرطبي (١٠/ ٢١٣) ، وانظر تفسير فتح القدير (٣/ ٢٠٧).
(٥) يونس ، آية (٨٤، ٨٥) .
(٦) سماهما الطبري : (يوشع بن نون ـ وهذا نبي من الأنبياء ـ وكالب بن يوفنا) . التفسير (٦/ ١٧٥).

دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[١] .

وقد صرح الأنبياء السابقون بتحقيقهم التوكل :

١ ـ فقال تعالى عن نوح عليه السلام : ﴿ ... فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ... ﴾[٢] .

٢ ـ وقال عن هود عليه السلام : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٣] .

٣ ـ وقال عن شعيب عليه السلام : ﴿ ... وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[٤] . وقال : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾[٥] .

٤ ـ وقال عن يعقوب عليه السلام : ﴿ ... إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[٦] .

٥ ـ وقال عن الخليل إبراهيم عليه السلام ـ من دعائه وقومه : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾[٧] .

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٢٣ .

(٢) سورة يونس ، آية : ٧١ .

(٣) سورة هود ، آية : ٥٦ .

(٤) سورة هود ، آية : ٨٨ .

(٥) سورة الأعراف ، آية : ٨٩ .

(٦) سورة يوسف ، آية : ٦٧ .

(٧) سورة الممتحنة ، آية : ٤ .

٦ ـ وقال لنبينا الخاتم ﷺ : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[١] .

وقال : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾[٢] .

ولا شك أن هذه الأوامر الإلهية لأفضل خلقه ، وأكمل أنبيائه دليل على أهمية التوكل على الله وضرورته للعبد ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين .

ثالثاً : جعله شعاراً لعباده المؤمنين وأثنى عليهم به :

حيث ورد : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ في سياق المدح والثناء ، في سبعة مواضع من القرآن : في سورة آل عمران في موضعين[٣] ، وفي المائدة[٤] ، والتوبة[٥] ، وإبراهيم[٦] ، والمجادلة[٧] ، والتغابن[٨] .

وورد ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ في ثلاثة مواضع من سورة يوسف[٩] ، وإبراهيم[١٠] ، والزمر[١١] .

---

(١) سورة الرعد ، آية : ٣٠ .

(٢) سورة الملك ، آية : ٢٩ .

(٣) آية : ١٢١ ، وآية : ١٦١ .

(٤) آية : ١١ .

(٥) آية : ٥١ .

(٦) آية : ١١ .

(٧) آية : ١٠ .

(٨) آية : ١٣ .

(٩) آية : ٦٧ .

(١٠) آية : ١٢ .

(١١) آية : ٣٨ .

ومن الآيات التي أثنى الله فيها على المتوكلين ، ما يلي :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[1] .

قال قتادة : « هذا نعت أهل الإيمان فأثبت نعتهم ، ووصفهم فأثبت صفتهم »[2] .

٢ ـ وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝٤١ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[3] .

٣ ـ وقوله عز من قائل : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾[4] . قال سفيان الثوري رحمه الله في تفسيرها : أن يحملهم على ذنب لا يغفر[5] .

٤ ـ وقوله جل جلاله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝٥٨ الَّذِينَ

---

(١) سورة الأنفال ، الآيات : ٢ ـ ٤ .

(٢) تفسير الطبري (٩/ ١٧٩) .

(٣) سورة النحل ، الآيتان : ٤١ ، ٤٢ .

(٤) سورة النحل ، الآيات : ٩٨ ـ ١٠٠ .

(٥) التوكل لابن أبي الدنيا ، ص(٦٠) .

صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[١] .

٥ ـ وقال عز وجل : ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٢] .

رابعاً : ضرورته للعبد وعدم استغنائه عنه طرفة عين :

ومما يدل على أهمية التوكل هو افتقار العبد إلى من يتوكل عليه ، ويلوذ به ويفوض ويسلم قياده إليه ؛ وذلك أن كل عبد ؛ بل كل حي سوى الله ؛ بل كل مخلوق ، هو فقير محتاج إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره . . فلابد له من أمرين :

أحدهما : هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع ويلتذ به .

والثاني : هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود ، والمانع من دفع المكروه ، والله سبحانه هو الذي يجب أن يكون المقصود المدعو المطلوب ، وهو المعين على المطلوب ، وما عداه هو المكروه[٣] . . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وتقدم[٤] أن القيام بعبودية الله هو الغاية ، وأن الاستعانة والتوكل هي الوسيلة لتحقيق هذه الغاية .

وكلٌّ من الغاية والوسيلة المؤدية إليها ، فالعبد مفتقر إليها غاية الافتقار .

أما من ناحية حاجة العبد إلى عبادة الله :

---

(١) سورة العنكبوت ، الآيتان : ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) سورة الشورى ، آية : ٣٦.

(٣) انظر : التوحيد لابن تيمية ص (٧٢ ، ٧٣) ، وانظر : إغاثة اللهفان (١/ ٢٦ ـ ٣٠).

(٤) ص (٧٤).

« فاعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله لايشرك به شيئاً ليس لها نظير فتقاس به ، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب . وبينهما فروق كبيرة ، فإن حقيقة العبد قلبه وروحه ، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو ، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره ، وهي كادحة إليه كدحاً فملاقيته ، ولابد لها من لقائه ، ولا صلاح لها إلا بلقائه ، ولو حصل للعبد لذات وسرور بغير الله فلا يدوم ذلك . . . وأما إلهه فلابد منه في كل حال ، وفي كل وقت ، وأينما كان فهو معه ؛ ولهذا قال إمامنا إبراهيم الخليل : ﴿لا أُحبُّ الآفلِينَ﴾[١] ، وكان أعظم آية في القرآن : ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ »[٢] [٣] .

وهذا مبني على أصلين :

أحدهما : أن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه ، كما دلّ عليه أهل الإيمان ، وكما دل عليه القرآن .

الثاني : أن النعيم في الدار الآخرة أيضاً به ؛ مثل النظر إليه[٤] .

وهذان الأصلان ثابتان بالكتاب والسنة، وعليهما أهل العلم

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٧٦.

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٥٥ .

(٣) التوحيد ، ص(٧٧) .

(٤) كما في صحيح مسلم عن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ ، قال : فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ...».

والإيمان[١].

فهذا بالنسبة إلى غاية التوكل ومقصده، أما التوكل ذاته فتظهر حاجة العبد وافتقاره إليه من الوجوه التالية :

١ ـ من جهة فقر العبد وعدم ملكه شيئاً لنفسه فضلاً عن غيره من المخلوقين :

وذلك لأن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل ؛ بل ربه هو الذي خلقه ورزقه وبصَّره، وهداه وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله[٢].

قال شيخ الإسلام : « فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به، ودعاءه ومسألته دون ما سواه، ويقتضي أيضاً محبة الله وعبادته؛ لإحسانه إلى عبده وإسباغ نعمه عليه، وحاجة العبد إليه في هذه النعم... »[٣].

ولذلك نجد أكمل الخلق ﷺ يقول له الله تعالى : **﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**[٤].

---

(١) التوحيد ص(٧٧ـ٧٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٧)، وانظر : إغاثة اللهفان (١/ ٣٣ـ٣٥).

(٣) نفس المصدر (١/ ٢٧ـ٢٨).

(٤) سورة الأعراف، آية : ١٨٨.

ويقول : ﴿ قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا ﴾[١] .

وهذا خليل الرحمن عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، يقول لأبيه فيما حكاه الله تعالى عنه : ﴿ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾[٢] .

فإذا كان هذا في حق الخليلين ، أفضل الرسل عليهما الصلاة والسلام ، فما بالك بمن هم دونهم !

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٣] أي : أن كل ما سوى الله عبد مسخر ، حاجته مثل حاجتكم ، فكيف يتوكل عليه[٤] .

وقال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ... ﴾[٦] .

---

(١) سورة الجن ، آية : ٢١ .
(٢) سورة الممتحنة ، آية : ٤ .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٩٤ .
(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٤٤).
(٥) سورة العنكبوت ، آية : ١٧ .
(٦) سورة سبأ ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .

فنفى عنهم الملك والمشاركة والإعانة والشفاعة .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(١) .

وقال عز وجل : ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ (٢) .

فإذا كان المخلوق - مهما عظم - بهذه المثابة من العجز والفقر وعدم ملكه شيئاً ، فهو مفتقر إلى ركن شديد يأوي إليه ، ويتوكل عليه ، ويفوض أمره إليه ، ولا يمكن أن يتوكل على مخلوق مثله ، لأن حالتهم في العجز واحدة، فوجب ألا يتوكل إلا على الغني الحميد الذي له ملك السموات والأرض.

وقد روي عن عقبة بن أبي زينب ، قال : « مكتوب في التوراة : لا تتوكل على ابن آدم ؛ ليس له قوام ، وتوكل على الحي الذي لا يموت» ، قال الله تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾(٣) (٤) .

قال أبو قدامة الرملي : « قرأ رجل هذه الآية : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ فأقبل على سليمان

---

(١) سورة فاطر ، آية : ١٥ .

(٢) سورة محمد ، آية : ٣٨ .

(٣) سورة الفرقان ، آية :٥٨ .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في التوكل على الله ، ح: ٦٠ ، ص(٩٤) ، والبيهقي في الشعب ، ح:١٣٠٦ (٢/١٠٨) ، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٩٢) ، وانظر : الدر المنثور (٦/٢٦٨).

الخواص ، فقال : يا أبا قدامة ، ما ينبغي لعبد بعد هذه الآية ، أن يلجأ إلى أحد بعد الله في أمره ، ثم قال : انظر كيف قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ فأعلمك أنه لا يموت ، وأن جميع خلقه يموتون ، ثم أمرك بعبادته ، فقال : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ ثم أخبرك بأنه خبير بصير . ثم قال : والله يا أبا قدامة لو عامل عبدٌ الله بحسن التوكل وصدق النية له بطاعته؛ لاحتاجت إليه الأمراء فمن دونهم ، فكيف يكون هذا محتاجاً ، وموئله وملجؤه إلى الغني الحميد! »(١) .

٢ ـ من جهة كون الأمر كله بيد الله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٣) .

وقال عز وجل :﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٤) فما دام أن النصر والخذلان بيده ؛ فهو الجدير بالتوكل عليه وحده في تحقيق النصر والسلامة من ضده خاصة ، وفي جميع أموره عامة .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ

(١) التوكل على الله ، ح : ٣٦ ، ص(٧٠).

(٢) سورة فاطر ، آية : ٢ .

(٣) سورة يونس ، آية : ١٠٧ .

(٤) سورة آل عمران ، آية : ١٦٠ .

اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾(٢) .

فجمع سبحانه بين النصر والرزق، كما جمع في غير ما آية بين الخوف والجوع ؛ فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره ، ويجلب له منافعه برزْقه ، فلابد له من ناصر ورازق ، والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين(٣) ، وهو الذي يطعم من جوع ويؤمن من خوف . فكان الإنسان أشد ما يكون إلى التوكل عليه ، والالتجاء بجنابه سبحانه وتعالى ؛ لأنه بيده كل شيء ، ومن سواه ليس بيده شيء ؛ فلا ينبغي للعبد أن يتوكل إلا على مالك الملك سبحانه وتعالى .

وهنا قد يرد اعتراض ، وهو أنه ما دام الأمر كلّه لله ، وليس للعبد من الأمر شيء ، فكيف يوكل المالك على ملكه ؟ وكيف يستنيبه فيما هو ملك له دون هذا الموكل ؟ .

والجواب على ذلك هو كما قال ابن القيم : « لما كان الأمر كله لله عز وجل وليس للعبد فيه شيء البتة ؛ كان توكله على الله تسليم الأمر إلى من هو

---

(١) سورة فاطر ، آية : ٣ .

(٢) سورة الملك ، الآيتان : ٢٠ ، ٢١ .

(٣) انظر : إغاثة اللهفان (١/ ٣٤) ، وهناك بعض الروايات الإسرائيلية في هذا المعنى من طريق وهب بن منبه وغيره رواها الإمام أحمد في الزهد وابن أبي الدنيا في التوكل على الله، وأشار إلى بعضها ابن القيم هنا .

له ، وعزل نفسه عن منازعات مالكه ، واعتماده عليه فيه ، وخروجه عن تصرفه بنفسه وحوله وقوته وكونه به ، إلى تصرفه بربه وكونه به سبحانه دون نفسه. وهذا مقصود التوكل[١] .

٣ ـ من جهة أن تعلق العبد بما سوى الله مضرة عليه :

وذلك إذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته ، غير مستعين به على طاعة الله عز وجل .

قال شيخ الإسلام : « فإنه إن نال من الطعام والشراب فوق حاجته ضره أو أهلكه ، وكذلك من النكاح واللباس ، وإن أحب شيئاً حباً تاماً ، بحيث تخالَلَه فلابد أن يسأمه ويفارقه ، فالضرر حاصل له إن وُجد أو فُقد ، فإن فُقدَ فَقَدْ تعذب بالفوات وتألم ، وإن وُجدَ فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة ، وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء[٢] ؛ كل من أحب شيئاً دون الله لغير الله ، فإن مضرته أكثر من منفعته ، فصارت المخلوقات وبالاً عليه ، إلا ما كان لله ، وفي الله ، فإنه كمال وجمال للعبد»[٣] .

وذلك نحو قوله تعالى : ﴿**فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ**

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٩).

(٢) كما قال الشاعر :

فما في الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلوَ المذاق
تراه باكياً في كل حال ... مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم ... ويبكي إن دنوا حَذَرَ الفراق
فتسخن عينه عند التلاقي ... وتسخن عينه عند الفراق

إغاثة اللهفان (١/ ٤٠).

(٣) كتاب التوحيد ص(٨١)، وانظر مجموع الفتاوى(١/ ٢٩)، وقارن بإغاثة اللهفان (١/ ٣٥).

اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[١] .

قال ابن القيم : « والصواب ـ والله أعلم ـ أن يقال : تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة، بالحرص على تحصيلها، والتعب العظيم في جمعها ، ومقاساة أنواع المشاق في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه ، وهو حريص بجهده على تحصيلها »[٢] .

وعليه ؛ فمن تعلق قلبه بما سوى الله ، فالضرر حاصل عليه لا محالة ، إن وجد ذلك المطلوب ، وإن لم يوجد .

قال ابن القيم : « فليس عليه أضر من ذلك ، ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه ، بأنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به ، وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل بتعلقه بغيره والتفاته إلى سواه ، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمَّله ممن تعلق به حصل »[٣] .

وقال : « مثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت ؛ أوهى البيوت » .

قال : « وبالجملة ؛ فأساس الشرك وقاعدته التي بني عليها : التعلق بغير الله »[٤] . ولذلك فأضرُّ شيء على العبد هو تعلق قلبه بغير الله تعالى .

---

(١) سورة التوبة ، آية : ٥٥ .

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣٦).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٥٧).

(٤) المرجع السابق (١/ ٤٥٨) .

فإذا كانت هذه هي الثمرة المرتقبة لمن علق قلبه بما سوى الله ؛ فكان من الضروري للمسلم والواجب عليه ألا يعلق قلبه بما سوى الله تعالى ؛ لا محبة ولا توكلاً ولا اعتماداً ، ولا غير ذلك من أنواع التعلق ؛ فدلّ على ضرورة تعلقه وتوكله على الله وحده .

٤ - من جهة أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته ، عكس ما أمّله منه :

وهذا ثابت في القرآن والسنة كما هو معلوم بالاعتبار والاستقراء أيضاً :

* قال الله تعالى : ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[١] أي بخلاف ما ظنوا فيهم[٢] .

* وقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[٣] .

* وقال تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾[٤] . أي غير تخسير . قاله ابن عمر ومجاهد وقتادة[٥] .

---

(١) سورة مريم ، الآيتان : ٨١ ، ٨٢ .
(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٥٦) .
(٣) سورة الأحقاف ، الآيتان : ٥ ، ٦ .
(٤) سورة هود ، آية : ١٠١ .
(٥) انظر : تفسير الطبري (١٢/ ١١٣).

* وقال جل ثناؤه : ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾[١]، قال ابن القيم : « فإن المشرك يرجو بشركه النصر تارة والحمد تارة والثناء تارة ، فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه ، ويحصل له الخذلان والذم»[٢] .

لذا فإن كل من اعتمد على مخلوق وتوكل عليه من دون الله ؛ فإنه سيعقبه خذلان وندامة .

قال أبو العالية : « اجتمع إليّ أصحاب محمد ، فقالوا : يا أبا العالية ، لا تعمل عملاً تريد به غير الله فيجعل الله ثوابك على ما أردت ، قال : واجتمع إليّ أصحاب محمد ، فقالوا : يا أبا العالية ، لا تتكلنّ على غير الله عز وجل فيكلك الله إلى من اتكلت عليه»[٣] .

قال شيخ الإسلام : « ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة ، ولا استنصر بغير الله إلا خذل ، وهذان الوجهان في المخلوقات نظير العبادة والاستعانة في الخالق . فلما قال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كان صلاح العبد في عبادة الله واستعانته به ، وكان في عبادة ما سواه والاستعانة بما سواه مضرته وهلكته وفساده»[٤] . فتعين ضرورة توكل العبد على ربه عز وجل دون ما سواه .

ولهذا كان من وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما : « احفظ الله

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٢٢ .

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٤٠) .

(٣) التوكل على الله لابن أبي الدنيا ، ح : ٣٨ ، ص(٧٢) .

(٤) كتاب التوحيد لابن تيمية ، ص(٨٢) ، وانظر : مجموع الفتاوى (١/ ٢٩) .

يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . . .الحديث »(١) .

وعلى هذا تربى صحابة رسول الله ﷺ ، فكانوا يتعففون عن سؤال الناس ، والاستعانة بهم ولو في الأمور الهيِّنَة ؛ لأن فيه نوع اعتماد وسؤال لغير الله تعالى .

فعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله تعالى عنه ، قال : « كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة ، فقال : **ألا تبايعون رسول الله ﷺ** ؟ ، فبسطنا أيدينا ، وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، **فعلام نبايعك ؟!** ، فقال : **أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، والصلوات الخمس ، وتطيعوا** ـ وأسر كلمة خفيَّة ـ **ولا تسألوا الناس شيئاً** . قال : فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله إياه »(٢) .

وفي المسند لأحمد : أن أبا بكر الصديق كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولني إياه ، ويقول : « إن خليلي أمرني ألا أسأل الناس

---

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧) ، والترمذي ، ح : ٢٥١٦ (٤/ ٦٦٧) ، وقال : حسن صحيح ، وابن أبي عاصم ، ح : ٣١٦ (١/ ١٣٨) ، والآجري في الشريعة ، ح٤١٢ (٢/ ٦٧٥) ، واللالكائي ، ح : ١٠٩٥ (٤/ ٦١٤) ، والبيهقي في الاعتقاد ص(٥٨) ، وفي الشعب ح : ١٩٥ (١/ ٢١٥ـ٢١٦) ، وابن بطة في الإبانة ، ح : ٢٣٢ (٢/ ٢٠٠) من طريق حنش عن ابن عباس . وروي من طرق أخرى عند الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٤١ ، ٥٤٢) ، وغيره . قال الحافظ ابن رجب : « وأجود أسانيده من رواية حنش عن ابن عباس ـ التي ذكرناها ـ وهو إسناد حسن لا بأس به » نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس . وقد أفاض في تخريجه وتتبع طرقه أخونا فضيلة الشيخ : محمد بن ناصر الدين العجمي في تحقيقه للكتاب المذكور ، فليراجعه من شاء .

(٢) رواه مسلم في الزكاة ، باب : كراهية المسألة للناس ، ح : ١٠٢٣ (٢/ ٧٢١) .

شيئاً»[١].

وقد نهى ﷺ في غيرما حديث عن المسألة ؛ لأن فيها نوع استعانة وتوكل على غير الله ، ومن ذلك :

ـ حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ، قال : « **لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مُزْعة لحم**»[٢] .

ـ وعنه رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال وهو على المنبر ـ وذكر الصدقة والتعفف في المسألة ـ : « **واليد العليا خير من اليد السفلى**»[٣] . واليد العليا : المنفقة ، واليد السفلى : هي السائلة[٤] .

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **من سأل الناس تكثراً ؛ فإنما يسأل جمراً ؛ فليستقل أو ليستكثر**»[٥] .

ـ وعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من تكفل لي لا يسأل الناس شيئاً ؛ أتكفل له بالجنة** » . فقلت : « أنا » ؛ فكان لا يسأل أحداً

(١) رواه أحمد في مسنده . قاله شيخ الإسلام (١/ ١٨٢) من مجموع الفتاوى .

(٢) رواه البخاري في الزكاة ، باب : من يسأل الناس تكثراً ، ح : ١٤٧٤ (٣/ ٣٩٦) ، ومسلم في الزكاة ، باب : كراهية المسألة للناس ، ح : ١٠٤٠ (٢/ ٧٢٠) ، وأحمد في المسند (٢/ ١٥ ، ٨٨) .

(٣) رواه البخاري في الرقاق ، باب : قول النبي ﷺ : « هذا المال خضرة حلوة . . » ح : ٦٤٤١ (الفتح ١١/ ٢٦٣) ، ومسلم في الزكاة . باب : بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح ، ح: ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ (٢/ ٧١٧) ، وأبو داود في الزكاة (٢٨) ، والترمذي في الزكاة (٣٨) ، وأحمد في المسند (٢/ ٤ ، ٢٧ ، ٩٨) .

(٤) رواه النسائي في الزكاة ، باب : اليد السفلى ، ح: ٢٥٣٣ (٥/ ٦١) ، وأحمد (٢/ ٦٧) .

(٥) رواه مسلم في الزكاة ، باب : كراهية المسألة للناس ، ح : ١٠٤١ (٢/ ٧٢٠) ، وابن ماجه في الزكاة ، باب : من سأل عن ظهر غنى ، ح: ١٨٣٨ (١/ ٥٨٩)، وأحمد (٢/ ٢٣١) .

شيئاً[١] . قال : فكان ثوبان يسقط سوطه فلا يقول لأحدنا ناولنيه ؛ حتى ينزل فيأخذه . والنصوص في هذا المعنى كثيرة .

وأصل الطلب من المخلوق لا يجوز إلا لضرورة[٢] ، وقد جاء تفصيل أصحاب الضرورات في حديث قبيصة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « **إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة ؛ فحلَّت له المسألة حتى يصيبها ، ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله ؛ فحلَّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش ، أو قال : سداداً من عيش ، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحِجى من قومه : لقد أصابت فلاناً فاقة ؛ فحلَّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش ـ أو قال سداداً من عيش ـ فما سواهن من المسألة يا قبيصة فسحت ، يأكلها صاحبها سحتاً** »[٣] .

وقد بيَّن شيخ الإسلام خطورة مسألة المخلوقين ، وذكر أنه ظلم في حق الربوبية ، وظلم في حق الخلق ، وظلم في حق النفس ، فقال : « أما في حق الربوبية : فلمَا فيه من الذل لغير الله ، وإراقة ماء الوجه لغير خالقه ، والتعرض عن سؤاله بسؤال المخلوقين ، والتعرض لمقته إذا سأل وعنده قوت

(١) رواه أبو داود في الزكاة ، باب : (٢٧) ، والترمذي في الزهد باب : (٦١) ، وأحمد في المسند (٥/ ٢٧٥ ، ٢٧٦) ، ونحوه عن ابن ماجه في الزكاة ، باب : كراهة المسألة ح : ١٨٣٧ (١/ ٥٨٨).

(٢) وتفصيل أحكام المسألة في كتب الفروع . قال شيخ الإسلام : « وسؤال الخلق في الأصل محرم ، لكنه أبيح للضرورة ، وتركه توكلاً على الله أفضل . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ أي إليه لا إلى غيره » . مجموع الفتاوى (١/ ١٨١) .

(٣) رواه مسلم في الزكاة ، باب : من تحل له المسألة ، ح : ١٠٤٤ (٢/ ٧٢٢) ، وأبو داود في الزكاة (٢٦) ، والترمذي في الزكاة (٢٣) ، والنسائي في الزكاة (٨٠) والدارمي في الزكاة (٣٧).

يومه .

وأما في حق الناس : فبمنازعتهم ما في أيديهم بالسؤال واستخراجه منهم ، وأبغض ما إليهم من يسألهم ما في أيديهم ، وأحب ما إليهم من لا يسألهم ، فإن أموالهم محبوباتهم ، ومن سألك محبوبك فقد تعرض لمقتك وبغضك .

وأما ظلم السائل نفسه : فحيث امتهنها ، وأقامها في مقام ذُلِّ السؤال ، ورضي لها بذل الطلب ممن هو مثله ، أو لعل السائل خير منه وأعلى قدراً ، وترك سؤال من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ؛ فقد أقام السائل نفسه مقام الذل ، وأهانها بذلك . ورضي أن يكون شحاذاً من شحاذ مثله ، فإن من تشحذه فهو أيضاً شحاذ مثلك . والله وحده هو الغني»[1] .

فسؤال المخلوق للمخلوق سؤال الفقير للفقير ، والرب تعالى كلما سألته كرمت عليه ورضي عنك وأحبك ، والمخلوق كلما سألته هنْتَ عليه وأبغضك ومقتك وقلاك ، كما قيل :

الله يغضب إن تركت سؤاله وبنيّ آدم حين يُسأل يغضب

وقبيح بالعبد المريد أن يتعرض لسؤال العبيد ، وهو يجد عند مولاه كل ما يريد[2] .

وقد بين الحافظ ابن رجب أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين عقلاً وشرعاً وذلك من وجوه متعددة منها :

١ ـ أن السؤال فيه بذل ماء الوجه وذلة للسائل ، وذلك لا يصلح إلا لله

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٣١) .

(٢) نفس المصدر (٢/ ١٣١ ـ ١٣٢) .

وحده . . .

٢ ـ أن في سؤال الله عبودية عظيمة ، لأنها إظهار للافتقار إليه واعتراف بقدرته على قضاء الحوائج . . .

٣ ـ ومنها أن الله يُحب أن يُسْأل ، ويغضب على من لا يسأله . . .

٤ ـ ومنها أن الله تعالى يستدعي من عباده سؤاله وينادي كل ليلة . . . [١].

وبهذا تتبين لنا أهمية التوكل وضرورته وعدم استغناء العبد عنه طرفة عين في شئون دينه ودنياه .

فمقامٌ هذه منزلته جدير بالعبد أن يبذل قصارى جهده في تحقيقه ، ويسعى جاهداً فيما يبعده عما يناقضه ، ويقدح فيه ، ويقلل من تحقيقه ، والله أعلم .

* * *

---

(١) نور الاقتباس ص (٦٨ ـ ٧١)(مختصراً).

الفصل الرابع

ثمرات التوكل

الفصل الرابع
ثمرات التوكل

بعد أن بينا منزلة التوكل وأهميته ، نحب أن نشير إلى بعض الثمرات العظيمة التي يجنيها المتوكل بعد تحقيقه هذا المقام الرفيع ، وهذه المنزلة الشريفة ، ومن أهمها :

١ ـ تحقيق الإيمان :

تقدم معنا بيان أن التوكل من أعظم أعمال القلوب التي هي أعظم عناصر الإيمان ، كما تقدم أن التوكل شرط ولازم من لوازم الإيمان لا يتم إلا بتحقيقه ، وذكرنا الجمع بين هاتين الخصلتين، اللتين قد يفهم منهما عند أول وهلة التعارض .

وبناء على التلازم بين الإيمان والتوكل ؛ فلا شك أن من أعظم ثمار التوكل الحاصلة هو تحقيق إيمان العبد ؛ حيث لا إيمان إلا بتوكل ، كما لا توكل إلا بإيمان : ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[١] أي فلا تحقيق للإيمان إلا بتحقيق التوكل . وتقدم بسط ذلك بما يغني عن الإعادة[٢] .

٢ ـ طمأنينة النفس وارتياح القلب :

كما أن من أعظم ثمار التوكل أن العبد حينما يسلم قياده لخالقه ورازقه

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٢٣ .

(٢) انظر : ص(٦٦).

ومولاه عز وجل ، ويرضى بما قسم الله له ، ويفوض أمره إليه ، ويثق في موعود الله ، لا شك أنه نتيجة لهذا سيجد راحة في قلبه ، وطمأنينة في نفسه، وأُنساً وسعادة تعجز الأحرف عن وصفها ، لكن يتذوقها من وجدها؛ لأنه «لا أشرح للصدر ولا أوسع له - بعد الإيمان - من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به »[(١)] .

فإذا توكل العبد على الله حق توكله كفاه الله هَمَّه ، وأراحه مما أهمَّه ، وأنزل عليه سكينته ، فاطمأن إلى حكمه الديني الشرعي ، واطمأن إلى حكمه الكوني القدري .

« فإنه إذا اطمأن إلى حكمه الديني علم أنه دينه الحق ، وهو صراطه المستقيم ، وهو ناصره وناصر أهله وكافيهم ووليهم»[(٢)] . قال تعالى : ﴿ **فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ** ﴾[(٣)] ، وقال : ﴿ **قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** . . . إلى قوله : **وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾[(٤)] « وإذا اطمأن إلى حكمه الكوني ؛ علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فلا وجه للجزع والقلق إلا ضعف اليقين والإيمان ؛ فإن المحذور المخوف إن لم يُقدَّر ؛ فلا سبيل إلى وقوعه ، وإن قُدِّر فلا سبيل إلى صرفه بعد أن أُبرم تقديره ، فلا جزع حينئذ ؛ لا مما قدر الله ، ولا مما لم يقدر

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٧١) .

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٥١٦).

(٣) سورة النمل ، آية :٧٩.

(٤) سورة إبراهيم ، الآيتان : ١١ ، ١٢ .

الله»(١) ، قال تعالى : ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٢) .

٣ ـ كفاية الله للمتوكل جميع شئونه :

أخذاً من قوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(٣) أي كافيه. قال الربيع بن خُثَيم : « مِنْ كل ما ضاق على الناس»(٤) .

وقال ابن القيم : « وهو حسب من توكل عليه ، وكافي من لجأ إليه ، وهو الذي يؤمن من خوف الخائف ، ويجير المستجير ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه ؛ تولاه وحفظه ، وحرسه وصانه ،ومن خافه واتقاه؛ أمَّنه مما يُخَاف ويُحْذر ، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع»(٥) .

وهذا أعظم جزاء ؛ أن جعل الله تعالى نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته، وقد ذكر الله تعالى كثيراً من أعمال البر ومقامات الإحسان ، وجعل لها جزاء معلوماً ؛ فمن ذلك :

قوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾(٦) .

---

(١) مدراج السالكين (٣/ ٥١٦).

(٢) سورة التوبة ، آية : ٥١ .

(٣) سورة الطلاق ، آية : ٣.

(٤) رواه البخاري تعليقاً في الرقاق ، باب : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه» (الفتح١١/ ٣١١).

(٥) تيسير العزيز الحميد (٥٠٣).

(٦) سورة الطلاق ، آية : ٢ ، وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « **إني لأعرف كلمة** «وقال عثمان : آية » **لو أخذ الناس كلهم بها كفتهم** . قالوا : يا رسول الله أيَّة آية ؟! قال : =

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾(٣) ، وغيرها .

أما عن التوكل ، فقال : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾(٤) .

قال ابن القيم : « فانظر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل ولم يجعله لغيره ، وهذا يدل على أن التوكل أقوى السبل عنده ، وأحبها إليه »(٥) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا خرج الرجل من باب بيته (أو من باب داره) كان معه ملكان موكلان به ، فإذا قال : بسم الله قالا : هديت ، وإذا قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، قالا : وقيت ، وإذا قال : توكلت على الله ، قالا : كفيت ، قال : فيلقاه قريناه فيقولان : ماذا تريدان من رجل قد هدي ووقي وكفي !** »(٦) .

= ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ » . رواه ابن ماجه في الزهد ، باب : الورع والتقوى ، ح : ٤٢٢٠ (٢/ ١٤١١) ، قال في الزوائد : هذا حديث رجاله ثقات ، غير أنه منقطع ، وأبو السليل لم يدرك أبا ذر ، قاله في التهذيب .

(١) سورة الطلاق ، آية : ٥ .

(٢) سورة الطلاق ، آية : ٤ .

(٣) سورة النساء ، آية : ٦٩ .

(٤) سورة الطلاق ، آية : ٣ .

(٥) مدارج السالكين (٢/ ١٢٨) ، ونسب هذا المعنى في بدائع الفوائد لبعض السلف .

(٦) رواه الترمذي في الدعوات ، باب : ما يقول إذا خرج من بيته ، ح: ٣٤٢٦ (٥/ ٤٩٠) ، =

وروى ابن ماجه في الزهد بإسناده إلى عمرو بن العاص يرفعه إلى النبي ﷺ ، قال : « **إن من قلب ابن آدم بكل واد شعبة ، فمن أتبع قلبه الشُعب كلها لم يبال الله بأي واد هلك ، ومن يتوكل على الله كفاه الله الشُعب** »(١) .

كما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « **من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله كل مئونةٍ ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها** »(٢) .

والكافي هو الله وحده ، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾(٣) . أي : « يكفيك الله ، ويكفي من اتبعك من

= وقال : حسن صحيح غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه . ورواه ابن ماجه في الدعاء ، باب : ما يدعو به الرجل إذا خرج من بيته ، ح : ٣٨٨٦ (٢/ ١٢٧٨) ، وقال في الزوائد : «في إسناده هارون بن عبد الله : وهو ضعيف » وروى نحوه أبو داود من حديث أنس في الأدب ، باب : ما يقول إذا خرج من بيته ح : ٥٠٧٣ (عون ١٣/ ٤٣٧) ، كما روى نحوه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٦٦) بأتم مما هنا ، والحديث صححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير ، ح : ٥١٣ ، ٢٢٧ (١/ ١٩٥) .

(١) رواه ابن ماجه في الزهد ، باب : التوكل واليقين ، ح : ٤١٦٦ (٢/ ١٣٩٥) ، قال في الزوائد : « إسناده ضعيف ، وصالح بن زريق ليس له إلا هذا الحديث ، قال في الميزان : حديثه منكر » .

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (١/ ١١٥ ، ١١٦) ، وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة ومن طريقه البيهقي في الشعب ، ح : ١٠٧٦ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ (٢/ ٢٨ ، ١٢٠) . ورواه ابن أبي حاتم كما في ابن كثير (٨/ ١٧٤) ، وأبو الشيخ كما في الترغيب (٢/ ٥٣٨) ، والخطيب في التاريخ (٧/ ١٩٦) ، قال الهيثمي : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه إبراهيم بن الأشعث صاحب الفضيل ، وهو ضعيف ، وقد ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : يغرب ويخطي ويخالف ، وبقية رجاله ثقات . مجمع الزوائد (١٠/ ٣٠٣) ، وانظر العلل المتناهية لابن الجوزي (٢/ ٣٢٦) .

(٣) سورة الأنفال ، آية : ٦٤ .

المؤمنين»[١] ، فلا تحتاجون معه إلى أحد ، وهذا قول أبي صالح عن ابن عباس ، وبه قال ابن زيد ومقاتل[٢] والشعبي[٣] وآخرون ، ولم يذكر ابن كثير غيره[٤] . وقيل: المعنى: حسبك الله ، وحسبك المؤمنون ، وهو مروي عن الحسن واختاره النحاس[٥] .

قال ابن الجوزي : « والقول الأول هو الأصح »[٦] ، وذلك لدلالة الاستقراء على أن الحسب والكفاية لله وحده[٧] .

قال ابن القيم : « وهذا - وإن قال به بعض الناس - فهو خطأ محض ، لا يجوز حمل الآية عليه؛ فإن الحسب والكفاية لله وحده ، كالتوكل والتقوى والعبادة ، وقال الله تعالى : ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾[٨] .

ففرّق بين الحسب والتأييد ؛ فجعل الحسب له وحده ، وجعل التأييد له بنصره وبعباده ، وأثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده ؛ حيث أفردوه بالحسب ؛ فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾[٩] ، ولم

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٣٧) .
(٢) زاد المسير (٣/ ٥٥٦) .
(٣) تفسير الطبري (١٠/ ٣٧) .
(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٠) .
(٥) تفسير القرطبي (٨/ ٤٣) .
(٦) زاد المسير (٣/ ٢٥٦) .
(٧) أضواء البيان .
(٨) سورة الأنفال ، آية : ٦٢ .
(٩) سورة آل عمران ، آية : ١٧٣ .

يقولوا : حسبنا الله ورسوله .

فإذا كان هذا قولهم ، ومدح الرب تعالى لهم بذلك ؛ فكيف يقول لرسوله : الله وأتباعك حسبك ؛ وأتباعه قد أفردوا الرب بالحسب ، ولم يشركوا بينه وبين رسوله فيه ، فكيف يشرك بينهم وبينه في حسب رسوله ؟! هذا من أمحل المحال وأبطل الباطل .

ونظير هذه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾(١) .

فتأمل كيف جعل الإيتاء لله ورسوله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾(٢)، وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا : حسبنا الله ورسوله؛ بل جعله خالص حقه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾(٣) ولم يقل : وإلى رسوله ، بل جعل الرغبة إليه وحده ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾(٤) .

فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده ، كما أن العبادة والتقوى والسجود لله وحده ، والنذر والحلف لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى .

ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾(٥) ، فالحسب هو الكافي، فأخبر سبحانه أنه وحده كاف عبده ، فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية ؟! والأدلة الدالة على بطلان هذا التأويل الفاسد أكثر من أن

---

(١) سورة التوبة ، آية : ٥٩ .
(٢) سورة الحشر ، آية : ٧ .
(٣) سورة التوبة ، آية : ٥٩ .
(٤) سورة الشرح، الآيتان: ٧ ،٨.
(٥) سورة الزمر، آية: ٣٦.

تذكر»[١] . اهـ .

٤ ـ من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار:

التوكل سبب من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار ، خلافاً لمن قال: إنه مجرد عبادة يثاب عليها العبد ، كرمي الجمار ، وخلافاً لمن قال بنفي الأسباب في الخلق والأمر ، كما هو قول طائفة من متكلمي أهل الإثبات للقدر ؛ كالأشعري وغيره ، وهو قول طائفة من الفقهاء والصوفية[٢] وسيأتي تفصيل ذلك عند الحديث عن الأسباب إن شاء الله تعالى .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: « والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد مالا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك ، فإن الله حسبه أي: كافيه ، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ، ولا يضره إلا أذى لابد منه ، الحر والبرد والجوع والعطش. وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً»[٣] .

والواقع خير شاهد على ذلك ، فقد روى البخاري بإسناده عن ابن عباس: (حسبنا الله ونعم الوكيل) ، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم»[٤] .

وقال ابن عباس : « كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين ألقي في

---

(١) زاد المعاد (١/ ٣٦ـ٣٧) .

(٢) رسالة في تحقيق التوكل لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ص(٨٧) ضمن جامع الرسائل.

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٢٦٧).

(٤) رواه البخاري في التفسير ، باب : قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ . . . الآية ﴾ ح: ٤٥٦٣ (فتح الباري ٨/ ٧٧).

النار : حسبنا الله ونعم الوكيل»[١] .

وروى البيهقي بإسناده إلى بشر بن الحارث ، قال : « لما رفع إبراهيم عليه السلام ليلقى في النار عرض له جبريل عليه السلام ، فقال : يا إبراهيم ، هل لك من حاجة ؟ قال : أما إليك ؛ فلا »[٢] ، وهذا من كمال تحقيقه التوكل على ربه تعالى وحده دون سواه .

ولكن ماذا كانت النتيجة ؟!

قال الله تعالى في حق إبراهيم ﷺ : ﴿ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ** ﴾[٣] .

وقال في حق محمد ﷺ وأصحابه : ﴿ **فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾[٤] . قال الحافظ ابن كثير : « لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم ، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم ؛ فرجعوا إلى بلدهم ﴿ **بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ** ﴾ مما أضمر لهم عدوهم ﴿ **وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾[٥] .

وقال تعالى ممتناً على المؤمنين : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ**

---

(١) رواه البخاري في التفسير ، باب : قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ . . . ﴾ الآية ح : ٤٥٦٤ (الفتح ٨/ ٧٧) .

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (١٧/ ٤٥) ، والبغوي في تفسيره (٤/ ٢٤٣) ، والبيهقي في الشعب ، ح : ١٠٧٧ (٢/ ٢٩) .

(٣) سورة الأنبياء ، الآيتان : ٦٩ ، ٧٠ .

(٤) سورة آل عمران ، آية : ١٧٤ .

(٥) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٤٨) .

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[١] .

فتذييل الآية بالتوكل على الله مشعر أنه من أسباب كفه عنكم أيدي القوم الذين هموا بالبطش بكم ، فصرفهم عنكم وحال بينهم وبين ما أرادوا بكم .

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ثلاثة أخبار ، كلها تدل على كفاية الله تعالى لنبيه ﷺ وحفظه من شر الناس ، وهي :

١ - ما رواه البخاري وغيره عن جابر أن النبي ﷺ نزل منزلاً ، وتفرق الناس في العضاه[٢] يستظلون تحتها ، وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة ، فجاء أعرابي [٣] إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه ؛ فسلّه ، ثم أقبل على النبي ﷺ ، فقال : من يمنعك مني ؟ قال : « الله ! » قال الأعرابي - مرتين أو ثلاثاً - : من يمنعك مني؟ ، والنبي ﷺ يقول : الله ، قال : فشام[٤] الأعرابي السيف ، فدعا النبي أصحابه ، فأخبرهم خبر الأعرابي ، وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه [٥] .

---

(١) سورة المائدة ، آية : ١١ .

(٢) العضاه : شجر أم غيلان ، وكل شجر له شوك ، الواحدة : عِضَةٌ بالتاء وأصلها عِضَهَة ، وقيل : واحدته : عضاهة . (النهاية ٣/ ٢٥٥).

(٣) وردت في بعض الروايات تسميته وهو : غورث بن الحارث . انظر : صحيح البخاري في المغازي، ح: ٤١٣٦ (فتح ٧/ ٤٩١) ، وانظر : تفسير ابن كثير (٣/ ٥٩).

(٤) شام السيف : أغمده . والشيم من الأضداد . يكون سلاً وإغماداً . (النهاية ٢/ ٥٢١).

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٣١١) والبخاري في الجهاد ، باب : من علق سيفه بالشجر، ح: ٢٩١٠ (فتح٦/ ١١٣) بنحوه ، ورواه الطبري في التفسير (٦/ ١٤٦) وعبد ابن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور (٣/ ٣٥) ، والبيهقي في الدلائل وغيرهم .

٢ ـ ومنها ما رواه ابن جرير الطبري وغيره عن ابن عباس في هذه الآية ـ فذكرها ـ وقال : وذلك أن قوماً من اليهود صنعوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه طعاماً ليقتلوهم ، فأوحى الله تعالى إليه بشأنهم ؛ فلم يأت الطعام وأمر أصحابه فأبوه[١] .

٣ ـ وقيل نزلت في اليهود حينما تمالئوا على قتل النبي ﷺ ، وذلك حينما خرج ﷺ إليهم ليستعينهم على دية العامريَّيْن الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري ، فلما جاءهم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن ، فمروا رجلاً يظهر على هذا البيت ، فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه ، ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب ، وأمروه إن جلس رسول الله ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقي تلك الرحى من فوقه ، فأطلع الله رسوله على ما تمالئوا عليه ، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه[٢] ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...** ﴾[٣] .

وعلى اعتبار جميع هذه الأسباب ، أو ترجيح أحدها ، أو غيرها ، فهذه كلها من حيث الواقع تدل على حماية الله تعالى وكلاءته وحفظه لنبيه ، وما ذاك إلا لتحقيقه تمام التوكل على ربه عز وجل . والصور والوقائع في هذا المعنى كثيرة نكتفي بما ذكرناه منها .

---

(١) رواه الطبري في التفسير (٦/ ١٤٦) ، وابن أبي حاتم ؛ كما في تفسير ابن كثير (٣/ ٥٩) .

(٢) رواه الطبري في التفسير (٦/ ١٤٤) ورجحه ، ورواه ابن إسحاق وابن المنذر ؛ كما في الدر المنثور (٣/ ٣٧) .

(٣) سورة المائدة ، آية : ١١ .

٥ ـ يورث محبة الله تعالى للعبد :

ولا شك أن هذه أعلى المطالب ، وأعلى المُنى أن يحظى العبد بمحبة الله تبارك وتعالى له .

وقد وعد الله تعالى المتوكلين عليه بالمحبة ، ووَعْدُ الله واقع لا محالة لمن حقق التوكل . قال الله عز وجل مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾[١] .

وهم الراضون بقضائه والمستسلمون لحكمه فيهم ، وافق ذلك منهم هوى أو خالفه[٢] .

فجعل تبارك وتعالى ثمرة التوكل عليه، الحصول على محبته تعالى لذلك المتوكل ، وهي غاية الشرف والفضيلة كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله : « وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون ، وإليها شخص العاملون ، وإلى عَلَمها شمر السابقون ، وعليها تنافس المحبون ، وبروح نسيمها تروّح العابدون ، فهي قوت القلوب ، وغذاء الأرواح ، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات ، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات ، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام ، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام . . . »[٣] .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٥٩ .

(٢) تفسير الطبري (٤/ ١٥٣).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٦).

وهذا في محبة العبد لله تعالى ، فكيف بمحبة الله تعالى لهذا العبد الضعيف! ، ولذلك قال بعض الحكماء العلماء : « ليس الشأن أن تُحِب إنما الشأن أن تُحَب»[١] .

ومن نال محبة الله فقد حاز على شرف الدنيا والآخرة ، وأحبه الرسل والأنبياء والملائكة ووضع لهم القبول في الأرض .

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ ، قال : «**إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : إن الله يحب فلاناً فأحبّوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض**»[٢] .

قال الحافظ ابن حجر : « المراد بالقبول في حديث الباب : قبول القلوب له بالمحبة والميل إليه ، والرضا عنه ، ويؤخذ منه أن محبة قلوب الناس علامة محبة الله»[٣] .

وإذا أحب الله العبد وفقه لعمل الطاعات كما في الحديث القدسي : « ...**ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي**

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٢٥).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب ، باب : المِقَة من الله ، ح: ٦٦٤٠ (الفتح ١٠/ ٤٧٦) ، ومسلم في البر . باب : إذا أحب عبداً حببه إلى عباده ، ح: ٢٦٣٧ (٤/ ٢٠٣٠) ، والترمذي في التفسير (سورة مريم) ، ح: ٣١٦١ (٥/ ٣١٨) بنحوه ، وأحمد في المسند (٢/ ٢٦٧ ، ٣٤١).

(٣) فتح الباري (١٠/ ٤٧٧).

يمشي عليها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه»(١) .

وقد عرف الصحابة رضوان الله عليهم أهمية المحبة وعظَم شأنها ، وكانوا أحرص ما يكونون على تحقيقها ، فلما قال رسول الله ﷺ يوم خيبر : «**لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ـ أو قال : يحب الله ورسوله ـ يفتح الله عليه** » . فبات الناس يدوكون ليلتهم ؛ أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها ، فأعطاها علياً رضي الله تعالى عنه(٢) .

فالصحابة الكرام رضي الله عنهم لمعرفتهم بأهمية المحبة وعظم شأنها «باتوا يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها» و «كلهم يرجو أن يعطاها» وهم الذين لا يرغبون في الإمارة ولا يحبونها ، حتى قال الفاروق عمر رضي الله عنه : «فما أحببت الإمارة قط إلا يومئذ» .

٦ ـ يورث قوة القلب وشجاعته وثباته وتحديه الأعداء :

من أعظم ثمار التوكل أنه يورث قوة القلب وثباته وشجاعته وتحديه الأعداء مهما عظموا ، فالقوة كل القوة في التوكل .

وقد روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « **من أحب أن يكون**

---

(١) رواه البخاري في الرقاق ، باب : في التواضع ح : ٦٥٠٢ (الفتح ١١/ ٣٤٨) .

(٢) رواه البخاري في فضائل الصحابة ، باب : مناقب علي ، ح : ٣٧٠١ (فتح ٧/ ٨٧) ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب : من فضائل علي ، ح : ٢٤٠٦ (٤/ ١٨٧٢) ، والترمذي في المناقب (٢٠) ، وابن ماجه في المقدمة (١١) ، أحمد في المسند (١/ ٣٣١) و(٢/ ٣٨٤) و (٤/ ٥٢) .

أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن أحب أن يكن أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله »[١] .

ولذلك جاء الأمر بالتوكل مقروناً بالإعراض عن الأعداء ، وعدم الاهتمام بهم ، أو الخوف منهم ، فقال تعالى : ﴿ **وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً** ﴾[٢] ويعني بهم المنافقين .

وقال عز وجل آمراً نبيه ﷺ : ﴿ **وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً** ﴾[٣] .

وقرنه بالبراءة منهم في قوله : ﴿ **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ** ﴾[٤] .

ولذلك وقف الأنبياء موقف القوة والتحدي أمام أعدائهم مع قلة الأتباع والأنصار ، ولكنهم اتكلوا على ركن شديد ، لا يخذل من لاذ به ، ولا يهزم من كان ناصره .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٧/ ٩١ ، وعبد الله بن الإمام أحمد في الزهد ص (٢٩٥) والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٠) ، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢١٨) ، وفي أخبار أصبهان (٢/ ٣٦٣) ، وابن أبي الدنيا في التوكل على الله ، ح: ٩ ، ص(٤٤) ، وضعفه العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ٢٤٤) ، وحسنه المناوي في التيسير (٢/ ٤٢٢) تبعاً للسيوطي .

(٢) سورة النساء ، آية : ٨١.

(٣) سورة الأحزاب ، آية : ٤٨ .

(٤) سورة الشعراء ،الآيات : ٢١٧-٢١٩ .

١ ـ فهذا نوح عليه السلام يقول الله تعالى عنه : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[(١)] .

فهذه الأمور الخمسة ؛ وهي : قوله :

(١ ـ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ ٢ـ وَشُرَكَاءَكُم ٣ـ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ٤ ـ ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ ٥ ـ وَلا تُنظِرُونِ) كلها تدل على أنه كان متوكلاً على الله غاية التوكل ، مؤمناً بأن وعد الله بالنصر والعون متحقق ، ولن يتخلف. وفي هذا من قوة العزيمة ، وثبات الجأش ما فيه .

ثم ذيل الآيات بنتيجة هذا التحدي ، فقال : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾[(٢)] .

فكانت النتيجة كما يلي :

١ ـ نجاة نوح ومن معه .

٢ ـ جعلهم الله خلائف : (أي : خلفاً لمن هلك)[(٣)] .

---

(١) سورة يونس ،الآيتان : ٧١ ، ٧٢، وانظر : معاني الآيات في تفسير الطبري (١١/ ١٤٣)، وابن كثير (٤/ ٢١٨) .

(٢) سورة يونس ، آية : ٧٣ .

(٣) زاد المسير (٤/ ٤٣).

٣ ـ إغراق المكذبين .

٤ ـ الحكمة من ذكر القصة والعبرة من ذلك .

قال شيخ الإسلام : « فلولا أن تحقيقه هذه الكلمة وهو توكله على الله يدفع ما تحداهم به ودعاهم إليه تعجيزاً لهم من مناجزته ؛ لكان قد طلب منهم أن يهلكوه ، وهذا لا يجوز ، هذا طلب تعجيز لهم ، فَدَلّ على أنه بتوكله على الله سيعجزهم بما تحداهم به»[1] .

٢ ـ وهذا هود عليه السلام ؛ حيث قال الله تعالى عنه : ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[2] .

قال القرطبي : «وهذا القول مع كثرة الأعداء يدل على كمال الثقة بنصرة الله ، وهو من أعلام النبوة ؛ أن يكون الرسول وحده يقول لقومه : ﴿ **فَكِيدُونِي جَمِيعًا** ﴾ »[3] .

ويقول شيخ الإسلام : « وهم كانوا أكثر وأقوى منه ، فكانوا يهلكونه لولا قوته بتوكله عليه ، فإن التوكل إن لم يعط قوة فهم أقوى منه»[4] .

---

(١) تحقيق التوكل ص(٩٦) ضمن جامع الرسائل .

(٢) سورة هود ، الآيات من ٥٠ إلى ٥٦ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٥٢) .

(٤) تحقيق التوكل ص(٩٧) .

ويقول ابن أبي العز الحنفي : « فهذا من أعظم الآيات ؛ أن رجلاً واحداً يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب ، غير جزع ولا فزع ولا خوّار ؛ بل هو واثق بما قاله ، جازم به .

فأشهد الله أولاً على براءته من دينهم وما هم عليه ، إشهاد واثق به معتمد عليه ، معلم لقومه أنه وليه وناصره ، وغير مسلط لهم عليه .

ثم أشهدهم إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة ؛ أنه بريء من دينهم وآلهتهم التي يوالون عليها ويعادون عليها، ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصرتهم لها .

ثم أكد ذلك عليهم بالاستهانة لهم واحتقارهم وازدرائهم ، ولو يجتمعون كلهم على كيده ، وشفاء غيظهم منه ، ثم يعاجلونه ولا يمهلونه ؛ لم يقدروا على ذلك إلا ما كتبه الله عليه .

ثم قرر دعوتهم أحسن تقرير ، وبين أن ربه تعالى وربهم ؛ الذي نواصيهم بيده ، هو وليه ووكيله القائم بنصره وتأييده ، وأنه على صراط مستقيم ، فلا يخذل من توكل عليه وأقر به ، ولا يشمت به أعداءه . . »[١] . اهـ.

٣ ـ وهذا خطيب الأنبياء[٢] شعيب عليه السلام قال الله تعالى عنه : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص(٩٤) ، وقارن في مدارج السالكين (٣/ ٤٦٤) .

(٢) روي عن النبي ﷺ أنه كان إذا ذكر شعيباً ، قال : «ذاك خطيب الأنبياء» ؛ لحسن مراجعته قومه فيما دعاهم إليه ، وفيما ردوا عليه وكذبوه وتوعدوه بالرجم والنفي من بلادهم . . . » ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٠١) ، وعزاه إلى إسحاق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس .

من قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[١] .

إلى غير ذلك من مواقف الأنبياء في تحديهم أقوامهم وتعجيزهم لهم مع قلة الناصر البشري ، وما ذاك إلا لقوة اعتمادهم وتوكلهم على الله تعالى الذي أورثهم تلك القوة وعدم المبالاة بكيد الأعداء أو الاكتراث بهم .

وتقدمت الإشارة إلى الخليلين عليهما الصلاة والسلام ، وقوة توكلهما بما يغني عن الإعادة ، حتى كان ذلك علماً على رسول الله ﷺ ، فسماه الله عز وجل : « المتوكل» كما ثبت ذلك في حديث عطاء بن يسار ، قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، قلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ، قال : أجل إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِي...﴾ فذكره إلى أن قال : « أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل»[٢] .

ولذلك جاء في بعض الآثار أن الرسل وجدت على لوط عليه السلام حينما قال : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[٣] ، وقالوا : «إن

---

(١) سورة الأعراف ، الآيتان :٨٨، ٨٩.

(٢) رواه البخاري في البيوع ، باب : كراهة السخب في الأسواق ، ح: ٢١٢٥ (الفتح ٤/ ٤٠٢) ، وفي التفسير باب: (٤٨) ، ح: ٤٨٣٨ (الفتح ٨/ ٤٤٩) ، ورواه أحمد في مسنده (٢/ ١٧٤).

(٣) سورة هود ، آية : ٨٠.

ركنك لشديد» .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **رحمة الله على لوط ؛ لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة**(١) **من قومه**»(٢) .

وورد في معنى : ﴿ **لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً** ﴾ أي جماعة أقوى بهم عليكم ، وقيل المراد بالقوة البطش(٣) .

وقوله : ﴿ **أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ** ﴾ أي أنضم إلى عشيرة وشيعة تمنعني(٤) .

ولذلك قال ابن الجوزي : « وفي الجملة ما أراد بالركن نصر الله وعونه ؛ لأنه لم يخل من ذلك ، وإنما ذهب إلى العشيرة والأسرة »(٥) .

وقال ابن الأثير مشيراً إلى حديث : رحم الله لوطاً . . . قال : « إنما تحرم

---

(١) أي في كثرة من قومه . انظر الفائق مادة (ثرو) (١/ ١٦٤) ، والنهاية (١/ ٢١٠) ، وفي رواية أخرى : «**في ذروة من قومه**» (انظر : الترمذي ٥/ ٢٩٣) بمعنى : في أعلا نسبٍ منهم .

(٢) رواه الترمذي في تفسير سورة يوسف ، ح: ٧١١٦ (٥/ ٢٩٣) ، وقال : هذا حديث حسن ، ورواه أحمد في المسند (٢/ ٣٣٢ ، ٣٨٤)، وابن جرير في تفسيره (١٢/ ٨٧، ٨٨) . والشطر الأول من الحديث رواه البخاري في الأنبياء باب قول الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ** ﴾ ح: ٣٣٨٧ (٦/ ٤٨١ - ٤٨٢) ، ومسلم في الفضائل ، باب : من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام ح: ١٥١ (٤/ ١٨٣٩) .

(٣) زاد المسير (٤/ ١٠٩) .

(٤) نفس المرجع (٤/ ١٠٩) .

(٥) نفس المرجع (٤/ ١١٠).

عليه لسهوه حين ضاق صدره من قومه حتى قال : ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أراد عز العشيرة الذين يستند إليهم كما يستند إلى الركن من الحائط»[١] .

٧ ـ يورث الصبر والتحمل :

ولهذا قرن الله تعالى بين الصبر والتوكل في غيرما آية[٢] ، وما ذاك إلا لأن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها : « فما فات أحداً شيء من الخير إلا لعدم صبره وبذل جهده فيما أريد منه ، أو لعدم توكله واعتماده على الله»[٣] .

ـ قال الله عز وجل : ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٤] .

ـ وقال عز وجل : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٥] .

قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله : « ونص على التوكل وإن كان داخلاً

---

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٢٦٠) . وانظر الأحوذي (٨/ ٥٤١) .

(٢) تقدم ص(٧٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٦١).

(٤) سورة النحل ، الآيتان : ٤١ ، ٤٢.

(٥) سورة العنكبوت ، الآيتان : ٥٨ ، ٥٩ .

في الصبر ؛ لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأمور به ولا يتم إلا به»[١] .

ـ وقال تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[٢] .

فإذا كان التوكل يورث الصبر ؛ فإن الصبر من أكبر أسباب الحصول على كل كمال ، فأكمل الخلق أصبرهم ، وهو من أجل مقامات الإيمان ، فكيف إذا اقترن باليقين! فإنه يورث الإمامة في الدين ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين »[٣] ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[٤].

٨ ـ يورث النصر والتمكين :

ولهذا قرن الله تعالى بينه وبين التوكل في عدة آيات :

قال تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[٥]. قرر الله تعالى هذه القاعدة، بين أمره لنبيه ﷺ إذا عزم أن يتوكل على الله؛ لأن الله يحب

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٧١).

(٢) سورة إبراهيم ، الآيتان : ١١، ١٢ .

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١٥٤) ، وانظر : تفسير ابن كثير (٦/ ٣٧٢).

(٤) سورة السجدة ، آية : ٢٤ .

(٥) سورة آل عمران ، آية : ١٦٠ .

المتوكلين ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(١) وبين قوله : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، وما ذاك إلا لأن النصر لا يكون إلا من عند الله ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾(٢) فمن لاذ بكنفه كفاه ، ومن استنصر بغيره وكله الله إلى من استنصر به ، ومن وكله الله إلى غيره هلك .

وقال عز وجل : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٣) وذلك في معرض الحديث عن غزوة بدر ، حيث قال عز وجل قبل ذلك : ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾(٤) ، ثم قال : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ . . . الآية ﴾(٥) .

وذلك أن المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، لما رأوا قلة المؤمنين أمام جحافل المشركين ذلك اليوم ، قالوا : ﴿ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ ﴾ وهي مقولة يرددها المنافقون وأصحاب القلوب المريضة ، كلما رأوا إقدام المسلمين في الاستبسال

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٥٩ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ١٢٦ .
(٣) سورة الأنفال ، آية : ٤٩ .
(٤) سورة الأنفال ، آية : ٤٧ .
(٥) سورة الأنفال ، آية : ٤٨ ، ٤٩ .

في سبيل الله مع قلة عَددهم وعُددهم ، متوكلين على الله تعالى واثقين بنصره وتحقيق وعده، في قوله : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾(١) .

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(٢) ، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٣) ، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٤) ، فمتى حققوا العبادة الخالصة لله تعالى ـ ومن مقتضياتها التوكل عليه سبحانه وتعالى وحده دون سواه ـ تَحَقَّقَ لهم ما وعدهم الله تعالى من النصر والتمكين.

وأما قول المنافقين عن المؤمنين: ﴿غَرَّ هَٰؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾، فـ« يقولونه احتقاراً لهم واستخفافاً بعقولهم وهم ـ والله ـ الأخفاء عقولاً، الضعفاء أحلاماً ؛ فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا تقدم عليها الجيوش العظام.

فإن المؤمن المتوكل على الله ، الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه ، ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه ، وعلم أنه على الحق ، وأن الله تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه ؛ فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة وكان واثقاً بربه ،

---

(١) سورة غافر ، آية : ٥١ .

(٢) سورة محمد ، آية : ٧ .

(٣) سورة الحج ، آية : ٤٠ .

(٤) سورة النور ، آية : ٥٥ .

مطمئن القلب لا فزعاً ولا جباناً .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ** ﴾ لا تغالب قوته قوة ﴿ **حَكِيمٌ** ﴾[(١)] فيما قضاه وأجراه»[(٢)].

والمنافقون والذين في قلوبهم مرض لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة ، فهم يرون ظواهر الأمور ، دون أن تهديهم بصيرة إلى بواطنها ، ودون أن يشعروا بالقوة الكامنة في العقيدة ، والثقة في الله والتوكل عليه ، واستصغار شأن الجموع والقوى التي لا ترتكن إلى عقيدة في الله تمنحها القوة الحقيقية ، فلا جرم يظنون المسلمين يومئذ مخدوعين في موقفهم، مغرورين بدينهم ، واردين موارد التهلكة بتعرضهم لجحافل المشركين التي يرونها ! .

« إن الواقع المادي الظاهر لا يختلف من ناحية مظهره ، عند القلوب المؤمنة وعند القلوب الخاوية من الإيمان ، ولكن الذي يختلف هو التقدير والتقويم لهذا الواقع المادي الظاهر . . فالقلوب الخاوية تراه ولا ترى شيئاً وراءه ، والقلوب المؤمنة ترى ما وراءه من الواقع الحقيقي ! الواقع الذي يشمل جميع القوى ، ويوازن بينها موازنة صحيحة ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[(٣)] .

هذا ما تدركه القلوب المؤمنة وتطمئن إليه ، وما هو محجوب عن القلوب الخاوية ؛ فلا تحسب حسابه ! وهذا ما يرجح الكفة ، ويقرر

---

(١) سورة الأنفال ، آية : ٤٩ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩).

(٣) سورة الأنفال ، آية : ٤٩.

النتيجة، ويفصل في القضية في نهاية المطاف، في كل زمان وفي كل مكان»[١].

ولذلك لما اختل هذا الميزان، وأعجب بعض المؤمنين بكثرتهم؛ فخف في مقابل ذلك الإعجاب ميزان التوكل على الله تعالى في قلوبهم؛ لَقَّنَ الله المؤمنين - ومنهم رسوله - ذلك الدرس العظيم في غزوة حنين، حيث قال الله عز وجل مصوراً تلك القضية ومشيراً إلى ما في خبايا نفوس بعض القوم من مشاعر، فقال عز وجل: ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ** ﴾[٢].

«فمن انفعال الإعجاب بالكثرة إلى زلزلة الهزيمة الروحية، إلى انفعال الضيق والحرج، وحتى لكأن الأرض كلها تضيق بهم وتشد عليهم، إلى حركة الهزيمة الحسية وتولية الأدبار والنكوص على الأعقاب...»[٣].

لكن الله تعالى أنقذهم في ذلك الموقف أيضاً، ونصرهم بثبات تلك الفئة المؤمنة الثابتة مع رسول الله ﷺ: ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** ﴾[٤].

والسكينة: ما جعله الله في القلوب وقت القلاقل والزلازل والمفظعات

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٥٣٢ - ١٥٣٣).
(٢) سورة التوبة، آية: ٢٥.
(٣) في ظلال القرآن (٣/ ١٦١٧).
(٤) سورة التوبة، آية: ٢٦.

ما يثبتها ويسكنها ويجعلها مطمئنة ، وهي من نعم الله العظيمة على العباد»[١] .

وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة ، سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه ، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة ، وممن أسلم من الطلقاء من أهل مكة ، فكانوا اثني عشر ألفاً ، والمشركون أربعة آلاف ، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم ، وقال بعضهم : لن نغلب اليوم من قلة ! .

فلما التقوا هم وهوازن، حملوا على المسلمين حملة واحدة ؛ فانهزموا لا يلوي أحد على أحد ، ولم يبق مع الرسول ﷺ إلا نحو مائة رجل ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين ، وجعل النبي ﷺ يركض بغلته نحو المشركين ، ويقول : « **أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب** » .

ولما رأى من المسلمين ما رأى ، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين - وكان رفيع الصوت - فناداهم : يا أصحاب السمرة، يا أهل سورة البقرة ، فلما سمعوا صوته عطفوا عطفة رجل واحد ، فاجتلدوا مع المشركين ، فهزم الله المشركين هزيمة شنيعة ، واستولوا على معسكرهم ونسائهم وأموالهم[٢] .

٩ - يقوي العزيمة والثبات على الأمر :

ولذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ إذا عزم أن يتوكل على الله، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾[٣] .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢٣٥).

(٢) انظر تفاصيل هذه الغزوة في السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٤٣٧ فما بعدها).

(٣) سورة آل عمران ، آية : ١٥٩ .

وكمال العبد بالعزيمة والثبات : « فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص ، ومن كانت له عزيمة ، ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص ، فإذا انضم الثبات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال كامل »[١] ، ولهذا كان من دعائه ﷺ : «**اللهم إني أسألك الثبات على الأمر والعزيمة على الرشد . . .**»[٢] .

ولا شك أن من أعظم ما يعين الإنسان على الثبات على الأمر الرشيد والرأي السديد والعزيمة على تحقيقه ؛ هو تحقيق التوكل على الله تعالى .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن مسلم بن يسار رضي الله تعالى عنه ، قال : « الكلام في القدر واديان عريضان ؛ يهلك الناس فيهما لا يُدرك عرضهما ، فاعمل عمل رجل يعلم أنه لا ينجيه إلا عمله ، وتوكل توكل رجل يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له »[٣] .

ولذلك قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾[٤] .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « **إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل** »[٥] ، وما ذاك إلا لما للتوكل من أثر عظيم في تقوية

---

(١) طريق الهجرتين ، ص(٢٤٨).

(٢) رواه النسائي في السهو ، باب : الدعاء بعد الذكر ، ح : ١٣٠٤ (٣/ ٥٤) ، والترمذي في الدعوات ، باب : (٢٣)، ح : ٣٤٠٧ (٥/ ٤٧٦)، وقال : هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه . ورواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٢٣ ، ١٢٥) ، وضعف الألباني إسناده كما في ضعيف الجامع الصغير ، ح: ١٢٨٨ (١/ ٣٦١) ، وتخريج الكلم الطيب، ح: ١٠٤ ص(٦٥).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ، كما في الدر المنثور (٤/ ٢١٦).

(٤) سورة التوبة ، آية : ٥١ .

(٥) عزاه الحافظ ابن كثير إلى ابن مردويه . وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه . التفسير (٢/ ١٤٨).

العزيمة والثبات على الحق ، ولهذا لما ثقل على الصحابة رضوان الله عليهم ما أخبرهم به ﷺ من قرب قيام الساعة ، فقال : « **كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ، واستمع الإذن ، متى يؤمر بالنفخ فينفخ** ، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي ﷺ ، **فقال لهم : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا** »[1] .

١٠ ـ يقي من تسلط الشيطان :

قال الله تعالى : ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ** ﴾[2] فبين الله تعالى أن الشيطان ليس له سلطان على من حقق الإيمان والتوكل ، وإنما سلطانه على المتولّين له ، المطيعين لأوامره ، والمراد بالسلطان هنا قولان :

أحدهما : أنه التسلط ، ثم فيه ثلاثة أقوال :

أ ـ ليس له عليهم سلطان بحال ؛ لأن الله صرف سلطانه عنهم بقوله : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴾[3] .

ب ـ ليس له عليهم سلطان ؛ لاستعاذتهم منه .

جـ ـ ليس له قدرة على أن يحملهم على ذنب لا يغفر[4] ، روي ذلك عن

---

(١) رواه الإمام أحمد (١/ ٣٢٦) والترمذي في القيامة ، باب : ما جاء في الصور ، ح : ٢٤٣١ (٤/ ٦٢٠) ، وقال : حديث حسن . وقال الحافظ ابن كثير : وهو حديث جيد . التفسير (١٤٨/٢).

(٢) سورة النحل ، الآيات : ٩٨ ـ ١٠٠ .

(٣) سورة الحجر ، آية : ٤٢ .

(٤) زاد المسير (٣٥٨/٤) .

سفيان الثوري رحمه الله[١] .

ثانيهما : أنه الحجة ، فالمعنى ليس له حجة على ما يدعوهم إليه من المعاصي[٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾[٣] .

فتذييل الآية بالتوكل مشعر بحماية الله لعبده المؤمن من كيد أعدائه ، وعلى رأسهم الشيطان الرجيم ؛ لأن من توكل على الله كفاه كيد الأعداء ، وكفاه أمور دينه ودنياه .

وفي السنن عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ ، قال : « **من قال إذا خرج من بيته : بسم الله توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له هديت ووقيت وكفيت ، فيقول الشيطان لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هدي ووقي وكفي !**»[٤] .

١١ ـ من أسباب دفع السحر والحسد والعين :

حيث عَدَّد الحافظ ابن القيم الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي ، فقال : « السبب الرابع : التوكل على الله ؛ فمن توكل على الله فهو حسبه ، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير (١٤/ ١١٧) ، وابن أبي الدنيا في التوكل على الله ، ح : ٢٤ ، ص(٦) ، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٧٦).

(٢) زاد المسير (٤/ ٣٥٨) .

(٣) سورة المجادلة ، آية : ١٠ .

(٤) تقدم تخريجه قريباً ، ص(١١٠).

يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم ، وهو من أقوى الأسباب في ذلك ، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع لعدوه ، ولا يضره إلا أذى لابد منه كالحر والبرد والجوع والعطش ، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً »[١] .

ومما يدل على ذلك أن يعقوب عليه السلام لما نهى أبناءه أن يدخلوا من باب واحد ، وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة ؛ ذكر بعض المفسرين أن ذلك مخافة عليهم من العين[٢] .

ثم ذيل ذلك بتوكله على الله تعالى ؛ لأنه الكافي من كل حاسد وعائن ؛ قال الله تعالى : ﴿ **وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾[٣] .

قال الإمام الطبري : « ذكر أنه أمرهم بالدخول من أبواب متفرقة ؛ لأنهم كانوا رجالاً لهم جمال وهيبة ، فخاف عليهم العين »[٤] . ذكره عن ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم[٥] .

وقال القاضي أبوبكر ابن العربي : « المسألة الأولى : في أمره لهم بالتفرق . وفي ذلك أقوال ؛ أظهرها أنه تقاة العين . . »[٦] .

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٦٧).
(٢) وقيل غير ذلك . انظر : زاد المسير (٤/ ١٩٢).
(٣) سورة يوسف ، آية : ٦٧ .
(٤) تفسير ابن جرير (١٣/ ١٣).
(٥) انظر : الدر المنثور للسيوطي (٤/ ٥٥٧).
(٦) أحكام القرآن (٣/ ٩٢).

فيعقوب عليه السلام اتخذ الأسباب الحسية والمعنوية الواقية من شر ذلك البلاء ؛ فأمرهم بالتفرق والدخول مع الأبواب ، وهذا سبب من أسباب الدفع ، ثم بين أن الأمر كله بيد الله ، وأنه لا يملك من الله من شيء في جلب نفع أو دفع ضر ، ثم اتخذ السبب الأهم وهو التوكل على الله سبحانه وتعالى في حفظهم وكفايتهم ، والله تعالى أعلم .

وهذه الفقرة ، وإن كانت داخلة في الفقرة الرابعة، كما يمكن أن تدخل في العاشرة ، إلا أني أحببت إفرادها بالذكر لأهميتها ، وهي من ذكر الخاص بعد العام .

١٢ - يورث الرزق :

قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾[١] .

وقال عز وجل : ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾[٢] .

قال شيخ الإسلام : « فعقب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل بحرف الفاء ، وهي تفيد السبب ، فدل ذلك على أن ذلك التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل، وأن هذا الجزاء جزاء على ذلك العمل »[٣] .

---

(١) سورة الطلاق ، الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٢) سورة آل عمران ، الآيتان : ١٧٣ ، ١٧٤ .
(٣) تحقيق التوكل ، ص(١٠٩) .

والمعنى : « أي لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم ، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم ، فرجعوا إلى بلدهم ﴿ **بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ** ﴾ مما أضمر لهم عدوهم ﴿ **وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾[١] .

والمراد بـ (النعمة) فيما روي عن ابن عباس : أنهم سلموا ، و(الفضل) : أن عيراً مرت وكان في أيام الموسم فاشتراها رسول الله ﷺ فربح فيها مالاً فقسمه بين أصحابه .[٢] وقيل غير ذلك[٣] .

والآيات في ذكر يوم حمراء الأسد بعد أحد[٤] .

ومما يدل على أن التوكل على الله تعالى من أعظم أسباب المكاسب وتحصيل الأرزاق ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال : « **لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ؛ تغدو خماصاً وتروح بطاناً** »[٥] .

قال أبو حاتم الرازي : « هذا الحديث أصل في التوكل ، وأنه من أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق »[٦] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٨) .

(٢) نفس المصدر (٢/ ١٤٨) .

(٣) انظر زاد المسير (٢/ ٥٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٣) .

(٥) رواه الإمام أحمد (١/ ٣٠ ، ٥٢) ، وابن المبارك في الزهد (٥٥٩) ، والترمذي في الزهد ، باب : في التوكل على الله ، ح : ٢٣٤٤ (٤/ ٥٧٣) ، وقال : حسن صحيح لانعرفه إلا من هذا الوجه ، وابن ماجه في الزهد ، باب : التوكل واليقين ، ح : ٤١٦٤ (٢/ ١٣٩٤) ، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣١٨) وصححه ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب ، ح : ١١٨٢ ، ١١٨٣ (٢/ ٦٦) ، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٦٩) وغيرهم .

(٦) جامع العلوم والحكم ، ص(٤٠٩).

١٣ - يطرد داء العجب والكبر[١] :

إن من أعظم الأمراض الفتاكة التي تصيب القلوب ، فتحبط أعمالها ، وتفسد نياتها ، وتورثها القسوة والوحشة ، هما : الرياء والعجب .

والرياء : من باب الإشراك بالخلق . والعجب : من باب الإشراك بالنفس ، وهذا حال المتكبر[٢] . وقد ورد ذمهما في نصوص كثيرة ، منها : قوله ﷺ في حديث حارثة بن وهب : « **ألا أخبركم بأهل النار : كل عُتُلّ[٣] جواظ[٤] مستكبر** »[٥] .

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « **لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر** »[٦] .

وفي الحديث : « **ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه** »[٧] وغيرها .

قال سعيد بن جبير : « إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار ، وإن

---

(١) ذكر العلامة السفاريني فرقاً دقيقاً بين العجب والكبر . انظره في غذاء الألباب (٢/ ٢٢٢) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٧٧) .

(٣) العتل : الشديد الجافي ، والفظ الغليظ من الناس . النهاية (٣/ ١٨٠) .

(٤) الجواظ : الجموع المنوع . وقيل : كثير اللحم المُخْتال في مشيته . وقيل : القصير البطين . النهاية (١/ ٤١٦) .

(٥) رواه البخاري في تفسير سورة القلم ، ح: ٤٩١٨ (٨/ ٥٣٠) ، ومسلم في الجنة ، باب : النار يدخلها الجبارون ، ح: ٢٨٥٣ (٤/ ٢١٩٠) ، والترمذي في : جهنم ، باب (١٣) ، وابن ماجه في الزهد (٤) ، وأحمد في المسند (٢/ ١٦٩ ، ٢١٤) ، (٤/ ١٧٥ ، ٣٠٦) .

(٦) رواه مسلم في الإيمان ، باب : تحريم الكبر وبيانه ، ح: ٩١ (١/ ٩٣) ، والترمذي في البر والصلة ، باب : ما جاء في الكبر ، ح: ١٩٩٨ ، ١٩٩٩ (٤/ ٣٦٠-٣٦١) .

(٧) قال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٦٢) : « رواه البزار والبيهقي وغيرهما » وحسنه لطرقه . وحسنه الألباني في الصحيحة ، ح: ١٨٠٢ .

العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة ، وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينيه ويعجب بها ، ويعمل السيئة فتكون نصب عينيه ، فيستغفر الله ويتوب إليه منها»[١] .

وعلاج هذين المرضين الخبيثين هو في تحقيق العبودية والتوكل .

قال شيخ الإسلام : « فالمرائي لا يحقق قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، والمعجب لا يحقق ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، فمن حقق قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خرج عن الرياء ، ومن حقق قوله : ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خرج من الإعجاب»[٢] .

ولهذا قال ابن القيم رحمه الله : « إن القلب يعرض له مرضان عظيمان إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولابد ؛ وهما : الرياء والكبر ، فدواء الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ودواء الكبر بـ ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»[٣] .

١٤ ـ يطرد التطير والأمراض القلبية :

والأصل في ذلك قول ابن مسعود رضي الله عنه : «وما منا إلا ، ولكن الله يذهبه بالتوكل» بعد أن ذكر حديث النبي ﷺ : « **الطيرة شرك** »[٤]، وسيأتي

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٥ ، ٢٩٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٧٧).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٥٤).

(٤) رواه أحمد (١/ ٣٨٩ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠) ، وأبو داود في الطيرة ، ح: ٣٨٩٢ (عون (١٠/ ٤٠٥) والترمذي في البر ، باب: ما جاء في الطيرة ، ح: ١٦١٤ (٤/ ١٦٠) ، وقال: حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن كهيل ، ورواه ابن ماجه في الطب . باب: من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة ، ح:٣٥٣٨ (٢/ ١١٧٠) ، وابن حبان في صحيحه موارد ، ح: ١٤٢٧ ، ص(٣٤٥) والحاكم في المستدرك (١/ ١٧ ، ١٨) ، وصححه ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا .

=

تفصيل ذلك عند الحديث عن قوادح التوكل ، ومنها : الطيرة .

١٥ - يورث الرضا بالقضاء :

قبل الحديث عن ثمرة التوكل في الرضا بما قضاه الله تعالى وقدره ، يحسن الإشارة إلى حكم الرضا بالقضاء ، هل هو واجب أم لا ؟ فقالت طائفة بوجوب الرضا بما قدره الله تعالى « فأوجبت قبوله من غير تفصيل ، وظنوا أن كل ما كان مخلوقاً للرب تعالى ، فهو مقضي مرضي له ، ينبغي له الرضا به ، ثم انقسموا على فرقتين :

فقالت فرقة : إذا كان القضاء والرضا متلازمين ، فمعلوم أنا مأمورون ببعض المعاصي والكفر والظلم ، فلا تكون مقضية مقدرة»[1] وهؤلاء هم القدرية النفاة ، وتبعهم في ذلك المعتزلة .

« وفرقة قالت : قد دلَّ العقل والشرع على أنها واقعة بقضاء الله وقدره ، فنحن نرضى بها»[2] ، وهم القدرية المثبتة والجبرية . وتبعهم في ذلك كثير من الصوفية وبعض المتكلمين .

« والطائفتان منحرفتان جائرتان عن قصد السبيل ، فأولئك أخرجوها عن قضاء الرب وقدره ، وهؤلاء رضوا بها ولم يسخطوها . هؤلاء خالفوا الرب تعالى في رضاه وسخطه ، وخرجوا عن شرعه ودينه ، وأولئك أنكروا

= وقوله : « وما منا إلا . . . » مدرجة من كلام ابن مسعود ، كما نص على ذلك سليمان بن حرب شيخ البخاري كما في الترمذي (٤/ ١٦٠) ، وابن حبان كما في الموارد ، ص(٣٤٥) ، وابن القيم في مفتاح دار السعادة ص (٥٨٨) ، وغيرهم . انظر : النهج السديد ، ح : ٣٢٧ ، ص(١٦٢) .

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٨٩) .

(٢) المصدر السابق (٢/ ١٨٩) .

تعلق قضائه وقدره بها»[١] .

ولذلك كان منشأ الضلال عند الفرق التسوية بين القضاء والرضا ، فسوى بينهما الجبرية والقدرية ، ثم اختلفوا على ما ذكر أعلاه.

أما الطائفة الثانية ، فقالت : إنه لم يقم دليل من الكتاب والسنة ولا الإجماع على جواز الرضا بكل قضاء ، فضلاً عن وجوبه واستحبابه ، فأين أمر الله عباده أو رسوله أن يرضوا بكل ما قضاه الله وقدره؟

قال ابن القيم : « وهذه طريقة كثير من أصحابنا وغيرهم ،به أجاب القاضي أبو يعلى ، وابن الباقلاني»[٢] .

والراجح من ذلك التفصيل ؛ لأن الرضا بالقضاء قد يكون واجباً ، وقد يكون مستحباً ،أو مباحاً يستوي فيه الطرفان ، أو محرماً يعاقب عليه ، وذلك على النحو التالي :

أ- فالرضا بالقضاء الديني الشرعي واجب ، وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان ، فيجب أن يكون العبد راضياً بلا حرج ، ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض ، قال الله تعالى : ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا** ﴾[٤] .

---

(١) المصدر السابق (٢/ ١٨٩) .

(٢) المصدر السابق (٢/ ١٩٠) .

(٣) سورة النساء ، آية : ٦٥ .

(٤) سورة الأحزاب ، آية : ٣٦ .

ب ـ والرضا بالقضاء الكوني القدري الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه من الصحة والغنى والعافية واللذة ، فهذا أمر لازم بمقتضى الطبيعة ؛ لأنه ملائم للعبد محبوب له ، فليس في الرضا به عبودية ؛ بل العبودية في مقابلته بالشكر والاعتراف بالمنة ، فالنعم يجب شكرها ، ومن تمام شكرها الرضا بها .

جـ ـ والرضا بالقضاء الكوني القدري الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره ، فهذا مستحب ، وهو من مقامات أهل الإيمان . وفي وجوبه قولان ، وهذا كالغنى والفقر وأذى الخلق له ، والحر والبرد والآلام ونحو ذلك .

قال تعالى : ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[١] . قال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»[٢] .

د ـ والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره ـ مما يكرهه الله ويسخطه وينهى عنه ـ كأنواع الظلم والفسوق والعصيان فهذا حرام الرضا به ويعاقب عليه ؛ لأنه مخالف لأمر الله تعالى[٣] .

---

(١) سورة التغابن ، آية : ١١ .

(٢) رواه ابن جرير الطبري (التفسير ٢٨/ ١٢٣) ، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٨/ ١٦٣).

(٣) انظر هذا التفصيل بتوسع في مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٠) ، ومدارج السالكين (٢/ ١٨٨ ، ١٩٣) ، وانظر شفاء العليل لابن القيم أيضاً ص(٥٨٠ ـ ٥٨١). وانظر : غذاء الألباب ، شرح منظومة الآداب للسفاريني (٢/ ٥٣٢).

ولا شك أن الرضا بالقضاء المحمود المعني هنا، والذي هو ثمرة من ثمار التوكل على الله ، هو النوع الثالث ؛ لأن الأول شرط في دخول الإنسان الإسلام ، فلا يكون مسلماً إلا إذا رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً .

أما الثاني : فهو من مقتضيات الطبيعة البشرية لا يلحق صاحبه مدح ولا ذم .

أما الرابع : فهو محرم لا يجوز الرضا به بحال .

ولذلك قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله : « اعلم أن ثمرة التوكل ؛ الرضا بالقضاء ، فمن وكل أموره إلى الله ، ورضي بما يقضيه له ، فقد حقق التوكل»[١] .

وعلى كل حال ؛ فقضاء الرب سبحانه في عبده دائر بين العدل والمصلحة والحكمة والرحمة ، لا يخرج عن ذلك البتة[٢] ، وهذا القضاء خير للمؤمن في كل حال ، كما قال ﷺ : « **عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ...**»[٣] .

قال العلامة ابن القيم : « فسألت شيخنا : هل يدخل في ذلك قضاء الذنب ؟ ، فقال : نعم بشرطه . فأجمل في لفظه (بشرطه) ما يترتب على الذنب من الآثار المحبوبة لله من التوبة والانكسار والندم والخضوع والذل والبكاء وغير ذلك»[٤] .

(١) جامع العلوم والحكم ، ص(٤١٤) .

(٢) الفوائد ص (٨٦) .

(٣) رواه مسلم في الزهد . باب : المؤمن أمره كله خير ، ح: ٢٩٩٩ (٤/ ٢٢٩٥) ، وأحمد في المسند (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣) و(٦/ ١٥).

(٤) الفوائد ، ص (٨٧).

١٦ـ سبب في دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب :

والأصل في هذا حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه البخاري ـ واللفظ له ـ ومسلم ـ وفيه قصة ـ وغيرهما ، عن عمران بن حصين رضي الله عنهما ، قال : « **لا رقية إلا من عين أو حُمة** » .

قال الراوي : فذكرته لسعيد بن جبير ، فقال : حدثنا ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : « **عرضت عليّ الأمم ، فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط ، والنبي وليس معه أحد ، حتى رفع لي سواد عظيم ، قلت : ما هذا ؟ أمتي هذه ؟! ، قيل : بل هذا موسى وقومه . قيل : انظر في الأفق ؛ فإذا سواد يملأ الأفق . ثم قيل لي : انظر هاهنا وهاهنا ـ في آفاق السماء ـ فإذا سواد قد ملأ الأفق ، قيل : هذه أمتك ، ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفاً بغير حساب** » .

ثم دخل ولم يبين لهم ، فأفاض القوم ، وقالوا : نحن الذين آمنوا بالله ، واتبعنا رسوله ، فنحن هم ، ثم أولادنا الذين ولدوا في الإسلام ، فإنا ولدنا في الجاهلية ، فبلغ النبي ، فخرج فقال : « **هم الذين لا يسترقون ، ولا يتطيرون ، ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون** » . فقال عكاشة بن محصن : أمنهم أنا يا رسول الله ؟ قال : « **نعم** » ، فقام آخر : أمنهم أنا ؟ قال : « **سبقك بها عكاشة** »[1] .

(١) رواه البخاري في الطب . باب : من اكتوى أو كوى غيره ، وفضل من لم يكتو ، ح : ٥٧٠٥ (الفتح ١٠/ ١٦٤) ، وفي الطب . باب : من لم يرق ، ح : ٥٧٥٢ (الفتح ١٠/ ٢٢٢) ، وفي الرقاق ، باب : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ، ح : ٦٤٧٢ (الفتح ١١/ ٤١٣) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب : الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ح ٢٢٠ (١/ ١٩٩) ، والترمذي في القيامة ، باب : (١٦) ، ح : ٢٤٤٦ (٤/ ٦٣١) ، وأحمد في المسند (١/ ٢٧١ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٥٤) ، (٤/ ٤٣٦ ، ٤٤١ ، ٤٤٣) وغيرهم .

قال الحافظ ابن حجر : « اتفق على ذكر هذه الأربع معظم الروايات في حديث ابن عباس، وإن كان عند البعض تقديم وتأخير ، وكذا في حديث عمران بن حصين عند مسلم. . . »[١]، وقال: قوله: « **وعلى ربهم يتوكلون**» ؛ يحتمل أن تكون هذه الجملة مفسرة لما تقدم من ترك الاسترقاء والاكتواء والطيرة ، ويحتمل أن تكون من العام بعد الخاص ؛ لأن صفة كل واحدة منها صفة خاصة من التوكل ، وهو أعم من ذلك»[٢] .

فجعل النبي ﷺ لهؤلاء السبعين ألفاً ميزة وخاصية دون سائر المسلمين، وهي دخولهم الجنة بلا حساب ولا عذاب ، وعلل ذلك بأنه من أجل كمال تحقيقهم التوكل ؛ إذْ تركوا الاسترقاء والتطير والاكتواء ، فنالوا بهذا التحقيق هذه الميزة .

وسيأتي تفصيل هذه المسائل فيما بعد إن شاء الله تعالى .

* * *

(١) فتح الباري (١١/ ٤١٦) .
(٢) فتح الباري (١١/ ٤١٧).

الفصل الخامس

أقسام التوكل

الفصل الخامس
أقسام التوكل

التوكل ينقسم بحسب المتوكل عليه إلى قسمين : توكل على الله تعالى ، وتوكل على غيره ، وتحت كل قسم من هذين القسمين ، عدة أنواع :

أولاً : التوكل على الله تعالى :

وهذا ينقسم بحسب موضوعه إلى أربعة أقسام :

١ ـ توكل على الله تعالى في استقامة نفسه وهدايتها ، وتجريد التوحيد ، والالتزام بدين الله تعالى ظاهراً وباطناً ، دون أن يحاول التأثير في الآخرين ، بمعنى التوكل على الله في إصلاح نفسه دون النظر إلى غيره .

٢ ـ توكل على الله تعالى في استقامة النفس كما تقدم ، بالإضافة إلى التوكل عليه تعالى في إقامة دين الله في الأرض ، ودفع الفساد ، وقمع البدع ، وجهاد الكفار والمنافقين ، والاهتمام بمصالح المسلمين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتأثير في الآخرين حتى يعبد الله وحده . وهذا توكل الأنبياء وتوكل ورثتهم من بعدهم من العلماء ، وهذا أعظم أنواع التوكل وأنفعها[١] .

قال العلامة ابن سعدي رحمه الله : « واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب . وهو التوكل على الله في

---

(١) انظر : معالم التوحيد ، ص(٨٠) .

إقامة دينه ونصره ، وهداية عبيده ، وإزالة الضلال عنهم ، وهذا أكمل ما يكون من التوكل»[١] .

فأفضل التوكل : « التوكل في الواجب؛ أعني واجب الحق ، وواجب الخلق ، وواجب النفس، وأوسعه وأنفعه : التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية ، أو دفع مفسدة دينية ، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله ، ودفع فساد المفسدين ، وهذا توكل ورثتهم»[٢] .

٣ ـ توكل على الله في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية ، أو دفع مكروهاته ، ومصائبه الدنيوية، كمن يتوكل في حصول رزق أو عافية أو زوجة أو ولد أو نصر على عدو ونحو ذلك ، فهذا تحصل له الكفاية فيما توكل عليه فيه في الدنيا دون الآخرة ، إلا إذا نوى الاستعانة بذلك على طاعة الله عز وجل .

قال العلامة ابن القيم : « وبين النوعين ـ يعني الثاني والثالث ـ من الفضل ما لا يحصيه إلا الله ، فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله، كفاه الله النوع الثالث تمام الكفاية ، ومتى توكل عليه في النوع الثالث دون الثاني كفاه أيضاً ، لكن لا يكون له عاقبة المتوكل عليه فيما يحبه ويرضاه»[٣] .

٤ ـ توكل على الله في جلب محرم أو دفع مأمور به .

فهناك من يتوكل على الله في حصول الإثم والفواحش، « فإن أصحاب

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١١).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١١٤).

(٣) الفوائد ، ص(٧١).

هذه المطالب لا ينالونها غالباً إلا باستعانتهم بالله ، وتوكلهم عليه ؛ بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات ، ولهذا يلقون أنفسم في المتالف والمهالك معتمدين على الله أن يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم»[١] .

فهؤلاء يحصل مطلوبهم غالباً ، لكنهم آثمون مجزيون عليه في الآخرة. وهذا النوع ظاهر فيمن كانت معاصيهم ناتجة عن تأويل فاسد أو شبهة مضلة ويدخل فيه «حال كثير من أهل التوجهات الفاسدة أصحاب الكشوفات والتصرفات المخالفة لأمر الله ورسوله ؛ فإنهم يُعانُوْن على هذه الأمور ، وكثير منهم يستعين الله عليها ، لكن لما لم تكن موافقة لأمر الله ورسوله حصل لهم نصيب من العاجلة ، وكانت عاقبتهم عاقبة سيئة»[٢] نعوذ بالله من الخذلان .

فهذه أقسام التوكل على الله تعالى بحسب موضوعه ، ولا شك أن أفضلها وأتمها وأهمها هو النوع الثاني ، ويدخل فيه النوع الأول تضمناً ، ثم يليه الثالث ، وأشرها آخرها والعياذ بالله .

ثم إن كثيراً من المتوكلين مغبون في توكله ، وإن كان قد توكل على الله حق التوكل ، « كمن صرف توكله إلى حالة جزئية استفرغ فيها قوة توكله ، ويمكنه فعلها بأيسر شيء ، وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم ، ونصرة الدين ، والتأثير في العالم خيراً ، فهذا توكل العاجز القاصر الهمة ، كما يصرف بعضهم همته ، وتوكله ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء ، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف أو نصف درهم ، ويدع صرفه إلى

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٣ ـ ١١٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٧٦) ، وانظر تفصيل ذلك في (١٣/ ٣٢٤) فما بعدها .

نصرة الدين ، وقمع المبتدعين ، وزيادة الإيمان ومصالح المسلمين ، والله أعلم»[١] ، فالناس متفاوتون ومغبونون حتى فيما يتوكلون عليه فيه من مصالح الدنيا على حسب هممهم ومقاصدهم « فمن متوكل على الله في حصول الملك ، ومن متوكل عليه في حصول رغيف»[٢] .

وإذا كان الأمر كذلك ؛ فالواجب على العاقل ألا يشغل نفسه وقلبه إلا بالأكمل والأفضل ؛ وهو التوكل على الله تعالى في تحصيل ما يحبه ويرضاه، كما قال الشاعر :

وإذا علمت بأنه[٣] متفاضل فاشغل فؤادك بالذي هو أفضل

ثانياً : التوكل على غير الله تعالى :

وهذا النوع ينقسم إلى قسمين :

١ ـ التوكل الشركي : وهو على نوعين أيضاً :

أ ـ التوكل على غير الله تعالى في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله عزوجل «كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم، من النصر والحفظ والرزق والشفاعة ؛ فهذا شرك أكبر ؛ فإن هذه الأمور ونحوها لا يقدر عليها إلا الله تبارك وتعالى »[٤] .

ويسمى هذا النوع ؛ توكل السرّ « لأنه لا يقع إلا ممن يعتقد أن لهذا الميت تصرفاً سرياً في الكون ، ولا فرق بين أن يكون نبياً أو ولياً أو طاغوتاً عدواً لله

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٥ ـ ١٢٦).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ١١٣).
(٣) والشاعر هنا يقصد العلم لا التوكل.
(٤) تيسير العزيز الحميد ص (٤٩٧ ـ ٤٩٨).

تعالى»[١] .

ب ـ التوكل على غير الله في الأمور التي يقدر عليها ـ فيما يظن ـ المتوكل عليه . وهذا شرك أصغر[٢] .

وذلك كـ « التوكل في الأسباب الظاهرة العادية ؛ كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما جعله الله بيده من الرزق ، أو دفع الأذى ، ونحو ذلك ، فهذا شرك خفي »[٣] . ولذلك قيل : الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ؛ لقوة تعلق القلب به والاعتماد عليه .

وذلك « لأن القلب لا يتوكل إلا على من يرجوه ، فمن رجا قوته أو عمله أو علمه أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله ، غير ناظر إلى الله ؛ كان فيه نوع توكل على ذلك السبب ، وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فإنه شرك»[٤] ، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾[٥] .

قال شقيق البلخي : « لكل واحد مقام ؛ فمتوكل على ماله ، ومتوكل على نفسه ، ومتوكل على لسانه ، ومتوكل على سيفه ، ومتوكل على سلطنته ، ومتوكل على الله عز وجل .

فأما المتوكل على الله عز وجل ؛ فقد وجد الاسترواح ، نَوَّه الله به ورفع

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين (٦/ ٥٤) .

(٢) تيسير العزيز الحميد ، ص(٤٠) .

(٣) تيسير العزيز الحميد ، ص(٤٩٨) .

(٤) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (١٠/ ٢٥٧) .

(٥) سورة الحج ، آية : ٣١ .

قـدره ، وقـال : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾[١] ، أما من كان مستروحاً إلى غيره يوشك أن ينقطع به فيشقى»[٢] .

أما لو اتخذه باعتبار أنه سبب ، وأن الله تعالى هو الذي قدر ذلك على يده ، فإن ذلك لا بأس به ، إذا كان للمتوكَّل عليه أثر صحيح في حصوله .

٢ ـ الوكالة الجائزة :

وهي أن يوكل الإنسان في فعل مقدور عليه ؛ فيحصل للموكِّل بذلك بعض مطلوبه .

والوكَالة هنا ـ هي بفتح الواو ، وقد تكسر ـ بمعنى : التفويض والحفظ . تقول : وكّلت فلاناً؛ إذا استحفظته ، ووكَلْت الأمر إليه ـ بالتخفيف ـ إذا فوضته إليه .

وهي في الشرع : (إقامة الشخص غيره مقام نفسه مطلقاً أو مقيداً)[٣] .

والوكالة بهذا المعنى جائزة بالكتاب والسنة والإجماع[٤] ، قال الله تعالى على لسان يعقوب ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ مخاطباً بنيه : ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[٥]،ووكل رسول الله ﷺ عمالاً وحفاظاً.

قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه : وكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة

---

(١) سورة الفرقان ، آية : ٥٨ .

(٢) رواه البيهقي في الشعب ، ح:١٢٩٧ (٢/ ١٠٥) ، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٦١) .

(٣) فتح الباري (٤/ ٥٥٩) ، (٥/ ٢٠١) .

(٤) انظر : المغني والشرح الكبير (٥/ ٢١٠) .

(٥) سورة يوسف ، آية : ٨٧ .

رمضان . . . الحديث[١] ، ووكل ﷺ في إثبات الحدود وإقامتها، كما في حديث أنيس، ووكل علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هديه في حجة الوداع بأن يتصدق بجلودها وجلالها ، وأن ينحر ما بقي من المائة بعد أن نحر بيده ﷺ ثلاثاً وستين .

وتفصيل أحكام الوكالة في كتب الفقه[٢] .

لكن « ليس له أن يتوكل عليه ، وإن وكّله ؛ بل يعتمد على الله تعالى في تيسير ما وكّله فيه »[٣] ؛ « لأن المخلوق لا يستقل بجميع حاجات العبد ، ولا يستطيع تحصيل مطالبه كلها ، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً للذي وكّله إلا بمشيئة الله عز وجل وقدرته »[٤] .

* * *

(١) رواه البخاري في الوكالة ، باب : إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً ، فأجازه الموكل، فهو جائز ، ح: ٢٣١١ ، الفتح (٤/ ٥٦٨).

(٢) باب : «الوكالة» .

(٣) رسالة تحقيق التوكل ، ص (٨٩) ضمن جامع الرسائل لشيخ الإسلام .

(٤) نفس المصدر ص (٨٩).

الفصل السادس

الأسباب وعلاقتها بالتوكل

الفصل السادس
الأسباب وعلاقتها بالتوكل

تعريفها:

السبب لغة : الحبل ، وما يتوصل به إلى غيره ،واعتلاق قرابة . والجمع أسباب[١] ، قال الله تعالى : ﴿ ... فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ ﴾[٢] . أي فليصعدوا إلى السماء[٣] . قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم : يعني طرق السماء[٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾[٥] ؛ ومعناه أن الله تعالى آتاه من كل شيء معرفة وذريعة يتوصل بها ، فأتبع واحداً من تلك الأسباب[٦] .

وقال أبو عبيدة : « هو الحبل الذي يتوصل به إلى الماء، ثم استعير لكل

---

(١) الكليات : معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء الكفوي (ت١٠٩٤ هـ) ص(٥٠٣) ، وانظر المفردات للراغب ص(٢٢٠) ، ولسان العرب مادة (س ب ب) (١/ ٤٥٨) .

(٢) سورة ص ، آية : ١٠ .

(٣) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (١٢/ ٤٢٦) .

(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٨)، وانظر زاد المسير (١/ ٣٢١) .

(٥) سورة الكهف ، الآيتان : ٨٤، ٨٥.

(٦) المفردات للراغب ص(٢٢٠) .

ما يتوصل به إلى شيء ، كقوله تعالى : ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ ؛ أي الوُصل والمودات »[١] .

وقال القرطبي : « أصل السبب : الحبل يشد بالشيء فيجذبه ، ثم جعل كل ما جر شيئاً سبباً »[٢] .

ومن معانيه : القرابة بالزواج غير النسب ، كما في الحديث : « **كل سبب ونسب منقطع غير سببي ونسبي** »[٣] فالنسب بالولادة، والسبب بالزواج[٤] .

وفي الشريعة : « عبارة عما يكون طريقاً للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه »[٥] ، وقيل : « ما يكون طريقاً إلى الشيء من غير أن يضاف إليه وجود ، ولا وجود»[٦] .

أو هو : «ما يلزم من وجوده الوجود ، ويلزم من عدمه العدم ، لذاته»[٧] .

فالأول : احتراز من الشرط ، فإنه لايلزم من وجوده الوجود .

الثاني : احتراز من المانع ؛ لأنه لا يلزم من عدمه وجود ولا عدم .

والثالث : احتراز مما لو قارن السبب فقدان الشرط ووجود المانع »[٨] .

والمراد في هذا الفصل : هو ما كان طريقاً إلى الشيء يتوصل به إليه ،

---

(١) لسان العرب (١/ ٤٥٨) ، وانظر النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣٢٩) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٠٦) .

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٤٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٦٤) و(٧/ ١١٤) ، والطبراني في الكبير عن عمر بن الخطاب . ورواه الطبراني عن ابن عباس والمسور بن مخرمة رضي الله عنهم ، وإسناده صحيح . انظر صحيح الجامع الصغير ح:٤٤٠٣(٤/ ١٧٣).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣٢٩) .

(٥) الكليات ص (٥٠٣) . وانظر التعريفات للجرجاني ص(١٣١) .

(٦) الكليات ص (٥٠٣) .

(٧) لوامع الأنوار البهية (١/ ٣٩) .

(٨) نفس المصدر (١/ ٣٩) .

وليس المراد السبب بمعناه الخاص في اصطلاح الأصوليين الذي هو أحد أقسام الحكم الوضعي الخمسة .

وسنعرض فيما يلي إلى مواقف الناس من الأسباب، ووجهة نظر كل طائفة، مع التركيز على مفهوم الصوفية للتوكل وشبهاتهم وتفنيدها ، ثم بيان الحق في المسألة الذي دلت عليه الدلائل الشرعية والعقلية ، والفطرية ، وعليه عمل سادات المتوكلين من الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من الصحابة والتابعين وسائر الأئمة المعتبرين .

ثم نتبعه ببعض المسائل المتعلقة بالموضوع إن شاء الله تعالى .

مواقف الناس من الأسباب:

تختلف مواقف الناس من الأسباب إلى أربعة أقسام .

وهذه المواقف دائرة بين الإفراط والتفريط والوسط ، كما هو سائر جميع المسائل التي يقع فيها الخلاف ، فمن معتمد على الأسباب بالكلية ، ومن معرض عنها ـ بزعمه ـ بالكلية ، ومن ناف لتأثيرها في المسبب ، ومن متوسط بين ذلك . وهذه الأقسام على ما يلي :

القول الأول : **الالتفات إلى الأسباب بالكلية واعتماد القلب والجوارح عليها من غير نظر إلى مسببها :**

وهذا هو الذي عناه العلماء بأنه (شرك في التوحيد) ؛ لأن الأسباب على رأيهم هي المسببة بذاتها ، وهي الموجدة بنفسها ، وهي الضارة والنافعة استقلالاً .

وهذه هي نظرة الماديين والعقلانيين قديماً وحديثاً ، ولذلك وقعوا في

الشرك ؛ لأنهم أثبتوا موجداً مع الله تعالى ، وخالفوا الشرع والحس ، فقد دل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على أنه لا خالق إلا الله .

كما أننا نعلم بالشاهد المحسوس أن الأسباب قد تتخلف عن مسبباتها بإذن الله ، كما في تخلف إحراق النار لإبراهيم الخليل - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - حين ألقي فيها . فقال الله تعالى : ﴿**يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**﴾[(١)] ، فكانت برداً وسلاماً عليه ، ولم يحترق بها[(٢)] ، فلم يتخلف المسبَّب مع وجود السبب وحسب ، بل كان الأمر على عكس ذلك تماماً ، فكان مقابل الإحراق : البْرد ، ومقابل الإيذاء : السلام .

والأمثلة على هذا أكثر من أن تحصر ، والمتأمل في الواقع يجزم ببطلان هذا القول . والله أعلم .

القول الثاني : الإعراض عن الأسباب بالكلية :

وهذا هو مفهوم غالب الصوفية للتوكل ، فهم لا يرون تحقيق التوكل إلا بالإعراض التام عن الأسباب ، لأن الالتفات إليها - في زعمهم - مناف لحقيقة التوكل .

فهم يفهمون التوكل فهماً سلبياً منافياً للعمل ، والكسب ، واتخاذ سائر الأسباب ، ويرون أن القيام بشيء من ذلك قدح في التوكل .

وقد جاءت تفسيراتهم للتوكل - وما نقل عنهم فيه - بعبارات غامضة ، لا يفهم منها إلا هذا المفهوم السلبي .

---

(١) سورة الأنبياء ، آية : ٦٩ .

(٢) انظر : تقريب التدمرية ص(١١) .

قال ذو النون المصري : «التوكل خلع الأرباب ، وقطع الأسباب»[١] .

وقال سهل بن عبد الله التستري : « التوكل : أن يكون العبد بين يدي الله عز وجل كالميت بين يدي الغاسل ، يقلبه كيف يشاء ، لا يكون له حركة ولا تدبير »[٢] .

ويقول ابن عطاء : «التوكل : ألا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها ، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها»[٣] .

لذلك فهم لا يرون تحقيق التوكل إلا في ترك الأسباب بالكلية ، وإن كان قد يعجز الإنسان ـ غالباً ـ في الجانب التطبيقي ، فيضطر إلى اتخاذ شيء من الأسباب . إلا أنهم يعتبرون ذلك خروجاً من عداد المتصوفة المتوكلين .

وهذا المفهوم السلبي المنحرف للتوكل قد أدى بهم إلى انحرافات أخرى خطيرة ، فتركوا التكسب ورأوا أنه ينافي التوكل ، ولذلك قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سالم البصرى ـ تلميد التستري ـ : « من أطاق التوكل ؛ فالكسب غير مباح له . . . » قال : « ومن ضعف عن حال التوكل . . . أبيح

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ، ح : ١٢٩١ ، والغنية للجيلاني (٢/ ٦٠٨) ، ومدارج السالكين (٢/ ١١٥).

(٢) الرسالة القشيرية ص (١٢٩) ، وانظر شعب الإيمان ، ح : ١٣١١ (٢/ ١٠٩) والغنية (٢/ ٦٠٨) ، ومدارج السالكين (٢/ ١١٥).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١١٥) .

له طلب المعاش من الكسب»[١] .

ويروون عن أبي تراب النخشبي أنه نظر إلى صوفي يمد يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام ، فقال له : « لا يصلح لك التصوف ؛ الزم السوق »[٢] .

وقال أبو علي الروذباري : « إذا قال الفقير بعد خمسة أيام : أنا جائع ، فألزموه السوق ، ومروه بالكسب»[٣] .

قال ابن الجوزي : « لو قال رجل للصوفية : من أين أطعم عيالي ؟! لقالوا : قد أشركت ، ولو سئل عمن يخرج إلى التجارة لقالوا : ليس بمتوكل ولا موقن . . . »[٤] .

وقد جرهم هذا المفهوم إلى ترك الاحتراز ،وعدم الاحتياط واعتبروه منافياً للتوكل؛ يقول أبو سليمان الداراني : « لو توكلنا على الله ـ تعالى ـ ما بنينا الحائط ، ولا جعلنا لباب الدار غلقاً مخافة اللصوص»[٥] .

قال الإمام أبو جعفر الطبري عنهم : « قالوا : لا يستحق اسم التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالى من سبع أو عدو ، حتى يترك السعي في طلب الرزق ، ثقة بضمان الله تعالى له رزقه . . . » .

قال النووي عن هذا القول : « هو مذهب بعض المتصوفة وأصحاب علم

---

(١) طبقات الصوفية للسلمي (٤١٤ ـ ٤١٥) .

(٢) الرسالة القشيرية ص (١٣٤) .

(٣) نفس المصدر ص (١٣٤) .

(٤) تلبيس إبليس ص (٢٨٢) .

(٥) حلية الأولياء (٩/ ٢٥٦) ، وتلبيس إبليس ص(٢٧٨) .

القلوب والإشارات»[١] .

كما جرهم إلى الخروج إلى البادية للسياحة ، وإلى مكة للحج ، بلا زاد ولا راحلة ، ولا يدفعون عن أنفسهم ما يتعرضون له من آفات في الطريق بدعوى أن ذلك ينافي التوكل . ولذلك ورد في سبب نزول قول الله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾[٢] ، ما رواه البخاري - وغيره - بإسناده إلى ابن عباس ، قال : « كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ، ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا مكة سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾[٣] .

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : «وفي هذا أن الله تعالى أمر زوّار بيته بالتزود ؛ فقال : ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ يعني - والله تعالى أعلم - فإن خير الزاد ما عاد على صاحبه بالتقوى»[٤] .

وقال الحليمي رحمه الله تعالى : « و هو ألا يتوكل على أزواد الناس فيؤذيهم ويضيق عليهم ، ومن دخل البادية بلا زاد متوكلاً ؛ فإنما يرجو أن

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم (٣/ ٩١).

(٢) سورة البقرة، آية : ١٩٧ .

(٣) رواه البخاري في الحج ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ ، ح : ١٥٢٣ (الفتح ٣/ ٤٤٩) ، وابن جرير الطبري في التفسير (٢/ ٢٧٨ فما بعدها) ، والخلال في الحث على التجارة والصناعة والعمل ، ح : ١٠٣ ، ص(١٤٧) ، والبيهقي في السنن (٤/ ٣٣٢) ، وفي الشعب ح ١١٩٨ (٢/ ٧٥)، وانظر أسباب النزول للواحدي ، ص٤١ ، ولباب النقول للسيوطي ، ص(١٤٧).

(٤) شعب الإيمان (٢/ ٧٥).

يقيض الله تعالى من يواسيه من زاده ، وهذا عين ما أشارت الآية إلى المنع منه . فبان ألا معنى لاستحبابه، وإنما المستحب هو التزود أو الجلوس إذا لم يكن زاد حتى يكون »[١] .

وقد أنكر الإمام أحمد على من فعل هذا ، وبيَّن أنه متوكل على الناس لا على الله ، فقد قال لرجل أراد الخروج إلى مكة من غير زاد ، حينما قال له : يا أبا عبد الله أنا متوكل ، قال : فتدخل البادية وحدك أو مع الناس ؟ قال : لا ؛ مع الناس ، قال : كذبت ، لست بمتوكل ، فادخل وحدك ، وإلا فأنت متوكل على جُرُب الناس»[٢] .

وسئل سفيان بن عيينة رحمه عن قوم يلبسون الشعر ويحجون ، ولا يتزودون ، ويزعمون أن من حمل الزاد فليس بمؤمن، فقال : « كذبوا ، هؤلاء أعداء السنة ، لا تجالسوهم ، ولا تحدثوهم»[٣] .

وهذا القول ـ أعني : الإعراض عن الأسباب بالكلية ـ هو الذي حكم عليه العلماء بأنه « قدح في الشرع » ؛ لأن الله تعالى أمرنا بالأسباب الشرعية ـ كما سيأتي بيانه ـ ورتب عليها الثواب والعقاب ، على مقتضى علمه وحكمته تعالى ، فإذا تركنا ما أمرنا الله تعالى به وأعرضنا عنه ؛ فقد وقعنا في المعصية، ومخالفة شرع الله تعالى .

وهذا المفهوم المنحرف للتوكل ليس عند كل الصوفية ؛ فهذا سهل بن

---

(١) المنهاج (٢/ ٧) ، وانظر الشعب (٢/ ٧٥).
(٢) الحث على التجارة ص(١٤٢).
(٣) كتاب الثقات لابن حبان (٨/ ٢٦٩).

عبد الله التستري من أئمة الصوفية الأوائل ، يقول : « من قال : إن التوكل يكون بترك السبب ، فقد طعن في سنة رسول الله ﷺ ، لأن الله عز وجل يقول : ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً** ﴾[1] ، فالغنيمة اكتساب .

وقد قال الله تعالى : ﴿ **فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ** ﴾[2]، فهذا عمل .

وينسب إلى النبي ﷺ أنه قال : « **إن الله يحب العبد المحترف** »[3] . وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقرضون على السرية »[4] .

ويقول : « من طعن في الاكتساب ، فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان »[5] .

ويقول أبو القاسم القشيري : « اعلم أن التوكل محله القلب ، وأما الحركة بالظاهر ، فلا تنافي التوكل بالقلب ، بعدما تحقق العبد أن الثقة من قبل الله تعالى ، فإن تعسر شيء فبتقديره ، وإن تيسر فبتيسيره »[6] .

---

(١) سورة الأنفال ، آية : ٦٩ . والأثر رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٠٣) .

(٢) سورة الأنفال ، آية : ١٢ .

(٣) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير ، ح : ١٣٢٠٠ ، وابن عدي في الكامل (١/ ٣٦٩) والقضاعي في مسند الشهاب ، ح :١٠٧٣ ، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٩٩) ، وقال : هذا حديث لا يصح . قال هيثم : أبو الربيع كان يكذب ، وقال الدارقطني : متروك .

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٨٩) .

(٥) شعب الإيمان للبيهقي ح، ١٢٨٩ (٢/ ١٠٣) ، وانظر التلبيس (٢٨١) ، واللمع بلفظ مقارب (٢٥٩) .

(٦) الرسالة القشيرية ص( ) ، وشرح النووي على مسلم (٣/ ٩١) ، وانظر نحوه في الغنية للجيلاني (٢/ ٦٠٨) .

وقال الغزالي : « إن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها، شرك في التوحيد ، والتثاقل عنها بالكلية ، طعن في السنة ، وقدح في الشرع ، والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً ، تغيير في وجه العقل وانغماس في غمرة الجهل »[١] .

ولذلك قال الإمام النووي : « وذهب المحققون منهم ـ الصوفية ـ إلى نحو مذهب الجمهور »[٢] .

وقد عللوا هذا المفهوم الخاطئ للتوكل، وحاولوا تبرير قعودهم وترك التكسب، ببعض الشبه الضعيفة ، أشار إليها ابن الجوزي ، وأجاب عليها ، ومنها :

١ ـ قالوا : « لابد من أن يصل إلينا رزقنا »[٣] .

ورد عليهم بقوله : « هذا في غاية القبح ، لأن الإنسان لو ترك الطاعة ، وقال : لا أقدر بطاعتي أن أغيّر ما قضى الله عليّ ؛ فإن كنت من أهل الجنة ، فأنا إلى الجنة أو من أهل النار فأنا من أهل النار ، قلنا له : هذا يرد الأوامر كلها ، ولو صح لأحد، لم يخرج آدم من الجنة ؛ لأنه كان يقول : ما فعلت إلا ما قضي عليّ ، ومعلوم أننا مطالبون بالأمر لا بالقدر »[٤] .

وهذا هو قول الجبرية المخالفين لأهل السنة في القول بالقدر ، وقد حسم ﷺ هذه الشبهة وهذا الإشكال المبني على الفهم الخاطئ لقدر الله

(١) الإحياء مع شرحه (٤/ ٢٤٣) ، وانظر : مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٥) .
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ٩١) .
(٣) تلبيس إبليس ص (٢٨٦) .
(٤) تلبيس إبليس ص(٢٨٦) .

تعالى، كما في حديث علي رضي الله تعالى عنه، قال: «كنا في جنازة في بقيع الغرقد، قال: فأتى رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة، فنكس رأسه، وجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: «**ما منكم من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من الجنة أو النار، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة**»، فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟؛ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء، فسيصير لعمل أهل الشقاوة. فقال: «**اعملوا، فكل ميسر، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة**، ثم قرأ: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ**﴾[(١)]»[(٢)].

وقول الجبرية أشنع من قول القدرية النفاة في هذا الباب، وليس هذا موضع تفصيله.

٢ ـ وقالوا: «أين الحلال حتى نطلب؟»[(٣)].

ويرد عليهم قائلاً: «وهذا قول جاهل؛ لأن الحلال لا ينقطع أبداً لقوله ﷺ: «**الحلال بيِّن والحرام بيِّن**»[(٤)] ومعلوم أن الحلال ما أذن الشرع في

(١) سورة الليل، الآيات: ٥ ـ ١٠.

(٢) الحديث رواه البخاري في القدر، ح: ٦٦٠٥ (الفتح ١١/ ٤٩٤)، ومسلم في القدر، ح: ٢٦٤٧ (٤/ ٢٠٤٠)، والترمذي في القدر، ح: ٢١٣٦ (٤/ ٤٤٥)، وابن ماجه في المقدمة، وأحمد في المسند (١/ ٨٢)، وابن جرير في التفسير (٣٠/ ٢٢٣)، والآجري في الشريعة، ح: ٣٢٨ (٢/ ٦٠٠)، والبيهقي في الاعتقاد، ص(٥٦)، وغيرهم.

(٣) تلبيس إبليس ص (٢٨٦).

(٤) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب: الحلال بين والحرام بين، ح: ٣٤٠ (الفتح٤/ ٣٤٠).

تناوله ، وإنما قولهم هذا احتجاج للكسل[١] .

٣ـ قالوا : إذا كسبنا أعنّا الظلمة والعصاة[٢] ، وذكر قصة لأحد أشياخهم ، يقال له فتح الموصلي ؛ حيث قيل له : أنت صياد بالشبكة ، ولم تصد شيئاً إلا وتطعمه لعيالك ، فلمَ لم تصد وتبيع ذلك للناس؟ فقال : أخاف أن أصطاد مطيعاً لله تعالى في جوف الماء ، فأطعمه عاصياً لله على وجه الأرض .

قال ابن الجوزي : إن صحت هذه الحكاية، فهي من التعلل البارد المخالف للشرع والعقل ؛ لأن الله تعالى أباح الكسب ، وندب إليه ، فإذا قال قائل : ربما خبزت خبراً فأكله عاص ؛ كان حديثاً فارغاً ؛ لأنه لايجوز لنا إذاً أن نبيع الخبر لليهود والنصارى»[٣] .

هذه أهم الشبه التي قادتهم إلى هذا المفهوم الخاطئ للتوكل ، وما ذاك إلا لسبب قلة بضاعتهم في العلم ، وتفشي الجهل في صفوفهم ، بل كانوا يعيبون العلم وطلابه ، ولهم في ذلك أقوال وآثار ليس هذا مقام بسطها.

يقول عنهم ابن الجوزي رحمه الله : « قلة العلم أوجبت هذا التخليط ، ولو عرفوا ماهية التوكل لعلموا أنه ليس بينه وبين الأسباب تضاد »[٤] ، وسيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى .

---

(١) تلبيس إبليس ص(٢٨٦) ، وانظر : موقف ابن الجوزي من الصوفية ص(٧٢٢) ، رسالة ماجستير للأخ الزميل الشيخ علي المقوشي .

(٢) التلبيس ص(٢٨٦) .

(٣) التلبيس ص (٢٨٧) ، ونحوها عند الخطيب في تأريخه (١٢/ ٣٨٣) ، وانظر : موقف ابن الجوزي من الصوفية ، ص(٧٢٣) .

(٤) تلبيس إبليس ص (٢٧٨) .

ولا شك أن للإعراض عن الكسب والخمول بدعوى التوكل ؛ من الآفات والمفاسد ما يصعب حصره ، ولكن نشير إلى أهمها :

١ ـ تعلق قلب العبد بما يقيم أوده ويسير حياته ؛ لأنه لا يمكن أن يعيش بغير ذلك ، فيبقى منشغلاً بالتفكير بين القيام بتحقيق مالابد منه من أجل الحياة ، أو تحقيق التوكل على مفهومه المزعوم، ومجاهدة نفسه على تغيير فطرتها التي فطره الله عليها .

٢ ـ تضييع كثير من الحقوق التي أوجبها الله تعالى على العبد ،والتي يجمعها قول سلمان الفارسي لأبي الدرداء رضي الله تعالى عنهما ، والذي صدقه فيه النبي ﷺ : « **إن لربك عليك حقاً** ، **ولنفسك عليك حقاً** ، **ولأهلك عليك حقاً** ، **فأعط كل ذي حق حقه** » وزاد الترمذي وابن خزيمة : « **ولضيفك عليك حقاً** »[1] .

٣ ـ تطلع النفس إلى ما في أيدي الناس ، وتعريضها للحاجة والسؤال إذا مسته الحاجة إلى ما في أيديهم ، ولا شك أن طلب الرزق الحلال لمن هذه حاله خير له وأنفع من ترك ذلك .

٤ ـ مع التسليم الجدلي بأن من هذه حاله سيقطع تعلق قلبه بحاجات نفسه ، وسيمنعها من مسألة الآخرين ، فلو تحقق ذلك ـ مع استحالته ـ فإنه يخشى عليه أن يداخله من العجب والكبر والزهو والغرور والاستعلاء على الآخرين ما يفسد عليه قلبه ، ويمرضه إن لم يمته .

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم . باب: من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ، ح: ١٩٦٨ (٤/ ٢٤٦) ، والترمذي في الزهد ، ح: ٢٤١٣ (٤/ ٦٠٨ ـ ٦٠٩) وغيرهما .

القول الثالث : نفي تأثير الأسباب بالكلية :

وهذا القول هو الذي وصفه العلماء بأنه (نقص في العقل) ؛ وهو قول القدرية الجبرية أتباع جهم بن صفوان في الجبر ، وقد تابعه في ذلك بعض الأشاعرة[١] .

وعندهم : « أن الله لم يخلق شيئاً بسبب ، ولا جعل في الأسباب قوى وطبائع تؤثر ، فليس في النار قوة الإحراق ، ولا في السم قوة الإهلاك ، ولا في الماء والخبز قوة الري والتغذي به ، ولا في العين قوة الإبصار ، ولا في الأذن والأنف قوة السمع والشم ؛ بل الله سبحانه يحدث هذه الأثار عند ملاقاة هذه الأجسام لا بها ، فليس الشبع بالأكل ، ولا الري بالشرب ، ولا العلم بالاستدلال ، ولا الانكسار بالكسر ، ولا الإزهاق بالذبح ، ولا الطاعات والتوحيد سبباً لدخول الجنة والنجاة من النار ، ولا الشرك والكفر والمعاصي سبباً لدخول النار ؛ بل يدخل هؤلاء جنته بمحض مشيئته من غير سبب ولا حكمة»[٢] .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : « وطرد هذا المذهب مفسد للدين والدنيا ؛ بل ولسائر أديان الرسل . ولهذا لما طرده قوم أسقطوا الأسباب الدنيوية وعطلوها ، وجعلوا وجودها كعدمها ، ولم يمكنهم ذلك ، فإنهم لابد أن يأكلوا ويشربوا ويباشروا من الأسباب ما يدفع عنهم الحر والبرد والألم . فإن قيل: هلا أسقطتم ذلك ؟ قالوا: لأجل الاقتران العادي. فإن قيل: هلا قمتم بما أسقطتموه من الأسباب لأجل الاقتران العادي

---

(١) انظر: رسالة تحقيق التوكل ص(٨٨) .

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٤٩٦) .

أيضاً . . .»[١] ، قال : « فهذا المذهب قد فطر الله سبحانه الحيوان - ناطقه وأعجمه - على خلافه»[٢] .

قال شيخ الإسلام عن هذا المذهب : « وهذا الأصل الفاسد مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف وأئمة الدين ، بل ومخالف لصريح العقل والحس والمشاهدة»[٣] .

قال : « وقوم طردوه ، فتركوا له الأسباب الأخروية ، وقالوا: سبْق العلم والحكم بالسعادة والشقاوة لا يتغير البتة . فسواء علينا الفعل والترك، فإن سبق العلم والحكم بالشقاوة ، فنحن أشقياء ؛ عملنا أو لم نعمل، وإن سبق بالسعادة ، فنحن سعداء ؛ عملنا أو لم نعمل»[٤] .

وقد سأل الصحابة رضوان الله تعالى عليهم عن ذلك لما أخبرهم النبي ﷺ أنه: « **ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة ، ومقعده من النار** ، قالوا : يا رسول الله ، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ قال : **لا ، اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له** »[٥] . فألزمهم النبي ﷺ القيام بالأسباب ، كما تقدم ، وحسم هذه الشبهة وهذا الإشكال بأقوى بيان في أوجز تعبير.

وهؤلاء غرضهم الرد على القدرية - النفاة - لكنهم « ردوا باطلاً بباطل ،

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٩٦) .
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٤٩٦).
(٣) مدارج السالكين (٣/ ٤٩٧) ، وانظر : رسالة في تحقيق التوكل ، ص (٨٨).
(٤) المصدر نفسه (٣/ ٤٩٧) ، وانظر: رسالة في تحقيق التوكل ، ص(٩٣).
(٥) الحديث تقدم تخريجه قريباً .

وقابلوا بدعة ببدعة ، كرد اليهود على النصاري ، والنصارى على اليهود ، مقالتهم في المسيح ، وكلا المقالتين باطلة ، وكذلك تقابل الخوارج والشيعة في علي ؛ كلاهما على باطل»[١] .

القول الرابع : قيام الجوارح بالأسباب واعتماد القلب على مسبب الأسباب سبحانه وتعالى :

وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة، وهو الحق الذي دلت عليه النصوص الشرعية ، والدلائل العقلية ، وهو المذهب الوسط بين طرفين ؛ حيث جمع أطراف الحق في كل مذهب ، فأثبت للأسباب تأثيراً في مسبباتها ، لكن لابذاتها ؛ بل بما أودعه الله تعالى فيها من القوى الموجبة[٢] ، وهي تحت مشيئته وقدرته ، فإن شاء منعها اقتضاءها ، وإن شاء جعلها مقتضية لضد أحكامها ، وإن شاء أقام لها موانع وصوارف تعارض اقتضاءها وتدفعه .

« فالموحد المتوكل لا يلتفت إلى الأسباب ؛ بمعنى أنه لا يطمئن إليها ، ولا يرجوها ولا يخافها ، فلا يركن إليها ، ولا يلتفت [إليها][٣] . بمعنى أنه لا يسقطها ولا يهملها ويلغيها ؛ بل يكون قائماً بها ملتفتاً إليها ؛ ناظراً إلى مسببها سبحانه ومجريها ، فلا يصح التوكل شرعاً ولا عقلاً إلا عليه سبحانه وحده »[٤] .

---

(١) رسالة تحقيق التوكل ، ص(٩٨).

(٢) تقريب التدمرية ، ص(١١) .

(٣) كذا ؛ ولعل الصواب : عنها .

(٤) مدارج السالكين (٣/ ٥٠٠) .

والآن نشير إلى بعض أدلة أهل السنة والجماعة في وجوب الأخذ بالأسباب وعدم منافاتها للتوكل :

أولاً : من القرآن الكريم :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ** ﴾[١] ، وهذا أمر باتخاذ الأسباب .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾[٢] وهذا أمر باتخاذ الأسباب أيضاً .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[٣] وهذا كذلك .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ** ﴾[٤] ، قال القرطبي : « فالغنيمة اكتساب »[٥] .

٥ ـ قوله تعالى : ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ** ﴾[٦] . قال الحليمي : أي : فإن خير الزاد ما عاد على صاحبه بالتقوى ، وهو ألا يتكلوا على أزواد الناس ويضيقون عليهم . ومن دخل البادية بلازاد فإنما يرجو أن يقيض الله تعالى له من يواسيه من زاده ، وهذا عين ما أشارت الآية إلى المنع منه ؛ فبان أنه لا معنى لاستحبابه ، وإنما المستحب هو التزود . . . »[٧] .

---

(١) سورة النساء ، آية : ٧١ .
(٢) سورة الأنفال ، آية : ٦٠ .
(٣) سورة الجمعة ، آية : ١٠ .
(٤) سورة الأنفال ، آية : ٦٩ .
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٨٩) .
(٦) سورة البقرة ، آية : ١٩٧ .
(٧) المنهاج (٢/ ٧) وتقدم النص قريباً .

إلى غير ذلك من الآيات التي يصعب استقصاؤها .

ثانياً : أما من السنة :

فالنصوص أكثر من أن تحصى أيضاً ، ومنها :

١ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : «**بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم**»(١) .

والشاهد من الحديث قوله : « **وجعل رزقي تحت ظل رمحي** » ، وفيه دليل على طلب الرزق ، وعدم القعود .

قال الحليمي : « فلو كان انتظار الرزق بالصبر والصمت ، أفضل من طلبه بما أذن الله فيه ، لما حَرَمَ رسول الله أفضل الوجهين ، وعَرَّضه لأرذلهما »(٢) .

٢ ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ على ناقة له ، فقال : يا رسول الله أدعها وأتوكل ؟ فقال : «**اعقلها وتوكل**»(٣) .

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٥٠ ، ٩٢) ، وابن أبي شيبة (٥/ ٣١٣) ، وذكره البخاري في صحيحه في الجهاد ، باب : ما قيل في الرماح (٦/ ١١٥) تعليقاً . وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٤٩) . وقال : « فيه عبد الرحمن بن ثابت ، وثقه ابن المديني وغيره ، وضعفه أحمد وغيره ، وبقية رجاله ثقات » . قال الحافظ ابن حجر : له شاهد مرسل بإسناد حسن أخرجه ابن أبي شيبة من طريق الأوزاعي عن سعيد بن جبلة . . . (الفتح٦/ ١١٦) ، ورواه البيهقي في الشعب ح : ١١٩٩ (٢/ ٧٥) .

(٢) المنهاج في شعب الإيمان (٢/ ٧) .

(٣) رواه الترمذي في صفة القيامة باب : (٦٠) ، ح : ٥٣٧ (٤/ ٦٦٨) وابن أبي الدنيا في التوكل ، ح : ١١ ، ص(٤٦) ، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٩٠) ، والبيهقي في الشعب ، ح : ١٢١٠ ، ١٢١٢ ، وابن حبان في صحيحه ، ح : ٢٥٤٩ الموارد ص(٦٣٣) . قال الزين العراقي في تخريجه للإحياء : رواه ابن خزيمة والطبراني من حديث أمية الضمري بإسناد جيد (الإحياء ٤/ ٢٧٩) .

وهذا الحديث أصل في التوكل وفيه الأمر باتخاذ الأسباب والاحتراز ، مع الأمر بالتوكل.

٣ـ وعن المقدام بن معدي كرب عن النبي ﷺ قال : « **ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده . وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده** »(١) .

قال الحافظ ابن حجر : «وفي الحديث : أن التكسب لا يقدح في التوكل»(٢).

٤ ـ وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ ، قال : «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ؛ تغدو خِماصاً ، وتعود بطاناً**»(٣) . قال أبو حاتم الرازي : « وهذا الحديث أصل في التوكل ، وأنه من أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق»(٤) .

فالطير إذا غدت إنما تغدو بطلب الرزق ، ومعروف من عادتها أنها لاتقع إلا حيث تبصر لقطاً ، وأنها لا تزال تسبح في الهواء حتى ترى الماء فتنزل عليه ، وكل ذلك ابتغاء في الرزق(٥) .

وقال الإمام أحمد : «ليس في الحديث دلالة على القعود عن الكسب؛ بل فيه ما يدل على طلب الرزق؛ لأن الطير إذا غدت فإنما تغدو لطلب الرزق»(٦) .

---

(١) رواه البخاري في البيوع ، باب : كسب الرجل وعمله ، ح : ٢٠٧٢ (٤/ ٣٥٥) ، وابن ماجه في التجارات ، باب : الحث على المكاسب ، ح:٢١٣٨ (٢/ ٧٢٤)، وأحمد في مسنده (٤/ ١٣٠) ، ولم يذكرا : وكان داود . . . ، وأخرجه البيهقي في الشعب ، ح : ١٢٢٤ (٢/ ٨٤).

(٢) فتح الباري (٤/ ٣٥٨).

(٣) تقدم تخريجه ص (١٣٩).

(٤) جامع العلوم والحكم ص (٤٠٩).

(٥) المنهاج للحليمي (٢/ ٩) .

(٦) شعب الإيمان (٢/ ٦٦ـ ٦٧) .

٥ ـ حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال ، ثم يأخذ ما بقي فيجعله مَجْعَل مال الله . فعمل رسول الله ﷺ بذلك حياته . . . »[١] . قال النووي : « وفي الحديث جواز ادخار قوت سنة وجواز الادخار للعيال ، وأن هذا لا يقدح في التوكل »[٢] .

وقد عاب ﷺ من جعل التوكل ذريعة للكسل والعجز ، فعن عوف بن مالك أن النبي ﷺ قضى بين رجلين ، فقال المقضي عليه لما أدبر : « حسبنا الله ونعم الوكيل » . فقال رسول الله ﷺ : « **ما قلت ؟** » قال : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل . فقال رسول الله ﷺ : « **إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكَيْس ، فإن غلبك أمر فقل : حسبي الله ونعم الوكيل** »[٣] .

قال الإمام أحمد رحمه الله : وروينا عن ابن شهاب مرسلاً في هذه القصة أن أحدهما تهاون ببعض حجته لم يبلغ فيها ، ثم حين قضى للآخر ، فقال هذا القول ، فقال النبي ﷺ : « **اطلب حقك حتى تعجز ، فإذا عجزت فقل : حسبي الله ونعم الوكيل ، فإنما يقضى بينكم على حججكم** »[٤] .

---

(١) رواه البخاري في فرض الخمس ، ح : ٣٠٩٤ (٦/ ٢٣٨) ، وفي النفقات ، باب : حبس الرجل قوت سنة على أهله ، ح : ٥٣٥٧ (٩/ ٤١٢) ، ومسلم في الجهاد ، باب : حكم الفيء ح : ١٧٥٧ (٣/ ١٣٧٧) .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/ ٧٠) .

(٣) رواه الإمام أحمد (٦/ ٢٤ـ٢٥) ، وأبو داود في الأقضية : باب : الرجل يحلف على حقه ، ح : ٣٦١٠ (عون ١٠/ ٥٤) والنسائي في عمل اليوم والليلة كما في التحفة (٨/ ٢١٣) والبيهقي في الشعب ، ح : ١٢١٣ (٢/ ٨١) ، وفي السنن الكبرى (١٠/ ١٨١) والحديث ضعفه النووي في الأذكار ، كما في التيسير ص(٥٠٤) ، وقال المنذري : في إسناده بقية ابن الوليد ، وفيه مقال ، وضعفه الألباني في الكلم الطيب ص(٧٩) ، والفهيد في النهج ص(١٩٢) .

(٤) شعب الإيمان ، ح : ١٢١٤ (٢/ ٨١) .

فالنبي ﷺ أرشد العبد إلى ما فيه غاية كماله ونيل مطلوبه ؛ أن يحرص على ما ينفعه ، ويبذل فيه جهده ، وحينئذ ينفعه التحسب ، وقول (حسبي الله ونعم الوكيل) ؛ بخلاف من عجز وفرط حتى فاتته مصلحته ، ثم قال : (حسبي الله ونعم الوكيل) ؛ فإن الله يلومه ، ولا يكون في هذا الحال حسبه ، فإنما هو حسب من اتقاه وتوكل عليه[١] .

هدي النبي ﷺ وأصحابه في ذلك:

وقد كان من هدي النبي ﷺ وأصحابه اتخاذ الأسباب مع أنهم كانوا أكمل الخلق توكلاً ، وإنما كانوا : يَلْقون عدوهم وهم متحصنون بأنواع السلاح ، ودخل رسول الله مكة والبيضة على رأسه ، وقد أنزل الله عليه : ﴿ **وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾[٢] [٣] ، وقد ظاهر رسول الله ﷺ يوم أحد بين درعين[٤] ، واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه ؛ ليدله على طريق الهجرة[٥] ، وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد وجميع أصحابه[٦] ، وهم أولو التوكل حقاً ، وأكمل المتوكلين بعدهم من اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة ، أو لحق أثراً من غبارهم .

قال ابن القيم رحمه الله : « فحال النبي ﷺ وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها ، بها يعلم صحيحها من سقيمها ، فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم ، فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب ،

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٦٤) ، وانظر : مجموع الفتاوى (١٠/ ٣١).
(٢) سورة المائدة ، آية : ٦٧ .
(٣) زاد المعاد (٣/ ٤٤٩) ، وانظر : فتح الباري (١٠/ ٢٢٣).
(٤) رواه الإمام أحمد ٣(/ ٤٤٩) ، وأبو داود في الجهاد ، باب : في لبس الأدرع (٣/ ٧١) .
(٥) رواه البخاري في الإجارة ، باب : استئجار المشركين عند الضرورة أو لم يوجد أهل الإسلام ، ح : ٢٢٦٣ (٤/ ٥١٧).
(٦) انظر بعض أخبارهم في الاكتساب واتخاذ الأسباب ، تلبيس إبليس ، ص(٢٨٢).

وأن يعبد الله في جميع البلاد ، وأن يوحده جميع العباد ، وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد ، فمَلئوا بذلك التوكل القلوب هدى وإيماناً ، وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان ، وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتهم يقيناً وإيماناً ، فكانت همم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعي ، فيجعله نصب عينيه، ويحمل عليه قوى توكله»[١] .

هدي السلف الصالح ومأثورهم في ذلك :

وعلى هديهم سار من جاء بعدهم رضوان الله تعالى عليهم .

فهذا ابن المبارك رحمه الله يقول له الفضيل ـ الإمام الزاهد ـ : إنك تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام ، كيف ذا وأنت تأمرنا بخلاف ذا ؟ فقال ابن المبارك : يا أبا علي أنا أفعل ذا لأصون وجهي وأكرم بها عرضي ، وأستعين بها على طاعة ربي ، لا أرى لله حقاً إلا سارعت إليه حتى أقوم به ، فقال له الفضيل : يا ابن المبارك : ما أحسن ذا إن تم ذا[٢] .

وهذا أبو قلابة ـ الإمام المفسر ـ يكتب إلى أيوب بكتاب يقول فيه : « الزم السوق ، واعلم أن الغنى معافاة[٣] . وفي رواية : « الزم سوقك ، فإن فيه غنى عن الناس وصلاحاً للدين » .

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٣٥) .

(٢) تاريخ بغداد (١٠/ ١٦٠) ، وشعب الإيمان للبيهقي ، ح: ١٢٦٦ (٢/ ٩٦) .

(٣) أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٨٦) ، وابن حبان في روضة العقلاء ، ص(٢٠١) ، والبيهقي في الشعب ، ح: ١٢٦١ (٢/ ٩٥).

وسأل رجل الحسن فقال : يا أبا سعيد ، أفتح مصحفي فأقرأه حتى أمسي؟ قال الحسن : « اقرأه بالغداة واقرأه بالعشي ، وكن سائر نهارك في صنعتك وما يصلحكم »(١) .

وكان الإمام أحمد يأمر بالسوق ، ويقول : « ما أحسن الاستغناء عن الناس »(٢) ، وسئل عن قوم لا يعملون ويقولون : نحن متوكلون ، فقال : «هؤلاء مبتدعة»(٣) .

وليس هذا خاصاً بهذه الأمة فحسب ؛ بل إن التكسب والأمر به هو ديدن الأنبياء السابقين ، هم سادات المتوكلين ، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، يقول ابن الجوزي رحمه الله : « فقد كان آدم عليه السلام حراثاً ، ونوح وزكريا نجارين ، وإدريس خياطاً ، وإبراهيم ولوط زراعين ،وصالح تاجراً ، وكان سليمان يعمل الخوص ، وداود يصنع الدروع ، ويأكل من ثمنه ،وكان موسى وشعيب ومحمد رعاة ؛ صلى الله عليهم أجمعين »(٤) .

إذاً ؛ فالصحيح الذي تدل عليه النصوص هو أن تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل ، بل إن التوكل من أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار(٥) (بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق)(٦) ، ونحن مأمورون بأن نمارس عبودية الأخذ بالأسباب ، كما نحن مأمورون بممارسة عبودية التوكل؛ لأنه « . . . . لاتقوم عبودية الأسباب إلاعلى ساق التوكل ، ولا

---

(١) البيهقي في شعب الإيمان ، ح:١٢٥٩ (٢/ ٩٤).

(٢) الحث على التجارة والرد على من يدعي التوكل ، ح: ٤ ، ص(٢٧) ، وانظر المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة ، د. عبد الإله الأحمدي (٢/ ٢٣٤).

(٣) مسائل صالح ، ص(٧٢) ، وانظر المسائل والرسائل (٢/ ٢٣٨).

(٤) تلبيس إبليس ص(٢٨١) .

(٥) تيسير العزيز الحميد ص(٥٠٢) .

(٦) الفوائد ص(٨٠).

يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية»[١] .

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله : « واعلم أن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه وتعالى المقدورات بها ، وجرت سنته في خلقه بذلك ؛ فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل ؛ فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له ، والتوكل بالقلب عليه إيمان به . . . » قال : « وقال سهل التستري : من طعن في الحركة - يعني في السعي والكسب - فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل ، فقد طعن في الإيمان ، فالتوكل حال النبي ﷺ والكسب سنته ، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته »[٢] .

قال ابن عقيل : « يظن أقوام أن الاحتياط والاحتراز ينافي التوكل ، وأن التوكل هو إهمال العواقب واطراح التحفظ ، وذلك عند العلماء هو العجز والتفريط الذي يقتضي من العلماء التوبيخ والتهجين ، ولم يأمر الله بالتوكل إلا بعد التحرز واستفراغ الوسع في التحفظ ، فقال تعالى : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ فلو كان التعلق بالاحتياط قادحاً في التوكل لما خص الله به نبيه ، حين قال له : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ وهل المشاورة إلا استفادة الرأي الذي منه يؤخذ التحفظ والتحرز من العدو »[٣] .

وقال الحافظ ابن حجر : « والحق أن من وثق بالله وأيقن أن قضاءه عليه ماض ، لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب اتباعاً لسنته وسنة رسوله . . . »[٤] .

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٠) .

(٢) جامع العلوم والحكم ، ص(٤٠٩) ، وتقدم ص(٥٥ ، ١٦٩) كلام سهل التستري وتخريجه هناك .

(٣) تلبيس إبليس ص(٢٧٩) .

(٤) فتح الباري (١٠/ ٢٢٣) .

وحقيقة التوحيد لا تتم إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً و« تعطيلها يقدح في نفس التوكل ، كما يقدح في الأمر والحكمة ويضعفه ، من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل، فإن تركها عجز ينافي التوكل ، الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ، ودفع ما يضره في دينه ودنياه ، ولا يدفع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب ، وإلا كان معطلاً للأمر والحكمة والشرع ، فلايجعل العبد عجزه توكلاً ولا توكله عجزاً»[١] .

والتوكل باعتبار تعلقه بالأسباب ينقسم إلى قسمين :

الأول : توكل اضطرار:

وهذا بحيث لا يجد العبد ملجأ ولا ملاذاً إلا التوكل ،كما إذا تقطعت به الأسباب ، وضاقت عليه نفسه ،وظن أن لاملجأ من الله إلا إليه ؛ فهذا لا يتخلف عنه الفرج والتيسير بحول الله .

الثاني : توكل اختيار :

وهو التوكل مع وجود السبب المفضي إلى المراد،وهو على ثلاثة أنواع :

أ ـ أن يكون السبب مأموراً به ، فهنا يجب عليه الجمع بين اتخاذ السبب وتحقيق التوكل . قال ابن القيم : « الواجب القيام بهما ، والجمع بينهما » والقيام به لا ينافي تحقيق التوكل ؛ بل هو من تمام التوكل .

ب ـ أن يكون السبب منهياً عنه ، فهنا تحرم مباشرة السبب ، ويتعين تحقيق التوكل ، فلم يبق سبب سواه ؛ لأن التوكل من أقوى الأسباب كما قدمنا ، ومباشرة الأسباب المحرمة أو المكروهة أو الموهومة قادح في تحقيق التوكل .

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٥).

جـ- أن يكون السبب مباحاً ، وهنا ينظر «هل يضعف قيامك به التوكل أو لا يضعفه ؟ فإن أضعفه ،وفرق عليك قلبك ، وشتت شملك ؛ فتركه أولى ، وإن لم يضعفه فمباشرته أولى ؛ لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبب به ، فلا تعطل حكمته مهما أمكن القيام بها ،ولا سيما إذا فعلته عبودية ، فتكون قد أتيت بعبودية القلب بالتوكل وعبودية الجوارح بالسبب المنوي به القربة»[١] .

ومن أجلّ فوائد تعاطي الأسباب القيام بالعبودية لله تعالى ، وهو الأمر الذي خلق له العبيد ، وأرسلت به الرسل ، وأنزلت لأجله الكتب ، وبه قامت السموات والأرض ،وله وجدت الجنة والنار . فالقيام بالأسباب المأمور بها محض العبودية ، وحق الله تعالى على عبده،الذي توجهت به نحوه المطالب ،وترتب عليه الثواب والعقاب ، والله سبحانه أعلم[٢] .

قال ابن القيم رحمه الله : « وسرّ التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده ، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله : توكلت على الله مع اعتماده على غيره ، وركونه إليه وثقته به ، فتوكل اللسان شيء ، وتوكل القلب شيء»[٣].

لذا ، فإن من تمام التوكل « عدم الركون إلى الأسباب ،وقطع علاقة القلب بها ، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها ، وحال بدنه قيامه

(١) الفوائد ص(٨٠).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٣٠).
(٣) الفوائد ص (٨٠).

بها»[١] . قال الجنيد : « ليس التوكل الكسب ولا ترك الكسب ، التوكل شيء في القلوب»[٢] .

قال ابن الجوزي : « إنما ينبغي أن تكون أعضاء المتوكل في الكسب وقلبه ساكن مفوض إلى الحق ؛ منع أو أعطي ؛ لأنه لا يرى إلا أن الحق سبحانه وتعالى لا يتصرف إلا بحكمة ومصلحة»[٣] .

كما قال بعضهم : اكتسب ظاهراً وتوكلاً باطناً ، فهو مع كسبه لا يكون معتمداً على كسبه ، وإنما يكون اعتماده في كفاية أمره على الله عز وجل[٤] .

ولذلك قيل : « الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع»[٥] .

قال شيخ الإسلام : « وإنما التوكل المأمور به : ما اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع»[٦] . « كما أن التجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً»[٧] .

قال ابن القيم رحمه الله : « وهذا الكلام يحتاج إلى شرح وتقييد ؛ فالالتفات إلى الأسباب ضربان :

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٣٠).

(٢) شعب الإيمان ، ح: ١٢٧١ (٢/ ٩٧) .

(٣) تلبيس إبليس ص (٢٨٠).

(٤) شعب الإيمان (٢/ ٩٧).

(٥) انظر : إحياء علوم الدين (٤/ ٢٤٣) ، ومجموع الفتاوى (١/ ١٣١) ، (١٠/ ٣٥).

(٦) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٥) ، وانظر المدارج (٣/ ٤٩٩).

(٧) مدارج السالكين (٢/ ١٣٤).

أحدهما شرك، والآخر عبودية وتوحيد ؛ فالشرك أن يعتمد عليها ويطمئن إليها ، يعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود ، فهو معرض عن المسبب لها ، ويجعل نظره والتفاته مقصوراً عليها.

وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها ، وأداء لحق العبودية فيها ، وإنزالها منازلها ؛ فهذا الالتفات عبودية وتوحيد ، إذ لم يشغله عن الالتفات إلى المسبب .

وأما محوها أن تكون أسباباً ؛ فقدح في العقل والحس والفطرة ، فإن أعرض عنها بالكلية ؛ كان قدحاً في الشرع وإبطالاً له .

وحقيقة التوكل : القيام بالأسباب، والاعتماد بالقلب على المسبب ، واعتقاد أنها بيده ، فإن شاء أقام لها موانع وصوارف تعارض اقتضاءها وتدفعه .

فالموحد المتوكل ؛ لا يلتفت إليها ؛ بمعنى أنه لا يسقطها ولا يهملها ويلغيها ؛ بل يكون قائماً بها ملتفتاً إليها ناظراً إلى مسببها سبحانه ومجريها . . . » .

قال : « فإذا جمعت بين هذا التوحيد ، وبين إثبات الأسباب ؛ استقام قلبك على السير إلى الله ، ووضح لك الطريق الأعظم الذي مضى عليه جميع رسل الله وأنبيائه وأتباعهم ، وهو الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، وبالله التوفيق »[1] .

لذا ؛ فالواجب على العبد أن يعرف في الأسباب الأمور التالية :

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠) .

١ ـ أن لا يجعل منها سبباً إلا ما ثبت أنه سبب شرعاً أو قدراً . قال شيخ الإسلام : « لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم ، فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم أو يخالف الشرع كان مبطلاً ، مثل من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء»[١] ، ومثل تعليق التمائم والخرز والتطير ونحو ذلك .

٢ ـ أن لا يعتمد العبد عليها ؛ بل يعتمد على مسببها ومقدرها ، مع قيامه بالمشروع منها ، وحرصه على النافع منها[٢] ، وذلك لأن « السبب المعين لا يستقل بالمطلوب ، بل لابد معه من أسباب أخر ، ومع هذا فلها موانع ، فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود»[٣] .

فحصول المطلوب مع اتخاذ الأسباب لا يمكن أن يكون قاعدة مطردة ، ولا يمكن أن يقال : إنه لابد من حصول المراد إذا وجد السبب ؛ بل المطلوب من المؤمن التوكل على الله وحده ، ثم الأخذ بالأسباب ، وقد يعطي سبحانه أو يمنع مع وجود السبب ، لذا فإنه لا يجوز الاعتماد على الأسباب ، وإنما على مسببها سبحانه وتعالى .

٣ ـ أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره لا خروج لها عنه ، والله تعالى يتصرف فيها كيف يشاء ، فإن شاء أبقى سببيتها ، جارية على مقتضى حكمته ؛ ليقوم بها العباد ، ويعرفوا

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٣٧) .

(٢) القول السديد لمقاصد التوحيد لابن سعدي ص(١٨) ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفاته رحمه الله ـ المجلد الثالث .

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ١٣٧).

بذلك تمام حكمته ، حيث ربط الأسباب بمسبباتها والمعلولات بعللها ، وإن شاء غيرها كيف يشاء ؛ لئلا يعتمد عليها العباد ، وليعلموا كمال قدرته ، وأن التصرف المطلق والإرادة المطلقة لله وحده[١] « فما شاء كان ، وإن لم يشأ الناس ، وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله»[٢] .

قال الإمام أحمد: « وهذا هو الأصل في هذا الباب ، وهو أن يستعمل هذه الأسباب التي بينها الله تعالى لعباده ، وأذن فيها ، وهو يعتقد أن المسبب هو الله سبحانه وتعالى ، وما يصل إليه من المنفعة فبتقدير من الله عز وجل ، وأنه إن شاء حرمه تلك المنفعة مع استعماله السبب ، فتكون ثقته بالله واعتماده عليه في إيصال تلك المنفعة إليه مع وجود السبب»[٣] .

٤ ـ أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيئاً سبباً إلا أن تكون مشروعة ، فإن العبادات مبناها على التوقيف ، فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله؛ فيدعو غيره، وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه، وكذلك لا يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة ، وإن ظن ذلك ، فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك ، وقد يحصل بالكفر والعصيان على بعض أغراض الإنسان ، فلا يحل له ذلك ؛ إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به، إذ الرسول ﷺ بعث بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فما أمر الله به فمصلحته

(١) القول السديد ، ص(١٨).
(٢) مجموع الفتاوى (١/ ١٣٧).
(٣) شعب الإيمان (٢/ ٧٩٠).

راجحة ، وما نهى عنه فمفسدته راجحة[١] .

وعليه أن يتقي في الأسباب أمرين :

الأول: الاعتماد عليها ، والتوكل عليها ، والثقة بها ورجاؤها وخوفها . فهذا شرك يرق ويغلظ ، وبين ذلك .

الثاني: ترك ما أمر الله به من الأسباب ، وهذا أيضاً قد يكون كفراً وظلماً وبين ذلك ؛ بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر ، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله ، سبق بها علمه وحكمه ، وأن السبب لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع ولا يقضي ولا يحكم ، ولا يحصل للعبد ما لم تسبق له به المشيئة الإلهية ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم ، فيأتي بالأسباب إتيان من لا يرى النجاة والفرح والوصول إلا بها ، ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه ولا تحصل له فلاحاً ولا توصله إلى المقصود ، فيجرد عزمه للقيام بها حرصاً واجتهاداً ، ويفرغ قلبه من الاعتماد عليها والركون إليها تجريداً للتوكل واعتماداً على الله وحده[٢] .

وقد جمع النبي ﷺ بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح ؛ حيث يقول : « **احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز** . . »[٣] .

فأمره بالحرص على الأسباب والاستعانة بالمسبب ونهاه عن العجز ، وهو نوعان :

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٣٧ ـ ١٣٨).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٥٠١).

(٣) جزء من حديث رواه الإمام مسلم في صحيحه في القدر ، باب : الأمر بالقوة وترك العجز ، ح : ٢٦٦٤ (٤/ ٢٠٥٢) ، وابن ماجه في المقدمة ، باب : في القدر ، ح : ٧٩ (١/ ٣١) ، وفي الزهد ، باب : التوكل واليقين ، ح :٤١٦٨ (٢/ ١٣٩٥) ، والإمام أحمد في المسند (٢/ ٣٦٦ ، ٣٧٠).

* تقصير في الأسباب وعدم الحرص عليها.

* وتقصير في الاستعانة بالله وترك تجريدها .

فالدين كله ظاهره وباطنه ، وشرائعه وحقائقه تحت هذه الكلمات النبوية[١] .

وبهذا يظهر أن لا تعارض البتة بين التوكل واتخاذ الأسباب ، بل إن التوكل ذاته هو من جملة الأسباب التي أمرنا الله تعالى باتخاذها . والله أعلم.

* * *

(١) مدارج السالكين (٣/ ٥٠١).

الفصل السابع

من مظاهر ضعف التوكل

« قوادح التوكل »

الفصل السابع
من مظاهر ضعف التوكل
« قوادح التوكل »

لاشك أن أعظم مظاهر ضعف التوكل على الله تعالى - وهو الجامع لكل المظاهر الجزئية - هو التفات القلب إلى الأسباب وتعلقه بغير الله تعالى، وتختلف درجات هذا الضعف باختلاف أنواع الأسباب ، وباختلاف درجات تعلق القلب بها والتفاته إليها .

والأسباب على ثلاث درجات :

الأولى : المقطوع بها : وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يتخلف ؛ كما أن الطعام إذا كان موضوعاً بين يديك وأنت جائع محتاج ، ولكنك لست تمد اليد إليه ، وتقول : أنا متوكل ، وشرط التوكل ترك السعي ، ومد اليد إليه سعي وحركة . . فهذا كما يقول الغزالي رحمه الله : « جنون محض ، وليس من التوكل في شيء . . »[1] .

الثانية : الأسباب التي ليست متيقنة ، وإنما هي ظنية ، كالرقى والاكتواء، فهذه لا شك أن الاعتماد عليها والتفات القلب إليها بذاتها - إذا ثبتت سببيتها - سواء كانت أسباباً شرعية دلت عليها النصوص ، أو قدرية

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٦٥).

دلت عليها التجربة ، لا شك أنه مضعف للتوكل منقص لكماله .

الثالثة : الأسباب الموهومة : وهي التي ليست من الأسباب الشرعية التي دلت عليها النصوص ، ولا من الأسباب القدرية التي ثبت برهانها بالتجربة والحس ، وإنما هي من الوهم والتخرص ، كالتطير مثلاً ، وتعليق الحروز والتمائم وغيرها ، فلا شك أن الالتفات إليها واستعمالها محرم ، وهي منافية لتحقيق التوكل وكمال التوحيد .

والمقصود بالحديث في هذا الفصل هو الدرجة الثانية والثالثة ، وقد جمعها النبي ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، قال : قال النبي ﷺ : « **عرضت علي الأمم ، فأخذ النبي يمر معه الأمة ، والنبي يمر معه النفر ، والنبي يمر معه العشرة ، والنبي يمر معه الخمسة ، والنبي يمر وحده ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قلت : يا جبريل، هؤلاء أمتي ؟ قال : لا ، ولكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قال : هؤلاء أمتك ، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب . قالت : ولِمَ ؟ قال : كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون** » .

فقام عكاشة بن محصن ، فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . قال : «**اللهم اجعله منهم**» ، ثم قام إليه رجل آخر ، فقال : ادع الله أن يجعلني منهم، قال : «**سبقك بها عكاشة**»[1] .

وقد اتفق على هذه الأربع معظم الروايات في حديث ابن عباس وإن كان عند البعض تقديم وتأخير ، وكذا في حديث عمران بن حصين عند

---

(١) الحديث رواه البخاري ـ واللفظ له ـ في الرقاق . باب : يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ح : ٦٥٤١ (١١/ ٤١٣) ، وتقدم في ضمان دخول الجنة .

مسلم[١] .

وظاهر الحديث يدل على أن هذه الأمور المذكورة تقدح في كمال التوكل . ولذلك ذيل الحديث بقوله : « **وعلى ربهم يتوكلون** » ، وهي تحتمل أحد معنيين :

الأول : أن تكون الجملة مفسرة لما تقدم من ترك الاسترقاء والاكتواء والطيرة .

الثاني : أن تكون من العام بعد الخاص ؛ لأن صفة كل واحدة منها صفة خاصة من التوكل ، وهو أعم من ذلك[٢] .

والآن نستعرض هذه الأمور الثلاثة لنرى الصور القادحة من غيرها .

أولاً : الاسترقاء :

الاسترقاء طلب الرقية . قال في اللسان : وهي العوذة ، معروفة، قال رؤبة :

فما تركا من عوذة يعرفانها ولا رقية إلا بها رقياني

والجمع : رقى ، تقول : استرقيته فرقاني رقية ، فهو راق[٣] .

وقال أيضاً : العوذة والمعاذة والتعويذ : الرقية يرقى بها الإنسان من فزع أو جنون[٤] .

---

(١) فتح الباري (١١/ ٤١٦).

(٢) فتح الباري (١١/ ٤١٧).

(٣) لسان العرب مادة (ر . ق . ي) (١٤/ ٣٣٢).

(٤) نفس المصدر مادة (ع . و . ذ) (٣/ ٤٩٩).

حكم الرقية : الرقية تنقسم إلى قسمين :

١ ـ جائزة :

وهي ما اجتمعت فيها شروط ثلاثة :

أ ـ أن تكون بكلام الله تعالى وبأسمائه وصفاته .

ب ـ أن تكون باللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره .

جـ ـ أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بذات الله تعالى[١] .

وقد حكى الحافظ إجماع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع هذه الشروط[٢] .

وقد فصل فضيلة الدكتور علي العلياني ضوابط الرقية المشروعة، وجعل لها سبعة ضوابط، وهي :

١ ـ ألا تكون شركية .

٢ ـ ألا تكون سحرية .

٣ ـ ألا تكون من عراف أو كاهن .

٤ ـ أن تكون بعبارات مفهومة .

٥ ـ ألا تكون بهيئة محرمة .

٦ ـ ألا تكون بعبارات محرمة بالسب والشتم .

٧ ـ ألا يظن فيها الاستقلال بالشفاء[٣] .

---

(١) فتح الباري (١١/ ٢٠٦) .

(٢) نفس المصدر (١١/ ٢٠٦) .

(٣) انظر الرقى على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة وحكم التفرغ لها واتخاذها حرفة ص(٥٩) .

ومما يدل على جواز الرقية الشرعية مستكملة الشروط ، مايلي :

أولاً : فعله ﷺ بنفسه :

حيث ثبت عنه ﷺ من حديث عائشة أنه كان ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه بـ ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ وبالمعوذتين جميعاً ، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده [١] .

وعنها : أنه ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ، ومسح عنه بيده [٢] .

ثانياً : فعله ﷺ بغيره :

كما في حديث عائشة رضي الله عنها أيضاً قالت : كان النبي ﷺ يعوِّذ بعضهم ؛ يمسح بيمينه : « **أذهب الباس رب الناس ، واشف أنت الشافي ؛ لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً** »[٣] .

وعنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات [٤] .

---

(١) رواه البخاري في الطب ، باب : النفث في الرقية ، ح : ٥٧٤٨ (فتح ١٠/ ٢١٩) ، واللفظ له . وروى نحوه ابن ماجه في الدعاء ، باب : ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه ، ح : ٣٨٧٥ (٢/ ١٢٧٥) .

(٢) رواه البخاري في المغازي ، باب مرض النبي # ، ح : ٤٤٣٩ (الفتح٧/ ٧٣٨) ، ومسلم في السلام ، باب : رقية المريض بالمعوذات ، والنفث ، ح : ٢١٩٢ (٤/ ١٧٣٤) .

(٣) رواه البخاري في الطب ، باب : مسح الراقي الوجع بيده اليمنى ، ح : ٥٧٥٠ (الفتح ١٠/ ٢٢١) ، ومسلم في السلام ، باب : استحباب رقية المريض ، ح : ٢١٩١ (٤/ ١٧٢٣) .

(٤) رواه مسلم في السلام ، باب : رقية المريض بالمعوذات والنفث ح : ٢١٩٢ (٤/ ١٧٢٣) .

ثالثاً : أمره ﷺ :

كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سَفْعة[١] . فقال : «**استرقوا لها فإن بها النظرة**»[٢] [٣] .

رابعاً : إقراره ﷺ :

كما في حديث أبي سعيد : « أن رهطاً من أصحاب رسول الله ﷺ انطلقوا في سفرة سافروها ، حتى نزلوا بحي من أحياء العرب ، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم ، فلدغ سيد ذلك الحي ، فسعوا له بكل شيء ، لا ينفعه شيء ، فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا بكم لعله أن يكون عند بعضهم شيء ، فأتوهم ، فقالوا : يا أيها الرهط ؛ إن سيدنا لدغ فسعينا له بكل شيء ، لا ينفعه شيء ، فهل عند أحدكم شيء ؟ فقال بعضهم : نعم ، والله إني لراق ، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا ، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلاً ، فصالحوهم على قطيع من الغنم ، فانطلق ؛ فجعل يتفل ويقرأ: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ حتى

---

(١) السَّعْفة : بسكون العين ؛ قروح تخرج على رأس الصبي . ويقال : هو مرض يسمى داء الثعلب يسقط الشعر (النهاية ٢/ ٣٦٨) . والسفعة : أي علامة من الشيطان . وقيل : ضربة واحدة منه (النهاية (٢/ ٣٧٥) ، وقال ابن قتيبة : لون يخالف لون الوجه (الفتح ١٠/ ٢١٢) .

(٢) النظرة : العين (النهاية ٥/ ٧٨) .

(٣) رواه البخاري في الطب . باب : رقية العين ، ح: ٥٧٣٨ (الفتح ١٠/ ٢١٠) ، ومسلم في السلام . باب : استحباب الرقية من العين، ح: ٢١٩٧ (٤/ ١٧٢٥) .

لكأنما نشط من عقال ، فانطلق يمشي ما به قلبة[١] قال : فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه ، فقال بعضهم : اقسموا ، فقال الذي رقى : لا تفعلوا حتى نأتي رسول الله ﷺ ، فنذكر الذي كان ؛ فننظر ما يأمرنا ، فقدموا على رسول الله ﷺ ، فذكروا له ، فقال : « **وما يدريك أنها رقية ؟! أصبتم ، فاقسموا واضربوا لي معكم بسهم** »[٢] .

٢ ـ الرقية الممنوعة :

وهي ما فقدت شرطاً من الشروط السابقة .

والأدلة على منعها كثيرة ، منها :

١ ـ عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود ، قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق ، كراهية أن يهجم منها على شيء يكرهه! قالت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح ، قالت : وعندي عجوز ترقيني من الحمرة[٣] ، فأدخلتها تحت السرير ، فدخل فجلس إلى جنبي ، ورأى في

---

(١) يقال : ما بالعليل قَلَبَة : أي ما به شيء . ولا يستعمل إلا في النفي . والقَلَبَةُ : داء أو ألم يتقلب منه صاحبه . قال في النهاية : « أي ألم وعلة» (٤/ ٩٨).

(٢) رواه البخاري ـ واللفظ له ـ في الإجارة ، باب : ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب ، ح : ٢٢٧٦ (الفتح ٤/ ٥٢٩) ، والطب ، باب : الرقى بفاتحة الكتاب ، ح : ٥٧٣٦ (الفتح ٤/ ٥٢٩) ، وفي الطب ، باب : الرقى بفاتحة الكتاب ، ح : ٥٧٣٦ (الفتح ١٠/ ٢٠٨) ، وفي فضائل القرآن ، باب : فضل فاتحة الكتاب ، ح : ٥٠٠٦ ، ورواه مسلم في السلام ، ح : ٢٢٠١ (٤/ ١٧٢٧) ، ورواه أبو داود في البيوع (٣٧) ، والطب (١٩) ، والترمذي في الطب (٢٠) ، وابن ماجه في التجارات (٧) ، وأحمد في المسند (٣/ ٨٣).

(٣) مرض وبائي يسبب حمى وبقعاً حمراء في الجلد . انظر : المنجد ، مادة (ح م ر).

عنقي خيطاً ، قال : ما هذا الخيط ؟! قالت : قلت : خيط رقي لي فيه . قالت : فأخذ فقطعه ، ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الرقى والتمائم والتولة شرك... الحديث** »[١] .

٢ ـ عن عوف بن مالك الأشجعي قال : كنا نرقي في الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله ﷺ ؛ كيف ترى في ذلك ؟ فقال : « **اعرضوا علي رقاكم ، لا بأس بالرقى مالم يكن فيها شرك** »[٢] .

هل تنافي الرقية التوكل أو تقدح فيه ؟ :

للعلماء في هذه المسألة ثلاثة أقوال ، نجملها فيما يلي :

الأول :

ذهب بعض العلماء إلى كراهية الرقية والكي من بين سائر الأدوية ، وزعموا أنهما قادحان في التوكل . وبَوَّب على ذلك الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه في كتاب الطب ، قال : باب (من لم يرق)[٣] ، وعمدتهم في ذلك : حديث ابن عباس ـ المتقدم ـ في وصف السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب .

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٨١) ، وأبو داود مختصراً في الطب ، في تعليق التمائم ، ح : ٣٨٦٥ (عون ١٠/ ٣٦٧) ، وابن ماجه في الطب ، باب : تعليق التمائم ، ح : ٣٥٣٠ (٢/ ١١٦٧) ، والبغوي في شرح السنة (١٢/ ١٥٦) ، وابن ماجه في صحيحه (الموارد ح١٤١٢ ص ٣٤٢) ، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤١٧) ، وصححه ووافقه الذهبي . وحسنه الفهيد في النهج السديد ، ص(٥٩).

(٢) رواه مسلم في السلام ، باب : لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك ، ح : ٢٢٠٠ (٤/ ١٧٢٧) .

(٣) انظر : البخاري مع الفتح (١٠/ ٢٢٢).

قال الحافظ ابن حجر : « فتمسك بهذا الحديث من كره الرقى والكي من بين سائر الأدوية ، وزعم أنهما قادحان في التوكل دون غيرهما»[(١)] .

الثاني :

وذهب بعضهم إلى خلاف ذلك ، وأنها لا تنافي التوكل ، ولا تقدح في كماله ، مستدلين بفعل النبي ﷺ ، وقوله ، وتقريره ، الدال على جواز الرقية مكتملة الشروط ، وسبق ذكرها ، وأجابوا على استدلال الطائفة الأولى بهذا الحديث بعدة أجوبة ذكرها الحافظ ابن حجر [(٢)] ، ومنها :

١ ـ ما قاله الطبري والمازري وطائفة ؛ أنه محمول على من جانب اعتقاد الطبائعيين في أن الأدوية تنفع بطبعها ، كما كان أهل الجاهلية يعتقدون ، وقال غيره : الرقى التي يحمد تركها ما كان من كلام الجاهلية ، ومن الذي لا يعقل معناه ، لاحتمال أن يكون كفراً ، بخلاف الرقى بالذكر ونحوه.

وتعقبه عياض وغيره بأن الحديث يدل على أن للسبعين ألفاً مزية على غيرهم ، وفضيلة انفردوا بها عمن شاركهم في أصل الفضل والديانة ، ومن كان يعتقد أن الأدوية تؤثر بطبعها ، أو يستعمل رقى الجاهلية ونحوها ، فليس مسلماً .

٢ ـ قال الداودي وطائفة : إن المراد بالحديث : الذين يجتنبون فعل ذلك في الصحة خشية وقوع الداء ، وأما من يستعمل الدواء بعد وقوع الداء به فلا . وأشار الحافظ إلى أنه اختيار ابن قتيبة وابن عبد البر[(٣)] .

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٢٢).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٢٢٢).

(٣) فتح الباري (١٠/ ٢٢٢).

وأجاب عليه بأنه معترض بما قدمته من ثبوت الاستعاذة قبل وقوع الداء[(١)] .

٣ ـ قال الحليمي : يحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المذكورين في الحديث من غفل عن أحوال الناس وما فيها من الأسباب المعدة لدفع العوارض ، فهم لا يعرفون الاكتواء ، ولا الاسترقاء ، وليس لهم ملجأ فيما يعتريهم إلا الدعاء ، والاعتصام بالله والرضا بقضائه ، فهم غافلون عن طب الأطباء ، ورقى الرقاة ، ولا يحسنون من ذلك شيئاً . والله أعلم .

٤ ـ أن المراد بترك الرقى والكي، الاعتماد على الله في دفع الداء والرضا بقدره ، لا القدح في جواز ذلك ؛ لثبوت وقوعه في الأحاديث الصحيحة وعن السلف الصالح ، لكن مقام الرضا والتسليم أعلى من تعاطي الأسباب. وإلى هذا نحا الخطابي ومن تبعه .

قال ابن الأثير : هذا من صفة الأولياء المعرضين عن الدنيا وأسبابها وعلائقها[(٢)] .

قال النووي : « الظاهر من معنى الحديث ما اختاره الخطابي ومن وافقه، كما تقدم »[(٣)] .

وهذا ينبغي أن يحمل على ترك أسباب التداوي المكروهة[(٤)] والموهومة لاترك الأسباب بالكلية؛ لأن تركها قدح في الشرع ، كما تقدم .

وليس في الحديث ما يدل على ترك الأسباب البتة ،قال الشيخ سليمان

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٢٢).
(٢) فتح الباري (١٠/ ٢٢٢).
(٣) شرح النووي لصحيح مسلم (٣/ ٩١).
(٤) الرقى على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة ص (٢١).

ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله تعالى : « اعلم أن الحديث لا يدل عي أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً ، كما يظنه الجهلة ؛ فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري ، لا انفكاك لأحد عنه ، حتى الحيوان البهيم ، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب ، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾[1] أي كافيه .

إنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة - مع حاجتهم إليها - توكلاً على الله، كالاسترقاء والاكتواء ، فتركهم له ليس لكونه سبباً لكن لكونه مكروهاً ، لاسيما والمريض يتشبث بما يظنه سبباً لشفائه ، بخيط العنكبوت ، أما نفس مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهة فيه ، فغير قادح في التوكل ، فلا يكون تركه مشروعاً »[2] .

الثالث:

وذهب شيخ الإسلام رحمه الله ومن وافقه إلى التفريق بين فعل الرقية - سواء بنفسه أو بغيره - وبين طلبها .

واحتج لذلك بأن لفظ الحديث ورد في معظم الروايات بلفظ «يسترقون» من الاستفعال ، وهو طلب الفعل ، أما ما ورد في رواية سعيد بن منصور عند مسلم « ولا يرقون» فقد قال عنه شيخ الإسلام : « وهو غلط ؛ فإن رقياهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة ، وكان النبي ﷺ يرقي نفسه وغيره ، ولم يكن يسترقي ، فإن رقيته نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره . وهذا مأمور به »[3] . ولأن الراقي محسن لأخيه .

---

(١) سورة الطلاق ، آية : ٣

(٢) تيسير العزيز الحميد ، ص (١١١).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ١٨٢) ، وانظر : (١/ ٣٢٨) و (٢٧/ ٦٨).

وقد قال النبي ﷺ : « **من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه**»(١) .

والفرق بين الراقي والمسترقي أن المسترقي سائل مسقط ، ملتفت إلى غير الله بقلبه ، والراقي محسن نافع(٢) .

قال ابن القيم : « والنبي ﷺ لا يجعل ترك الإحسان المأذون فيه سبباً للسبق إلى الجنان ، وهذا بخلاف ترك الاسترقاء ، فإنه توكل على الله ورغبة عن سؤال غيره ، ورضا بما قضاه الله»(٣) .

وقد اعترض على شيخ الإسلام بما يلي :

١ ـ أن الزيادة من الثقة مقبولة ، وسعيد بن منصور حافظ ، وقد اعتمده البخاري ومسلم . واعتمد مسلم على روايته هذه .

٢ ـ وبأن تغليط الراوي مع إمكان تصحيح الزيادة لا يصار إليه .

٣ ـ والمعنى الذي حمله على التغليط موجود في المسترقي ، فكما أن الذي لا يطلب غيره أن يرقيه تام التوكل فكذا يقال له : والذي يفعل به ذلك ينبغي ألا يمكنه منه لأجل تمام التوكل .

٤ ـ وليس في وقوع ذلك من جبريل دلالة على المدعى ، ولا في فعل النبي ﷺ دلالة ؛ لأنه في مقام التشريع وتبيين الأحكام(٤) .

وقد أجاب على هذه الاعتراضات الشيخ سليمان بن عبد الله ابن الشيخ

---

(١) رواه مسلم في السلام ، باب : استحباب الرقية من العين . . . ح : ٢١٩٩ ، وأحمد (٣/ ٣١٥ ، ٣٣٤ ، ٣٨٢ ، ٣١٣).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٨٧) ، وانظر : فتح الباري (١١/ ٤١٦) .

(٣) نفس المصدر (٢/ ٥٨٧).

(٤) انظر : فتح الباري (١١/ ٤١٧).

محمد بن عبد الوهاب بما يلي :

١ ـ أن هذه الزيادة لا يمكن تصحيحها إلا بحملها على وجوه لا يصح حملها عليها ، كقول بعضهم : المراد : لا يرقون بما كان شركاً أو احتمله ، فإنه ليس في الحديث ما يدل على هذا أصلاً ، وأيضاً فعلى هذا لا يكون للسبعين [ألفاً] مزية على غيرهم ، فإن جملة المؤمنين لا يرقون بما كان شركاً.

٢ ـ قوله : فكذا قال . . . إلخ لا يصح هذا القياس ، فإنه من أفسد القياس ، وكيف يقاس من سأل وطلب على من لم يسأل ؟ مع أنه قياس مع وجود الفارق الشرعي ، فهو فاسد الاعتبار لأنه تسوية بين ما فرق الشارع بينهما بقوله : « **من اكتوى واسترقى فقد برئ من التوكل**»(١) . . . وكيف يجعل ترك الإحسان إلى الخلق سبباً للسبق إلى الجنان؟! وهذا بخلاف من رقى أو رقي من غير سؤال . فقد رقى جبريل النبي ﷺ ، ولا يجوز أن يقال إنه عليه السلام لم يكن متوكلاً في تلك الحال .

٣ ـ قوله : ليس في وقوع ذلك من جبريل عليه السلام . . . إلخ ، كلام

---

(١) الحديث رواه الترمذي في الطب . باب : ما جاء في كراهية الرقية ، ح: ٢٠٥٥ (٤/ ٣٩٣)، وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه ابن ماجه في الطب ، باب : في الكي، ح: ٣٤٨٩ (٢/ ١١٥٤) وأحمد في المسند (٤/ ٢٤٩، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٤) ، وابن حبان في صحيحه ، ووافقه الذهبي ، وابن أبي الدنيا في التوكل ، ح: ٤٣ ، والبيهقي في شعب الإيمان ، ح: ١١٦٦ (٢/ ٦١) بنحوه ، وحسنه البغوي في شرح السنة (١٢/ ١٦٠) ، وصححه المناوي ، كما في التيسير (٢/ ٤٠٤)، والألباني كما في الصحيحة ،ح: ٢٤٤ (١/ ٩١) ، وضعفه الفهيد كما في النهج السديد ص(٤٣)، ح: ٧٠.

غير صحيح بل هما سيدا المتوكلين ، فإذا وقع ذلك منهما دل على أنه لا ينافي التوكل[(١)] .

وسبب عدم طلبهم الرقية من غيرهم لما يلي :

١ ـ لقوة اعتمادهم على الله .

٢ ـ لعزة نفوسهم عن التذلل لغير الله .

٣ ـ لما في ذلك من التعلق بغير الله[(٢)] .

ولا شك أن هذا من كمال تحقيق توكلهم على الله عز وجل .

وهذا مما يدل على الفرق بين فعل الرقية وطلبها ، فيكون الطلب قادحاً دون الفعل ، وهذا هو الذي يدل عليه ظاهر الحديث ، وهو الراجح إن شاء الله تعالى .

ويشهد له حديث المغيرة بن شعبة عن أبيه ـ المتقدم ـ أن النبي ﷺ قال : «**من اكتوى أو استرقى ، فقد برئ من التوكل**»[(٣)] .

ومع ذلك فقد جاء الأمر الصريح منه ﷺ بالاسترقاء :

١ ـ كما في حديث عائشة قالت : أمرني النبي ﷺ ـ أو أمر ـ أن يسترقى من العين[(٤)] .

---

(١) تيسير العزيز الحميد ، ص(١٠٩).

(٢) القول المفيد لابن عثيمين (١/ ٩٧) .

(٣) تقدم تخريجه قريباً.

(٤) رواه البخاري في الطب ، باب : رقية العين ، ح:٥٧٣٨ (الفتح ١٠/ ٢١٠) ، ومسلم في السلام ، باب : استحباب الرقية من العين ، ح: ٢١٩٥ (٤/ ١٧٢٥) .

٢ ـ حديث أم سلمة : أن الرسول ﷺ قال لجارية رأى بوجهها سفعة ، فقال : « **بها نظرة فاسترقوا لها** »[١] .

٣ ـ وفي حديث أسماء بنت عميس ، قالت : يا رسول الله إن بني جعفر تصيبهم العين ، أفأسترقي لهم ؟ قال : « **نعم ، فلو كان شيء سابق القدر لسبقته العين** »[٢] .

ولكن هذا يحمل على الرخصة ، والترك يحمل على الكمال ، جمعاً بين النصوص ، فإعمالها جميعاً خير من إهمال بعضها .

ثانياً : الاكتواء :

وهو طلب من يكويه ، والكي في أصله جائز ، يدل على ذلك :

١ ـ حديث جابر بن عبد الله : أن النبي ﷺ بعث أبي بن كعب طبيباً ، فقطع له عرقاً وكواه عليه[٣] .

٢ ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قال : رمي أبي يوم الأحزاب على أكحله فكواه رسول الله #[٤] .

٣ ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أيضاً قال : إني سمعت

---

(١) رواه البخاري في الطب ، باب : رقية العين ، ح :٥٧٣٨ (الفتح ١٠/ ٢١٠) ، ومسلم في السلام ، باب : استحباب الرقية من العين ، ح :٢١٩٧ (٤/ ١٧٢٥) .

(٢) رواه الترمذي في الطب ، باب : ما جاء في الرقية ح : ٢٠٥٩ (٤/ ٢٩٥) ، وقال : حسن صحيح . وصحح إسناده الأرناؤوط في تخريجه لشرح السنة للبغوي (١٢/ ١٦٢) .

(٣) أخرجه مسلم في السلام ، باب : لكل داء دواء ، ح : ٢٢٠٧ (٤/ ١٧٣٠) ، وابن ماجه في الطب . باب : من اكتوى ، ح :٣٤٩٣ (٢/ ١١٥٦) .

(٤) رواه مسلم في السلام ، باب : لكل داء دواء ، ح ٢٢٠٧ (٤/ ١٧٣٠) .

رسول الله ﷺ يقول : « **إن كان في شيء من أدويتكم خيرٌ ففي شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو لذعة نار**»[١] .

٤ ـ وعن أنس رضي الله عنه : أنه كـوي من ذات الجنب ، والنبي ﷺ حي[٢].

وورد عنه ﷺ ما يدل على عدم محبته الكي ؛ حيث قال في حديث جابر : «**وما أحب أن أكتوي**»[٣] .

وورد عنه ﷺ ما يدل على النهي عنه ، كما في قوله : « **وأنا أنهى أمتي عن الكي**»[٤] .

وفي رواية الترمذي عن عمران بن الحصين رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ نهى عن الكي[٥] .

قال ابن القيم رحمه الله : « فقد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع :

أحدها : فعله ، والثاني : عدم محبته له ، والثالث : الثناء على من تركه ، والرابع : النهي عنه» .

---

(١) رواه البخاري في الطب ، باب : الحجامة مع الشقيقة والصداع ، ح : ٥٧٠٢ (الفتح ١٠/ ١٦٢) ، ومسلم في السلام ، باب : لكل داء دواء ، واستحباب التداوي ، ح : ٢٢٠٥ (٤/ ١٧٣٠) .

(٢) رواه البخاري في الطب ، باب : ذات الجنب ، ح : ٥٧٢١ (١٠/ ١٨٢) ، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس في الطب ، باب : في الكي ، ح : ٣٤٩١ (٢/ ١١٥٥) بنحوه .

(٣) رواه البخاري في الطب ، باب : الحجامة ، ح : ٥٧٢١ (الفتح ١٠/ ١٦٢) .

(٤) رواه ابن ماجه في الطب ، باب : الكي ح : ٣٤٩١ (٢/ ٩١١٥٥) .

(٥) رواه الترمذي في الطب، باب : ما جاء في كراهية التداوي بالكي ، ح : ٢٠٤٩ (٤/ ٣٨٩) ، وقال : حسن صحيح ، ورواه الطحاوي في مشكل الآثار ٢/ ٣٨٥ ورجاله ثقات ، ورواه أبوداود في الكي ، ح : ٣٨٤٧ (عون ١٠/ ٣٤٤) ، وابن ماجه في الطب ، باب في الكي ، ح : ٣٤٩٠ (٢/ ١١٥) .

قال : « ولا تعارض بينها بحمد الله ، فإن فعله يدل على جوازه ، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه ، وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل ، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة ، أو عن النوع الذي لا يحتاج إليه بل يفعله خوفاً من حدوث الداء ، والله أعلم »(١) .

وقد ذكر ابن قتيبة أن : « الكي جنسان : كي الصحيح لئلا يعتل ، كما يفعله كثير من أمم العجم ، فإنهم يكوون ولدانهم وشبانهم من غير علة ، يرون أن ذلك الكي يحفظ لهم الصحة ، ويدفع عنهم الأسقام . . » ، قال : وهذا هو الأمر الذي أبطله الرسول ﷺ ، وقال فيه : « **لم يتوكل من اكتوى** »، لأنه ظن أن اكتواءه وإفزاعه الطبيعة بالنار وهو صحيح ، يدفع عنه قدر الله تعالى . . . وأما الجنس الآخر ، فكي الجرح إذا نغل ، وإذا سال دمه فلم ينقطع ، وكي العضو إذا قطع ، أوحسمه . . . وهذا هو الكي الذي قال النبي ﷺ : « **إن فيه الشفاء** » »(٢) .

وأما إذا كان الكي للتداوي الذي يجوز أن ينجع ، ويجوز ألا ينجع ؛ فإنه إلى الكراهية أقرب(٣) .

وعن عمران بن حصين أن النبي ﷺ نهى عن الكي ، قال : « فابتلينا فاكتوينا ، فما أفلحنا ولا أنجحنا »(٤) .

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٦٦).

(٢) تأويل مختلف الحديث ص(٣٢٩-٣٣٢) .

(٣) زاد المعاد (٤/ ٦٥).

(٤) رواه الترمذي في الطب ، باب : ما جاء في كراهية التداوي بالكي ، ح : ٢٠٤٩ (٤/ ٣٨٩)، وقال : حسن صحيح ، ورواه أبو داود في الكي ، ح : ٣٨٤٧ (عون ١٠/ ٣٤٤) ، وابن ماجه في الطب ، باب : في الكي ، ح : ٣٤٩٠ (٢/ ١١٥٤).

قال ابن سيرين : سقى بطن عمران ثلاثين سنة ، كل ذلك يعرض عليه الكي فيأبى حتى كان قبل موته بسنتين فاكتوى[(١)] .

وقال عمران : « وقد كان يسلَّم علي - يعني الملائكة - حتى اكتويت ؛ فتُركتُ ، ثم تَرَكْتُ الكي ؛ فعاد»[(٢)] .

قال ابن التين : « الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله هو الطب الروحاني ، إذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله تعالى . فلما عز هذا النوع فزع الناس إلى الطب الجسماني ، وتلك الرقى المنهي عنها التي يستعملها المعزم وغيره ممن يدعي تسخير الجن له ، فيأتي بأمور مشتبهة مركبة من حق وباطل ، يجمع إلى ذكر الله وأسمائه ما يشوبه من ذكر الشياطين والاستعانة بهم ، والتعوذ بمردتهم »[(٣)] . والكي من الطب الجسماني المحسوس .

حكم التداوي : وهل ينافي التوكل؟

وهذا يجرنا إلى الكلام على حكم التداوي ، والأصل فيه : الجواز ؛ فإن من هديه ﷺ فعل التداوي في نفسه ، والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه[(٤)] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ٢٨٨) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٥١١) ، وقد كان مصاباً بمرض البواسير رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم في الحج ، ح:١٢٢٦ (٢/ ٨٩٩) ، وأحمد في المسند (٤/ ٤٢٧) ، وابن سعد في الطبقات (٤/ ٢٩٠) ، والذهبي في السير (٢/ ٥٠٩).

(٣) فتح الباري (١٠/ ٢٠٧) .

(٤) زاد المعاد (٤/ ١٠).

ومما يدل على ذلك :

١ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء**»[١] . وفي رواية ابن مسعود زيادة : « **عَلِمَه من علمه ، وجَهِلَه من جهله**»[٢] .

٢ ـ حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « **لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله**»[٣] .

قال ابن القيم : « فيه تقوية لنفس المريض والطبيب ، وحث على طلب ذلك الدواء ، والتفتيش عليه »[٤] .

٣ ـ عن أسامة بن شريك ، قال : كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب ، فقالوا : يا رسول الله ؛ أنتداوى ؟ فقال : « **نعم يا عباد الله تداووا ، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء ، غير داء واحد**. قالوا : ما هو ؟ . قال : **الهرم**»[٥] .

---

(١) أخرجه البخاري في الطب ، باب : ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ، ح : ٥٦٧٨ (الفتح ١٠/ ١٤١) ، وابن ماجه في الطب . باب : ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ، ح : ٣٤٣٩ (٢/ ١١٣٨) .

(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٧٨) ، ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٩٦ ، ١٩٧) .

(٣) أخرجه مسلم في السلام ، باب : لكل داء دواء ، واستحباب التداوي ، ح : ٢٢٠٤ (٤/ ١٧٢٩) .

(٤) زاد المعاد (٤/ ١٧) .

(٥) رواه أحمد (٤/ ٢٧٨) ، وابن ماجه في الطب ، باب : ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ، ح : ٣٤٣٦ (٢/ ١١٣٧) ، وأبو داود في الطب ، باب : الرجل يتداوى ، ح : ٣٨٣٧ (عون ١٠/ ٣٣٤) ، والترمذي في الطب ، باب : ما جاء في الدواء والحث عليه ، ح : ٢٠٣٨ (٤/ ٣٨٣) ، وقال : حسن صحيح ، وصححه ابن حبان (موارد ح : ١٣٩٥ ، ص٣٣٩) والبوصيري في زوائده ، ح : ١٩٢٤ ص (٤٧٥) .

٤ ـ وعن أبي خزامة قال : قلت : يا رسول الله ، أرأيت رقى نسترقيها ، ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال : « **هي من قدر الله** »[١] .

قال ابن القيم : « وقد أجابهم النبي # بما شفى وكفى ، فقال : هذه الأدوية والرقى والتقى هي من قدر الله ، فما خرج شيء عن قدره ، بل يرد قدره بقدره ، وهذا الرد من قدره ، فلا سبيل إلى الخروج عن قدره بوجه ما ، وهذا كرد قدر الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها ، وكرد قدر العدو بالجهاد ، وكلٌّ من قدر الله ؛ الدافع والمدفوع والدفع » .

قال : « قد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات وإبطال قول من أنكرها . . . وفي الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوي وأنه لا ينافي التوكل ، كما لا ينافيه دفع داء الجوع ، والعطش ، والحر ، والبرد ، بأضدادها . . وفيها رد على من أنكر التداوي ؛ وقال : إن كان الشفاء قد قدر ؛ فالتداوي لا يفيد ، وإن لم يكن قد قدر فكذلك . . . »[٢] .

ولا يجوز التداوي بمحرم إلا عند الضرورة ـ والضرورة تقدر بقدرها ـ ولتفصيل ذلك مقام ليس هذا محله ـ وذلك فيما كان محرماً كالميتة والخنزير ، أما الشرك والكفر ، فلا خلاف في عدم جواز التداوي به

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٢١) ، والترمذي في الطب ، باب : ما جاء في الرقى والأدوية ح : ٢٠٦٦ (٤/ ٣٩٩) ، وابن ماجه في الطب ، باب : ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ، ح : ٣٤٣٧ (٢/ ١١٣٧) .

(٢) زاد المعاد (٤/ ١٤ـ١٦) .

بحال[١] .

ومما يدل على ذلك ما يلي :

١ ـ ما روى مسلم وغيره بإسناده إلى طارق بن سويد قال : سأل النبي ﷺ عن الخمر يصنعها للدواء ، فقال : « **إنها ليست بدواء ، لكنها داء** »[٢] .

٢ ـ وعن أم سلمة قالت : «اشتكت ابنة لي ، فنبذت لها في كوز ، فدخل النبي ﷺ ، وهو يغلي ، فقال : « **ما هذا؟** » فقلت : إن ابنتي اشتكت فنبذت لها هذا ، فقال ﷺ : « **إن الله لم يجعل شفاءكم في حرام** »[٣] .

٣ ـ وعن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال : « **إن الله أنزل الداء والدواء ، وجعل لكل داء دواء ، فتداووا ، ولا تداووا بحرام** »[٤] .

وقد اختلف العلماء في التداوي هل هو مباح ، وتركه أفضل ؟ أم

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٦١) .

(٢) رواه مسلم في الأشربة ، باب : تحريم التداوي بالخمر ، ح : ١٩٨٤ (٣/ ١٥٧٣) ، وأبو داود في الأدوية المكروهة ، ح : ٣٨٥٦ (عون ١٠/ ٣٥٤) وابن ماجه في الطب ، باب : النهي أن يتداوى بالخمر ، ح : ٣٥٠٠ (٢/ ١١٥٧) ، والترمذي في الطب ، باب : كراهة التداوي بالمسكر ، ح : ٢٠٤٦ (٤/ ٣٨٧) ، وقال : حسن صحيح ، والدارمي في مسنده في الأشربة ، باب : ليس في الخمر شفاء ، ح : ٢١٠١ (٢/ ٣٨) ، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٤) .

(٣) رواه البيهقي (١٠/ ٥) ، وابن حبان (الموارد ، ح : ١٣٩٧ ص ٣٣٩) ، وذكره البخاري عن ابن مسعود .

(٤) رواه أبو داود في الأدوية المكروهة ، ح : ٣٨٢٥ (عون ١٠/ ٣٥١) ، وفي إسناده إسماعيل ابن عياش ، ثقة في الشاميين ، ضعيف في الحجازيين ، وروايته هنا عن شامي ، وفيه أيضاً : ثعلبة بن مسلم ، قال عنه الحافظ : « مستور » . انظر : التقريب ص(١٨٩) ط أبو الأشبال .

مستحب؟ أم واجب ؟ فالمشهور عند أحمد الأول ،لهذا الحديث، وما في معناه.

والمشهور عند الإمام الشافعي الثاني ، حتى ذكر النووي في شرح مسلم أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف والخلف ، واختاره الوزير ابن المظفر . قال : ومذهب أبي حنيفة أنه مؤكد حتى يداني به الوجوب . قال : ومذهب مالك: أنه يستوي فعله وتركه ، فإنه قال : لا بأس بالتداوي ولابأس بتركه .

وقال شيخ الإسلام : ليس بواجب عند جماهير الأئمة إنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد(١) .

وعلى كلٍّ ؛ فالتداوي من الأسباب التي أمر الله تعالى باتخاذها من غير اعتماد عليها ـ كما تقدم ـ ويختلف حكمه باختلاف الحال كما فصَّل ذلك العلامة ابن عثيمين حفظه الله ؛ حيث قال : « والصحيح :

١ ـ أن ما علم أو غلب على الظن نفعه مع احتمال الهلاك بعدمه؛ فهو واجب .

٢ ـ ما غلب على الظن نفعه ، لكن ليس هناك هلاك محقق بتركه ؛ فهو أفضل .

٣ ـ ما تساوى فيه الأمران ، فتركه أفضل »(٢) .

وبهذا يمكن الجمع بين أقوال الأئمة الآنفة الذكر .

---

(١) تيسير العزيز الحميد ، ص(١١١، ١١٢) .

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ١٠١) الهامش .

ثالثاً : التطير :

الطيرة : بكسر الطاء وفتح الياء ـ وقد يسكن ـ اسم مصدر من تطير طيرة ، كما يقال : تخير خيرة ، ولم يجئ في المصادر هكذا غيرهما .

وأصله من التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما [١] .

وصفته قديماً : أن العرب كانوا إذا أرادوا أمراً نفروا الطير ، فإن طار يمنة تفاءلوا به ، وتيمنوا ومضوا إلى حاجتهم ، وإن طار يسرة ؛ تشاءموا به ، وقعدوا عن حاجتهم .

قال المدائني : « سألت رؤبة ، قلت : ما السانح ؟ قال : ما ولاك ميامنه، قلت : فما البارح ؟ قال : ما ولاك مياسره ، والذي يجيء من أمامك فهو الناطح ، والذي يجيء من خلفك فهو القاعد والقعيد» [٢] .

ثم صار اسماً للتشاؤم بكل مرئي ومسموع ومعلوم[٣] . . . ويدخل فيه التشاؤم بالأسماء والألفاظ والأشخاص والأرقام والألوان والشهور والأيام ونحو ذلك .

قال ابن عبد البر : ثم استعملوا ذلك في كل شيء من الحيوان وغير الحيوان ، فتطيروا من الأعور والأعضب والأبتر . . . وقال الراغب : « ثم يستعمل في كل ما يتفاءل به ويتشاءم»[٤] .

---

(١) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، مادة (ط ي ر) (٣/ ١٥٢) ، ولسان العرب (٤/ ٥١٢) .

(٢) انظر : تيسير العزيز الحميد ص(٤٢١) .

(٣) انظر : القول المفيد (٢/ ٧٧) .

(٤) المفردات ، ص(٣١٠) ، التمهيد (٩/ ٢٨٢) .

ومن صور التطير المعاصرة التشاؤم ببعض الأسماء والأشخاص الذين بهم عاهات، كالعور والعرج ونحوها ، والتشاؤم ببعض الأرقام كرقم سبعة أو ثلاثة عشر ونحوها ، أو ببعض الألوان كالسواد خاصة في أول السنة ، أو ببعض الأيام كالثلاثاء والأربعاء ، أو الشهور كصفر وشوال وغير ذلك .

موقف الإسلام من التطير :

من خلال استقراء النصوص الشرعية ، وأقوال العلماء في مسألة التطير نلاحظ ما يلي :

أولاً : أن التطير من أعمال الجاهلية :

ولذلك لم يذكره الله تعالى في القرآن إلا عن أعدائه ، ومن ذلك :

أ ـ قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾[١] .

وطائرهم هنا : أي ما قضي عليهم وقُدِّر لهم ، أو شؤمهم إنما جاءهم من قبله تعالى[٢] .

ب ـ وقوله تعالى : ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ** ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ** ﴾[٣] .

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٣١ .

(٢) انظر تفسيرها في زاد المسير (٣/ ١٦٨) بنحوه .

(٣) سورة يس ، آيات : ١٣ ـ ١٩ .

جـ- وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾(١) .

ثانياً : أن الطيرة من المحرمات الشركية :

ومما يدل على ذلك :

أ- حديث ابن مسعود رضي الله عنه يرفعه : « **الطيرة شرك ، الطيرة شرك** » وما منا إلا . . . ولكن الله يذهبه بالتوكل(٢) .

ب- حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « **من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك** » . قالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : « أن تقول : **اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك** »(٣) .

جـ- وعن قطن بن قبيصة عن أبيه أن النبي ﷺ قال : « **العيافة والطَّرْق والطيرة من الجبت** »(٤) .

---

(١) سورة النمل ، الآيات : ٤٥-٤٧ .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) رواه أحمد (٢/ ٢٢٠) ، وابن السني (٢٩٣) عن عبد الله بن عمرو ، وعزاه الهيثمي للطبراني أيضاً (٥/ ١٠٥) ، وقال : « فيه ابن لهيعة وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات » . وصحح إسناده الشيخ الألباني وتابعه ابن وهب ، وهو ممن رووا عن ابن لهيعة قبل اختلاطه ، وقدصرح ابن لهيعة بالتحديث ، فانتفت شبهة التدليس . انظر : السلسلة الصحيحة ، ح: ١٠٦٥ (٣/ ٥٤) ، والنهج السديد ص(١٦٣) .

(٤) رواه عبد الرزاق في المصنف في باب الطيرة ح : ١٩٥٠٢ (١٠/ ٤٠٣) وعنه البغوي في شرح السنة (١٢/ ١٧٧) ورواه أبو داود في باب : في الخط وزجر الطير ، ح : ٣٨٨٩ (عون ١٠/ ٤٠٣) ، وابن حبان كما في الموارد ، ح:١٤٢٦ (ص٣٤٥) . قال المنذري : وأخرجه النسائي . وحسنه النووي ، وفيه حيان أبو العلاء لم يوثقه غير ابن حبان .

ثالثاً : أنه لا ارتباط بين الأعيان المتطير بها وبين جلب المنافع ودفع المضار :

قال القرطبي : « قال علماؤنا : وأما أقوال الطير ؛ فلا تعلق لها بما يجعل دلالة عليه ، ولا لها علم بكائن فضلاً عن مستقبل فتخبر به ، ولا في الناس من يعلم منطق الطير ، إلا ما كان الله خص به سليمان ﷺ من ذلك ، فالتحق التطير بجملة الباطل »(١) .

ومما يدل على عدم الارتباط بين تلك الأعيان وبين جلب المنافع ودفع المضار ، ما يلي :

١ ـ حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : « **لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر** »(٢) ، زاد مسلم : « **ولا نوء ولا غول** ».

و(لا) هنا للنفي لا للنهي . والنفي هنا أبلغ ، لأن النفي يدل على البطلان وعدم التأثير ، والنهي إنما يدل على المنع منه (٣) .

٢ ـ حديث أنس عن النبي ﷺ قال : « **لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل** قالوا : وما الفأل ، قال : **الكلمة الطيبة** »(٤) متفق عليه .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٦٦) .

(٢) رواه البخاري في الطب ، باب : لا هامة ، ح: ٥٧٥٧ (الفتح ١٠/ ٢٢٦) ومسلم في كتاب السلام ، ح: ٢٢٢٠، ٢٢٢٢ (٤/ ١٧٤٤) .

(٣) مفتاح دار السعادة ، ص(٥٨٨) ، وانظر : تيسير العزيز الحميد ، ص (٤٢٧) .

(٤) رواه البخاري في الطب ، باب : الفأل ، ح : ٥٧٥٥ بنحوه (الفتح ١٠/ ٢٢٤) ، ومسلم واللفظ له في السلام ، باب : الطيرة ، والفأل : ٢٢٢٤ (٤/ ١٧٤٦) ، أبو داود في الطيرة، ح: ٣٨٩٦ (عون ١٠/ ٤١٣) ، وابن ماجه في الطب ، باب : من كان يحب الفأل ، ح: ٣٥٣٧ (٢/ ١١٧٠) ، وأحمد في مسنده (٣/ ١١٢ ، ١٣٠ ، ١٥٤ ، ١٧٣ ، ١٧٨) بنحوه .

٣ ـ حديث عروة بن عامر ، قال : قال أحمد القرشي : ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ ، فقال : « **أحسنها الفأل ، ولا ترد مسلماً ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك** »[1] .

٤ ـ حديث معاوية بن الحكم السلمي ، قال : قلت : يا رسول الله ؛ إن منا رجالاً يأتون الكهان ؟! قال : « **فلا تأتهم** » . قال : ومنا أناس يتطيرون؟! ، فقال : « **ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه ، فلا يصدنكم** »[2] [3] .

رابعاً : تحريم الالتفات إلى ما يجده الإنسان في نفسه من التطير :

يدل على ذلك :

١ ـ حديث معاوية بن الحكم السلمي المتقدم .

٢ ـ حديث عروة بن عامر المتقدم ، وفيه : « **أحسنها الفأل ، ولا ترد مسلماً** » .

---

(١) رواه أبو داود في الطيرة ، ح : ٣٩٠٠ (عون ١٠/ ٤١٥) ، وفي إسناده مقال ؛ لأنه من رواية حبيب بن أبي ثابت ـ وهو مدلس ، وقد عنعن ـ عن عروة بن عامر ـ وهذا مختلف في صحبته ـ قال الحافظ : « الظاهر أن رواية حبيب عنه ـ أي عن عروة ـ منقطعة » (التهذيب ٧/ ١٨٥) ، وقد رجح المنذري إرساله (عون المعبود ١٠/ ٤١٦) .

(٢) رواه مسلم في السلام باب تحريم الكهانة ، ح : ٥٣٧ (٤/ ١٧٤٨) ، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف ، ح : ١٩٥٠٠ (١٠/ ٤٠٢) .

(٣) قال ابن القيم : فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به ، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لا ما رآه وسمعه ، فأوضح ﷺ لأمته الأمر ، وبين لهم فساد الطيرة ، ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ولا فيها دلالة ، ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه ، لتطمئن قلوبهم ، وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى . . . » مفتاح دار السعادة ص (٥٨١) .

٣ ـ حديث الفضل بن عباس : « **إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك** »[١] .

٤ ـ حديث إسماعيل بن أمية قال : قال رسول الله ﷺ : « **ثلاثة لا يعجزهن ابن آدم : الطيرة ، وسوء الظن ، والحسد . قال : فينجيك من الطيرة ألا تعمل بها ، وينجيك من سوء الظن ألا تتكلم به ، وينجيك من الحسد ألا تبغي أخاك سوءاً** »[٢] .

٥ ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما : « إن مضيت فمتوكل ، و إن نكصت فمتطير »[٣] .

خامساً : نهى النبي ﷺ عن تنفير الطير :

كما في حديث أم كرز الكعبية ، قالت : . . . وسمعت النبي ﷺ يقول : « **أقروا الطير على مِكَنَاتها** »[٤] بكسر الميم ، وقد تفتح . قال القرطبي : هكذا في الحديث ، وأهل العربية يقولون : وكناتها[٥] .

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢١٣) ، وسنده ضعيف لجهالة مسلمة الجهني ، والانقطاع بينه وبين الفضل . التهذيب (٨/ ٢٨٠) ، والنهج السديد ، ص(١٦٣) .

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه ، ح: ١٩٥٠٤ (١٠/ ٤٠٣) ، والبيهقي في شعب الإيمان ، ح: ١١٧٢ (٢/ ٦٣) من طريقه . وهو منقطع ، فإسماعيل بن أمية شيخ معمر ، من السادسة، لم يسمع من النبي # .

(٣) رواه عبد الرزاق في مصنفه ، ح: ١٩٥٠٥ (١٠/ ٤٠٤) .

(٤) رواه أحمد (٦/ ٣٨١) ، وابن حبان كما في الموارد ، ح: ١٤٣١ ، ص(٣٤٥) ، وأبو داود في الأضاحي ، باب : في العقيقة ، ح: ٢٨١٨ (عون ٨/ ٣٦) ، وقال : منقطع ، وأشار إلى انقطاعه البغوي في شرح السنة ، ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٣٧) ، وصححه ووافقه الذهبي ، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٥٩) ، وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ١٠٦) ، وقال : رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها ثقات .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٦٥ .

سادساً : الإخبار عنه ﷺ بأنه كان لا يتطير :

كما في حديث بريدة أن النبي ﷺ كان لا يتطير من شيء[(١)] .

سابعاً : مدح النبي ﷺ لمن ترك التطير :

كما في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وتقدم .

ثامناً : شدة حذر السلف من ذلك :

ومما يدل على ذلك :

١ ـ قول عكرمة : كنا جلوساً عند ابن عباس ، فمر طائر يصيح ، فقال رجل من القوم : خير خير ، فقال ابن عباس : ما عند هذا خير ولا شر[(٢)] .

فبادره ابن عباس بالإنكار عليه، لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر .

٢ ـ وروى عبد الرزاق بإسناده إلى زياد بن أبي مريم ، قال : كان سعد بن أبي وقاص غازياً ، فبينا هو يسير إذ أقبل في وجوههم ظباء يسعين ، فلما اقتربن منهم ولين مدبرات ، فقال له الرجل : انزل أصلحك الله ، فقال له سعد : مم تطيرت؟ أمن قرونها حين أقبلت ، أم من أذنابها حين أدبرت ؟ إن هذه الطيرة لباب من الشرك . قال : فلم ينزل سعد ومضى[(٣)] .

٣ ـ وخرج طاوس مع صاحب له في سفر ، فصاح غراب ، فقال

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٧ ، ٣٤٨) ، وأبو داود في باب في الطيرة ، ح : ٣٩٠١ (عون ١٠/ ٤١٦) بأطول مما هنا ، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٤٠) ، وعزاه المنذري إلى النسائي أيضاً، وحسن الحافظ إسناده كما في الفتح (١٠/ ٢٢٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٦٦) ، وانظر : فتح الباري ١٠/ ٢٢٥.

(٣) المصنف ح : ١٩٥٠٦ (١٠/ ٤٠٤).

الرجل: خير ، فقال طاوس : وأي خير عند هذا ؟ لا تصحبني[١] .

٤ ـ وقال ابن عبد الحكم : لما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة ، قال مزاحم : فنظرت ، فإذا القمر في الدبران ، فكرهت أن أقول له ، فقلت : ألا تنظر إلى القمر ، ما أحسن استواءه في هذه الليلة . قال : فنظر عمر ؛ فإذا هو في الدبران ، فقال : كأنك أردت أن تعلمني أن القمر في الدبران ؛ يا مزاحِم إنا لا نخرج بشمس ولا قمر ، ولكنا نخرج بالله الواحد القهار[٢] .

تاسعاً : نفور ذوي العقول السليمة والطباع المستقيمة منه ، وإن كانوا من أهل الجاهلية :

قال الحافظ ابن حجر : كان بعض أهل الجاهلية ينكر التطير ، ويمدح بتركه[٣] .

قال شاعر منهم[٤] :

وَلَقَدْ غَدَوْتُ وكُنْتُ لا أَغْدُو على وَاقٍ وَحَاتِم[٥]

---

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه ، ح: ٩٥١٣ (١٠/ ٤٠٦) ، وانظر : مفتاح دار السعادة ص (٥٨٩) .

(٢) مفتاح دار السعادة ص (٥٨٩) ، وانظر : تيسير العزيز الحميد ص (٤٢٨) .

(٣) فتح الباري (١٠/ ٢٢٣) .

(٤) قال ابن قتيبة : هذه القصيدة للمُرَقَّش . تأويل مشكل الحديث ص (١٠٦) . وكذلك قاله القرطبي (التفسير ٧/ ٢٦٥) وابن عبد البر في التمهيد (٩/ ٢٨٧) .
وقال المعلق في التأويل : وتروى لخزز بن لوذان السدوسي ، وأولها :
لا يمنعك من بِغا ء الخير تعقاد التمائم
وآخرها :
قد خُط ذلك في الزبو ر الأوَّليات القدائم

(٥) الواق : الصرد . وهو طائر أبقع ضخم الرأس ، نصفه أبيض ونصفه أسود ، والحاتم : الغراب الأسود .

فإذا الأشائم كالأيا ... من والأيامن كالأشائم
وكذاك لا خيرٌ ولا ... شرٌّ على أحد بدائم

وقال آخر[١] :

وليس بِهَيَّاب إذا شَدَّ رحله ... يقول عداني اليومَ واقٌ وحاتُم
ولكنه يمضي على ذاك مقدماً ... إذا صدَّ عن تلك الهنات الخثارم

قال ابن قتيبة : « الخثارم هو الذي يتطير ، والواق : الصرد ، والحاتم : الغراب »[٢]

والزَّجْرُ والطَّيْرُ والكُهَّانُ كُلُّهُمُ ... مُضَلِّلُون ، ودون الغيب أقفالُ

وقال آخر :

وما عاجلات الطير تدني من الفتى ... نجاحاً ولا عن ريثهن قصور

وقال آخر :

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع[٣]

عاشراً : بيان كفارة ذلك الإثم لمن وجد في نفسه شيئاً منه :

يدل على هذا حديث ابن عمرو المتقدم : « **من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك** » قالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : **أن تقول : اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك** »[٤] .

---

(١) هو الرقاص الكلبي . قاله السيرافي . عن حاشية تأويل مختلف الحديث ، ص (١٠٦) .
(٢) تأويل مختلف الحديث ص (١٠٦) .
(٣) هذه الأبيات الثلاثة من فتح الباري (١٠/ ٢٢٣ ، ٢٢٤) .
(٤) تقدم قريباً .

فهذا كفارة الطيرة بعد وقوعها .

أما لدفع وقوعها ـ وذلك عندما يجد أثرها في نفسه قبل أن يعمل ـ فقد جاء في حديث عروة بن عامر ـ المتقدم أيضاً ـ عن النبي ﷺ قال : « **أحسنها الفأل ، ولا ترد مسلماً ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك** »(١) .

حادي عشر : الآثار النفسية السلبية للمتطير :

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله : « واعلم أن من كان معتنياً بها قابلاً بها ، كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدره ، وتفتحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويعطاه ، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ، ما يفسد عليه دينه وينكد عليه عيشه ، فالواجب على العبد التوكل على الله ، ومتابعة رسول الله ﷺ ، وأن يمضي لشأنه ، لا يرده شيء من الطير عن حاجته فيدخل في الشرك »(٢) .

وقال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله مبيناً أثر التطير في قلب المتطير :

« أثَّر في قلبه أحد أمرين ؛ أحدهما أعظم من الآخر :

أحدهما :

أن يستجيب لذلك الداعي ، فيترك ما كان عازماً على فعله ، أو بالعكس ؛ فيتطير بذلك وينكص عن الأمر الذي كان عازماً عليه ، فهذا كما

---

(١) تقدم قريباً.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص (٤٢١) .

ترى ، قد علق قلبه بذلك المكروه غاية التعليق ، وعمل عليه وتصرف ذلك المكروه في إرادته وعزمه وعمله ، فلا شك أنه على هذا الوجه أثر على إيمانه وأخل بتوحيده وتوكله ، ثم بعد هذا لا تسأل عما يحدثه له هذا الأمر من ضعف القلب ووهنه وخوفه من المخلوقين ، وتعلقه بالأسباب، وبأمور ليست أسباباً ، وانقطاع قلبه من تعلقه بالله ، هذا من ضعف التوحيد والتوكل، ومن طرق الشرك ووسائله ، ومن الخرافات المفسدة للعقل .

الأمر الثاني :

ألا يستجيب لذلك الداعي ، ولكنه يؤثر في قلبه حزناً وهماً وغماً ، فهذا وإن كان دون الأول ، لكنه شر وضرر على العبد ، وضعف لقلبه ، وموهن لتوكله ، وربما أصابه مكروه ، فظن أنه من ذلك الأمر ، فقوي تطيره، وربما تدرج به إلى الأمر الأول .

فهذا التفصيل يبين لك وجه كراهة الشرع للطيرة وذمها ،ووجه منافاتها للتوحيد والتوكل ، وينبغي لمن وجد شيئاً من ذلك وخاف أن تغلبه الدواعي الطبيعية أن يجاهد نفسه على دفعها ، ويستعين بالله على ذلك ولا يركن إليها بوجه ليندفع الشر عنه »[1] اهـ .

ووجه منافاة التطير للتوحيد والتوكل ، من أمور خمسة :

١ ـ كونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته .

٢ ـ كونها من ادعاء علم الغيب .

---

(١) القول السديد ، ص(٣٢) ضمن المجموعة الكاملة جـ(٣).

٣ ـ فيها التعلق بغير الله تعالى خوفاً وطمعاً .

٤ ـ فيها الاعتماد على الأسباب الوهمية التي لا حقيقة لها ، وإنما يتخيلها الإنسان أسباباً ، وهي ليست بأسباب؛ لا شرعية ولا قدرية ، وهذا ينافي التوكل .

٥ ـ فيها اعتقاد النفع والضرر من غير الله تعالى ،وهذا شرك في الربوبية .

هل التشاؤم من الطيرة الشركية ؟ ، وكيف الجمع بين النصوص الدالة على تحريم الطيرة وبين الأحاديث التي يثبت ظاهرها التشاؤم ؟ :

تقدم تعريف الطيرة بأنها التشاؤم بكل مرئي ومسموع ومعلوم ؛ ولذلك قال الحافظ ابن حجر : « الطيرة والشؤم بمعنى واحد »[١] .

وقد وردت بعض الأحاديث التي يفهم من ظاهرها إثبات الشؤم في بعض الأشياء ، وهذا يُشْكل مع الأحاديث الكثيرة المتقدمة، التي تنفي الطيرة وتأثيرها وتحرم تعاطيها ، ونحن هنا نذكر أقوال العلماء في هذه المسألة الشائكة مع أدلتهم ، ومناقشة هذه الأدلة، للتوصل إلى الراجح في هذه المسألة بإذن الله تعالى .

وقبل ذلك نشير إلى الأحاديث التي يظهر فيها إثبات الشؤم في الأعيان الثلاثة؛ وهي : المرأة والدار والدابة ، وفي بعض الروايات إضافة السيف[٢] ،

---

(١) فتح الباري (٦/ ٧٢) ، (١٠/ ٢٢٣) .

(٢) عن أم سلمة، رواه عبد الرزاق في المصنف ، ح: ١٩٥٢٧ (١٠/ ٤١١) .

وأضاف بعضهم الخادم[١] .

١ ـ حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : سمعت النبي ﷺ ، يقول : « **إنما الشؤم في ثلاثة : في الفرس والمرأة والدابة** »[٢] .

٢ ـ وحديث مالك في الموطأ ، عن يحيى بن سعيد أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ؛ دار سكنّاها والعدد كثير ، والمال وافر ، فقلّ العدد وذهب المال ، فقال النبي ﷺ : « **دعوها ذميمة** » ، وفي رواية : «**ذروها ذميمة**»[٣] .

وقد اختلف العلماء في الجمع بين هذه الأحاديث والأحاديث الناهية عن والنافية للتطير على أقوال شتى ، نجملها في أربعة أقوال ، كما يلي :

الأول : حملوا هذه الأحاديث على ظاهرها ، وقالوا بإباحة التشاؤم من هذه الثلاث ، فتحريم التطير عام ، خص منه هذه الأمور الثلاثة .

وممن ذهب هذا المذهب الإمام مالك ، وابن قتيبة ، والشوكاني .

---

(١) كما في حديث جابر يرفعه . رواه مسلم في السلام ، باب : الطيرة والفأل . . . ح : ٢٢٢٧ (٤/ ١٧٤٨) ، وانظر التمهيد لابن عبد البر (٩/ ٢٧٩) .

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير ، باب : ما يذكر من شؤم الفرس ، ح : ٢٨٥٨ (٦/ ٧١) ، وفي النكاح ، باب : ما يتقى من الشؤم المرأة ح : ٥٠٩٣ (٩/ ٤٠) ، ومالك في الموطأ ، باب : ما يتقى من الشؤم (٢/ ٩٧٢) ، وأبو داود في الطب ، ح : ٣٩٠٣ (١٠/ ٤١٨) .

(٣) رواه الإمام مالك في موطئه (٢/ ٩٧٢) بسند معضل ورواه أبو داود في الطب ، باب : في الطيرة ، ح : ٣٩٠٥ (عون ١٠/ ٤٢٢) عن أنس ، ورواه عبد الرزاق في المصنف ، ح : ١٩٥٢٦ (١٠/ ٤٠٧) والبخاري في الأدب المفرد (٩١٨) بإسناد حسن ، قال ابن عبد البر : هذا حديث محفوظ عن أنس وغيره .

وصححه الشيخ جاسم الفهيد في النهج السديد ص (١٥٨) ، ح : ٣١٩ .

قال الإمام مالك ـ تعليقاً على حديث المرأة المتقدم ـ : « هو على ظاهره ، وإن الدار قد يجعل الله تبارك وتعالى سكناها سبباً للضرر أو الهلاك ، وكذا اتخاذ المرأة المعينة أو الفرس أو الخادم، وقد يحصل الهلاك عنده بقضاء الله تعالى »(١) .

وقال ابن قتيبة : « إن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون ، فنهاهم النبي ﷺ ، وأعلمهم أنه لا طيرة ، فلما أبوا أن ينتهوا ، بقيت الطيرة في هؤلاء الثلاث . . . »(٢) .

قال الحافظ ابن حجر : « فمشى ابن قتيبة على ظاهره ، ويلزم من قوله أن من تشاءم بشيء منها نزل به ما يكره » .

قال القرطبي : « ولا يظن به أنه يحمله على ما كانت الجاهلية تعتقده ، بناء على أن ذلك يضر وينفع بذاته ؛ فإن ذلك خطأ ، وإنما عنى أن هذه الأشياء هي أكثر ما يتطير به الناس ، فمن وقع في نفسه شيء أبيح له أن يتركه ويستبدل به غيره »(٣) .

قال الشوكاني : « والراجح ما قاله مالك ، وهو الذي يدل عليه حديث أنس الذي ذكرنا ـ حديث المرأة ـ فيكون حديث الشؤم مخصصاً لعموم حديث «**لاطيرة**» فهو في قوة : لا طيرة إلا في هذه الثلاث .

وقد تقرر في الأصول أنه يبنى العام على الخاص مع جهل التاريخ، وادعى بعضهم أنه إجماع ، والتأريخ في حديث الطيرة والشؤم

---

(١) نيل الأوطار (٧/ ٢٠٩).

(٢) فتح الباري (٦/ ٧٢).

(٣) المصدر السابق .

مجهول»[١] اهـ .

الثاني : وقالت طائفة : إن أحاديث إثبات الشؤم منسوخة .

قال الحافظ ابن حجر : «حكاه ابن عبد البر»[٢] يعني أنه نسخ بقوله تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ**. . .الآية ﴾[٣] .

قال الحافظ : « والنسخ لا يثبت بالاحتمال لا سيما مع إمكان الجمع ، ولاسيما وقد ورد في نفس الخبر نفي التطير ، ثم إثباته في الأشياء المذكورة. . . »[٤] .

الثالث : وطائفة تأولت حديث الشؤم تأويلات كثيرة ، منها :

١ ـ أن النبي ﷺ ذكر ذلك لبيان اعتقاد الناس في ذلك ، لا أنه إخبار من النبي ﷺ بثبوت ذلك .

وهذا التأويل مردود من وجهين :

أ ـ أن سياق الأحاديث الصحيحة المتقدمة يبعد هذا التأويل .

ب ـ قال ابن العربي : « هذا جواب ساقط ؛ لأن النبي ﷺ لم يبعث ليخبر الناس عن معتقداتهم الماضية والحاصلة ، وإنما بعث ليعلمهم ما يلزمهم أن يعتقدوه »[٥] .

٢ ـ ومنهم من تأوله بأن معنى شؤم المرأة : إذا كانت غير ولود ، وشؤم

---

(١) نيل الأوطار (٧/ ٢٠٩) .
(٢) فتح الباري (٦/ ٧٤) ، وانظر التمهيد (٩/ ٢٩٠) .
(٣) سورة الحديد ، آية : ٢٢ .
(٤) فتح الباري (٦/ ٧٤) .
(٥) فتح الباري (٦/ ٧٣) .

الفرس إذا لم يغز عليها ، وشؤم الدار جار السوء[١] .

وقيل : يحمل ذلك على قلة الموافقة وسوء الطباع .

ويستدلون لذلك بحديث سعد بن أبي وقاص ، قال : قال النبي ﷺ : « **من سعادة ابن آدم ثلاثة ، ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة ؛ من سعادة ابن آدم : المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والمركب الصالح ، ومن شقاوة ابن آدم : المرأة السوء ، والمسكن السوء ، والمركب السوء** »[٢] .

٣ ـ وقيل : على المرء مفارقة هذه الأشياء عند وجود كراهتها في قلبه ، وذلك صيانة لاعتقاده عن التعلق بالباطل ، وسداً للذريعة ؛ حيث يخشى من شدة الكراهة أن يعتقد فيها التطير والشؤم فيقع في المحذور ، فجاز له مفارقتها .

ويمكن أن يستدل لهذا بحديث فروة بن مُسَيْك ، قال : قلت : يا رسول الله ؛ أرض عندنا يقال لها أرض (أبين) ، هي أرض ريفنا وميرتنا ، وإنها وبئة ـ أو قال : وباؤها شديد ـ ، فقال النبي ﷺ : « **دعها فإن من القَرَف التلف** »[٣] ، والقَرَف بالتحريك يعني : مقاربة الوباء ومداناة المرضى ، و(التلف) بوزنه : الهلاك .

٤ ـ وقيل : معنى هذا الحديث أن هذه الأشياء يطول تعذيب القلب بها

---

(١) مفتاح دار السعادة ص ٦١٢ .

(٢) رواه أحمد (١/ ١٦٨) ، وروى نحوه الحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٢) ، وحسنه الألباني في الصحيحة ح : ١٠٤٧ (٣/ ٣٩) .

(٣) رواه أبو داود في الطب . باب : في الطيرة ح : ٣٩٠٤ عون (١٠/ ٤٢٢) قال المنذري : في إسناده رجل مجهول .

مع كراهة أمرها لملازمتها بالسكنى والصحبة ، ولو لم يعتقد الإنسان الشؤم فيها ، فأشار الحديث إلى الأمر بفراقها ليزول التعذيب ، فحمل الشؤم على الكراهة لا على التعذيب الحقيقي .

قال الخطابي : « هو استثناء من غير الجنس ، ومعناه إبطال مذهب الجاهلية في التطير ، فكأنه قال : إن كانت لأحدكم دار يكره سكناها ، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس يكره سيره فليفارقه»[١] .

٥ ـ وقيل : معنى الحديث : إخباره ﷺ عن الأسباب المثيرة للطيرة الكامنة في الغرائز ـ يعني أن المثير للطيرة في غرائز الناس هي هذه الثلاثة ، فأخبرنا بهذا لنأخذ الحذر منها ، فقال : الشؤم في الدار والمرأة والفرس ؛ أي أن الحوادث التي تكثر مع هذه الأشياء والمصائب التي تتوالى عندها، تدعو الناس إلى التشاؤم بها ، فقال : الشؤم فيها ؛ أي أن الله قد يقدره فيها على قوم دون قوم ، فخاطبهم ﷺ بذلك لما استقر عندهم منه ﷺ من إبطال الطيرة وإنكار العدوى[٢] .

٦ ـ وقيل : المخاطب بقوله : «**الشؤم في ثلاث**» ، مَن التزم التطير ولم يستطع صرفه عن نفسه ، فقال لهم : إنما يقع ذلك في هذه الأشياء ، التي تلازم في غالب الأحوال ، فإذا كان كذلك فاتركوها عنكم ، ولا تعذبوا أنفسكم بها .

ويدل على ذلك تصديره بنفي الطيرة ، واستدل عليه بحديث : «لا

---

(١) فتح الباري (٦/ ٧٣ ـ ٧٤).

(٢) مفتاح دار السعادة ص (٦١٣).

طيرة ، والطيرة على من تطير وإن تكن في شيء ففي المرأة ... الحديث»[١] .

قال ابن القيم : «قالت طائفة أخرى : الشؤم في هذه الثلاثة إنما يلحق من تشاءم بها وتطير بها ، فيكون شؤمها عليه ، ومن توكل على الله ولم يتشاءم ولم يتطير لم تكن مشئومة عليه»[٢] .

الرابع : وأنكرت طائفة هذا الحديث وطعنت في ثبوته .

وذلك كما يلي :

١ ـ روى أحمد وابن خزيمة والحاكم من طريق قتادة ، عن أبي حسان أن رجلين من بني عامر دخلا على عائشة ، فقالا : إن أبا هريرة قال : إن رسول الله ﷺ قال : الطيرة في الفرس والمرأة والدار . فغضبت غضباً شديداً، وقالت : ما قاله ، وإنما قال : « **إن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون من ذلك** » .

وفي رواية : فأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك، وقالت: كذب ـ والذي أنزل الفرقان على أبي القاسم ـ من حدّث بهذا ، ولكن رسول الله ﷺ كان يقول: « **كان أهل الجاهلية يقولون : إن الطيرة في المرأة والدار والدابة** » ، ثم

---

(١) رواه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣١٤) ، وابن جرير في تهذيب الآثار ، ح: ٥٢ (١/ ١٩) و٧٣ (١/ ٢٤) ، وابن حبان في صحيحه (موارد ح: ١٤٢٨ ص ٣٢٥) عن أنس، وفيه عتبة بن حميد ضعفه أحمد. وقال ابن أبي حاتم : صالح الحديث . وقال الحافظ في الفتح : في صحته نظر ؛ لأنه من رواية عتبة بن حميد . . . وعتبة مختلف فيه (٦/ ٧٤) ، وانظر: النهج السديد ص (١٥٦) ، لكن يشهد له حديث سعد بن أبي وقاص الوارد تخريجه ص (١٩٢) ، فإسناده حسن .

(٢) مفتاح دار السعادة ص (٦١٢).

قرأت عائشة : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[1] [2] .

٢ ـ وروى أبو داود الطيالسي في مسنده عن محمد بن راشد ، عن مكحول قال : قيل لعائشة : إن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**الشؤم في ثلاثة** ...» فقالت : لم يحفظ ، إنه دخل وهو يقول : « **قاتل الله اليهود يقولون : الشؤم في ثلاثة** ...» فسمع آخر الحديث ، ولم يسمع أوله[3] .

قال الحافظ : « مكحول لم يسمع من عائشة فهو منقطع »[4] .

وقال : « ولا معنى لإنكار ذلك على أبي هريرة مع موافقته من ذكرنا من الصحابة له في ذلك »[5] .

٣ ـ وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سئل : سمعت من رسول الله ﷺ : « الطيرة في ثلاث ؛ في المسكن والفرس والمرأة؟» قال : كنت إذن أقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**أصدق الطيرة الفأل ، والعين حق**»[6] .

---

(١) سورة الحديد ، آية : ٢٢ .

(٢) رواه أحمد (٦/ ٢٤٦) ، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣١٤) ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٧٩) مختصراً وصححه ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي عن إسناد أحمد : رجاله رجال الصحيح . مجمع الزوائد (٥/ ١٠٤) ، وحسن إسناده الشيخ جاسم الدوسري في النهج السديد ، وصححه الألباني في الصحيحة ، ح : ٩٩٣ .

(٣) رواه أبو داود الطيالسي ، ح : ١٥٣٧ ، وإسناده منقطع ، مكحول لم يسمع من عائشة .

(٤) فتح الباري (٦/ ٧٢) .

(٥) نفس المصدر (٦/ ٧٢).

(٦) رواه الإمام أحمد (٢/ ٢٨٩) بإسناد فيه أبو معشر ، وفيه ضعف ، انظر الصحيحة (٢/ ٧٢٦).

٤ ـ وعن ابن أبي مليكة قال : جئت ابن عباس ذات يوم فقلت : إن جاريتي قد وقع في نفسي منها شيء ، وقد زعموا أن النبي ﷺ قال : «**إن يكن في شيء ، ففي الرباع والمرأة والفرس**» فأنكر ابن عباس أن يكون رسول الله ﷺ قاله ، وأن يكون الشؤم في شيء ، وقال : «إن كان وقع في نفسك منها شيء فبعها أو أعتقها»[١] .

وهناك من حمل الرواية المثبتة للشؤم على رؤية ابن عمر الأخرى عند البخاري أيضاً بلفظ : «**إن كان الشؤم في شيء ، ففي الدار والمرأة والفرس**»[٢] ، وغرضهم نفي الشؤم والطيرة بالكلية .

وقد بوب البخاري في الجهاد والسير بقوله : «باب ما يذكر من شؤم الفرس» فقد ذكر حديث ابن عمر : «**إنما الشؤم في ثلاثة ...**» ، ثم أتبعه بحديث سهل بن سعد الساعدي بلفظ : «**إن كان في شيء ، ففي المرأة والفرس والمسكن**»[٣] ، وفي النكاح ذكر اللفظين عن ابن عمر ، ثم ثلث بحديث سهل بن سعد الساعدي[٤] .

قال الطحاوي عند حديث : «**إن تكن الطيرة في شيء ففي المرأة والفرس والدار...**» : «فلم يخبر أنها فيهن ، وإنما قال : إن تكن في شيء ففيهن . أي : لو كانت تكون في شيء لكانت في هؤلاء : فإذا لم تكن في هؤلاء الثلاث فليست في شيء»[٥] ، وذلك لأنه علقه على الشرط ؛ فقال : إن يكن

(١) تهذيب الآثار لابن جرير الطبري ، ح : ٧٢ (١/ ٢٤) .
(٢) في النكاح ، باب : ما يتقى من شؤم المرأة ، ح : ٥٠٩٤ (٩/ ٤٠) .
(٣) الفتح (٦/ ٧١) .
(٤) الفتح (٦/ ٤٠) .
(٥) شرح معاني الآثار (٤/ ٣١٤) .

الشـؤم في شيء ، ولا يلزمـه من صـدق الشـرطيـة صـدق كل واحـد من مفرديها[١] .

قال ابن عبد البر : « فلم يقطع ﷺ في هذا الحديث بالشؤم . . قال : وهذا أشبه في الأصول ؛ لأن الآثار ثابتة عن النبي ﷺ أنه قال : « **لا طيرة ولا شؤم ولا عدوى**»[٢] .

وقال الزركشي : « قال بعض الأئمة : رواية عائشة في هذا أشبه بالصواب إن شاء الله تعالى ، لموافقته نهيه عليه الصلاة والسلام عن الطيرة نهياً عاماً ، وكراهتها ، وترغيبه في تركها . . . »[٣] .

وقال : والصحيح أن المعنى ، إن خيف من شيء أن يكون سبباً لما يخاف شره ، ويتشاءم به ، فهذه الأشياء لا على السبيل التي تظنه الجاهلية من العدوى والطيرة»[٤] .

قال الشيخ الألباني : « والراجح عندي رواية محمد ـ يعني العسقلاني عن ابن عمر ـ هذه ؛ لأن لها شواهد صحيحة ، وقد تابعه عليها حمزة بن عبد الله بن عمر عند مسلم (٧/ ٣٤) والطحاوي (٢/ ٣٨١)[٥] . وذكر من هذه الشواهد :

---

(١) مفتاح دار السعادة (ص٦١١).

(٢) التمهيد (٩/ ٢٧٩) .

(٣) الإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة ص (١١٥) ، تحقيق سعيد الأفغاني . ط . ثانية ١٣٩٠هـ ، ن. المكتب الإسلامي .

(٤) نفس المصدر (ص١١٦ـ١١٧) .

(٥) السلسلة الصحيحة (٢/ ٤٥٠).

١ ـ حديث سهل بن سعد الساعدي في البخاري بلفظ : « **إن كان الشؤم في شيء ففي ...** » وذكره وتقدم قريباً .

٢ ـ حديث سعد بن أبي وقاص . قال سعيد بن المسيب : سألت سعد بن أبي وقاص عن الطيرة ، فانتهرني ، وقال : من حدثك ؟ فكرهت أن أحدثه من حدثني ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا عدوى ولا طيرة ولاهام ، إن تكن الطيرة في شيء ففي الفرس والمرأة والدار ، وإذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تهبطوا ، وإن كان بأرض وأنتم فيها فلا تفروا عنه** »[(١)] .

٣ ـ حديث أنس مرفوعاً مثله[(٢)] .

٤ ـ حديث أبي سعيد مرفوعاً مثله دون لفظة : « **ولا هام** »[(٣)] .

٥ ـ حديث جابر مرفوعاً بنحو حديث سهل [(٤)] .

٦ ـ حديث حكيم بن معاوية مرفوعاً بلفظ : لا شؤم ، وقد يكون اليمن في ثلاثة . . . فذكره[(٥)] .

---

(١) رواه أحمد (١٨٠١) ، وأبو داود في الطيرة ، ح : ٣٩٠٢ (عون ١٠/ ٤١٨) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣١٤) بدون : « **وإذا سمعتم ...** » وهو رواية أخرى لأحمد (١/ ١٧٤) ، والحديث صححه الشيخ الألباني كما في السلسلة الصحيحة ، ح : ٧٨٩ .

(٢) تقدم تخريجه ، وإسناده حسن .

(٣) أخرجه الطحاوي (٤/ ٣١٤) بإسناد حسن في الشواهد . قاله الألباني في الصحيحة ، ح : ٧٨٩ .

(٤) أخرجه مسلم في السلام ، باب : الطيرة والفأل ، وما يكون من الشؤم ، ح : ٢٢٢٧ (٤/ ٧٤٨) ، والنسائي في الخيل ، باب : شؤم الخيل ، ح : ٣٥٧٠ (٦/ ٢٢٠) .

(٥) أخرجه الترمذي في الأدب ، باب : ما جاء في الشؤم ، ح : ٢٨٢٤ (٥/ ١٢٧) ، وابن ماجه في النكاح ، باب : ما يكون من اليمن والشؤم ، ح : ١٩٩٣ (١/ ٦٤٢) ، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٣٤١) ، قال في الزوائد ـ للبوصيري ـ : إسناده صحيح ورجاله ثقات ، وصححه الألباني كما في الصحيحة ، ح : ١٩٣٠ .

قال الألباني : « وجملة القول أن الحديث اختلف الرواة في لفظه ؛ فمنهم من رواه كما في الترجمة ، ومنهم من زاد عليه في أوله ما يدل على أنه لا طيرة أو شؤم (وهما بمعنى واحد كما قال العلماء) وعليه الأكثرون ، فروايتهم هي الراجحة ؛ لأن معهم زيادة علم ، فيجب قبولها . وقد تأيد ذلك بحديث عائشة»[(١)] .

وقال : « والحديث يعطي بمفهومه أنه لا شؤم في شيء ؛ لأن معناه : لو كان الشؤم ثابتاً في شيء لكان في هذه الأشياء الثلاثة ، لكنه ليس ثابتاً في شيء أصلاً ، وعليه فما في بعض الروايات « **الشؤم في ثلاثة** » أو « **إنما الشؤم في ثلاثة**» فهو اختصار وتصرف من بعض الرواة »[(٢)] ، وقال : « فهذا اللفظ - أي رواية ابن عمر « **الشؤم في ثلاث** » - شاذ مرجوح »[(٣)] .

الخامس: قالوا: إن حديث : « **الشؤم في ثلاث** » لا يدل أصلاً على إثبات الطيرة التي نفاها الله تعالى ، بل هو من قبيل ربط الأسباب بالمسببات .

ومعنى ذلك: أن من تطير وتشاءم، فإن الله قد يجعل ذلك سبباً في وقوع المكروه عليه ، ومن توكل على الله ولم يتشاءم ولم يتطير كان ذلك سبباً في دفع المكروه ، وحصول النفع .

ويدل على ذلك حديث : « **الطيرة على من تطير** »[(٤)] .

قال ابن القيم : « إخباره ﷺ بالشؤم أنه يكون في هذه الثلاثة ليس فيه

---

(١) السلسلة الصحيحة ، ح: ٩٩٣ (٢/ ٧٢٧) .
(٢) السلسلة الصحيحة ، ح: ٤٤٣ (١/ ١٨٣) .
(٣) السلسلة الصحيحة ، ح: ١٩٣٠ .
(٤) تقدم تخريجه ، وفيه ضعف .

إثبات الطيرة التي نفاها الله ، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق أعياناً مشئومة على من قاربها وسكنها ، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر . . . وشبه ذلك بأن الله قد يعطي الوالدين ولداً باراً رحيماً بهم ، وقد يعطيهما ولداً شريراً . . . قال : والله خالق الخير والشر . . . » .

إلى قوله : « والفرق بين هذين النوعين يُدرك بالحس ، فكذلك في الديار والنساء والخيل، فهذا لون ، والطيرة الشركية لون »[١] . اهـ .

قالوا : ويدل على ذلك أنه يشرع لمن استفاد زوجة أو أمة أو دابة أن يسأل الله من خيرها ، وخير ما جبلت عليه ، ويستعيذ من شرها وشر ما جبلت عليه[٢] ، وكذلك ينبغي لمن سكن داراً أن يفعل ذلك[٣] .

لكن قد يعترض على هذا بأن هذا جاء في كل شؤم ، فما وجه خصوصية هذه الثلاثة ؟! .

وجوابه أن أكثر ما يقع التطير في هذه الثلاثة ، فخصت بالذكر

---

(١) مفتاح دار السعادة ، ص(٦١٤) .

(٢) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « **إذا اشترى أحدكم خادماً فليأخذ بناصيتها ، وليقل : اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما جبلتها عليه ...** » رواه أبو يعلى ، وفيه حبان ابن علي ، وقد وثق على ضعفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، قاله الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٤١).

(٣) كما في حديث صهيب أن النبي ﷺ لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها : « **اللهم رب السموات السبع وما أظللن والأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وماذرين ، أسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وأعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها** » خرجه النسائي وابن حبان والحاكم وصححاه ووافقهما الذهبي، وضعفه الألباني ، انظر تخريجه : الكلم الطيب ص ٩٨ ، ح :١٧٨ .

لذلك[١] . والله أعلم .

والذي يبدو - والله تعالى أعلم - أنه ليس في هذه الأحاديث إثبات للشؤم المنهي عنه ، وإنما بعض الأعيان - وخاصة هذه الثلاث المذكورة - قد يجعلها الله تعالى سبباً في وقوع البلاء والضرر على الإنسان ، وليس الشؤم في ذواتها ، وإنما ما قد يجده العبد في نفسه تجاهها ، لذا فأجاز له الشارع مفارقتها حين يجد مضرة عند الاستمرار في مصاحبتها .

أما الشؤم والتطير المنهي عنه فهو محاولة الاستدلال ببعض الأحوال والأعيان والأصوات على أمر غيبي لم يقع بعد ، أما عند وقوع الضرر وتحققه فالإنسان مأمور بترك ما يضره والبحث عما ينفعه ، وليس للقلب في مثل هذه الحالة تعلق بغير الله تعالى أو اعتماد عليه ، الذي هو أصل التشاؤم المنهي عنه . والله تعالى أعلم .

هل الفأل من الطيرة ؟ :

مما لا شك فيه أن الفأل الحسن مشروع ، وكان من هديه ﷺ أنه يعجبه الفأل ، ومن صوره الكثيرة التي وقعت من النبي ﷺ أنه حينما كان في سفر الهجرة لقي رجلاً ، فقال : « **ما اسمك ؟** قال : يزيد ، قال : **يا أبا بكر : يزيد أمرنا** »[٢] .

ولكن لسائل أن يقول : هل الفأل من الطيرة ، وقد استثني من عموم النهي أم ليس منها ؟ على قولين للعلماء ، ولكل دليله ، وهي كالتالي :

الأول : قال : إن الفأل من الطيرة ، وإنما استثني من الحكم ، واحتجوا

---

(١) تيسير العزيز الحميد ، ص(٤٣١) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٦٧) .

لذلك بأحاديث كثيرة من أهمها :

١ ـ حديث أبي هريرة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لا طيرة وخيرها الفأل** . قال : **الكلمة الطيبة يسمعها أحدكم**»[(١)] .

٢ ـ حديث عروة بن عامر ، قال : ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ ، فقال : «**خيرها الفأل ، ولا ترد مسلماً** »[(٢)] .

٣ ـ حديث حابس التميمي أنه سمع النبي ﷺ يقول : « **العين حق ، وأصدق الطيرة الفأل**»[(٣)] .

قال الحافظ : « ففي هذا التصريح بأن الفأل من جملة الطيرة ولكنه مستثنى »[(٤)] .

الثاني : قال : إن الفأل ليس من الطيرة ، واستدلوا لذلك بما يلي :

١ ـ حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبني الفأل الصالح ؛ الكلمة الحسنة** »[(٥)] .

٢ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال : « كان رسول الله ﷺ يعجبه الفأل الحسن ويكره الطيرة »[(٦)] .

---

(١) تقدم نحوه ص (٢٢٠) من حديث أنس .

(٢) تقدم ص(٢٢١) .

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٢٨٩) و(٤/ ٦٧) و (٥/ ٧٠، ٣٧٩) .

(٤) فتح الباري (١٠/ ٢١٤).

(٥) رواه البخاري ومسلم وغيرهما ، وتقدم ص (١٧٥) .

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ١٣٠) و (٢/ ٣٣٢) ، وابن ماجه في الطب ، باب : من كان يعجبه الفأل ، ح:٣٥٣٦ (٢/ ١١٧٠) . قال في الزوائد : إسناده صحيح رجاله ثقات، وحسن الحافظ إسناده (الفتح ١٠/ ٢٢٥) .

٣ـ وعن عكرمة ، عن ابن عباس قال : « كان رسول الله ﷺ يتفاءل ولا يتطير ، ويعجبه الاسم الحسن »[١] .

وأجابوا على الأدلة الأولى التي أضافت الفأل إلى الطيرة ، قالوا : «هذه الإضافة تشعر بأن الفأل من جملة الطيرة ، وليس كذلك ، بل هي إضافة توضيح »[٢] .

قال الحافظ في الفتح : « والحاصل : أن أفعل التفضيل في ذلك ـ يعني : خيرها ، أحسنها ، أصدقها ـ إنما هو يبين القدر المشترك بين الشيئين ، والقدر المشترك بين الطيرة والفأل : تأثير كل منهما فيما هو فيه ، والفأل في ذلك أبلغ »[٣] .

وقال ابن القيم : «أخبر ﷺ في حديث أبي هريرة أن الفأل من الطيرة ، وهو خيرها . . . فأبطل الطيرة ، وأخبر أن الفأل منها ، ولكنه خيرها . ففصل بين الفأل والطيرة ، لما بينهما من الامتياز والتضاد ، ونفع أحدهما ومضرة الآخر .

ونظير هذا منعه من الرقى بالشرك وأذنه في الرقية إذا لم تكن شركاً ، لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة»[٤] .

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ٢٥٧) ، وفيه ليث بن أبي سليم : صدوق اختلط جداً ، ولم يتميز حديثه فترك . انظر التقريب ص (٤٦٤) ، ط. عوامة .
(٢) فتح الباري (١٠/ ٢١٤).
(٣) المصدر السابق.
(٤) مفتاح دار السعادة ص (٦٠١) ، وانظر : التيسير ص (٤٣٦).

ومن الفروق بين الفأل والطيرة :

١ ـ ما ذكره الخطابي قال : « مصدر الفأل عن نطق وبيان ، فكأنه خبر جاء عن غيب ، بخلاف غيره ، فإنه مستند إلى حركة الطائر أو نطقه ، وليس فيه بيان أصلاً ، وإنما هو تكلف ممن تعاطاه»[١] .

٢ ـ إن الفأل من طريق حسن الظن بالله ، والطيرة لا تكون ـ غالباً ـ إلا في السوء ، فلذلك كرهت[٢] . قال القرطبي : « إنما هي من طريق الاتكال على شيء سواه»[٣] .

قال النووي : « الفأل يستعمل فيما يسوء وفيما يسر ، وأكثره في السرور ، والطيرة لا تكون إلا في الشؤم ، وقد تستعمل مجازاً في السرور»[٤] .

وقال ابن القيم : « الفأل والطيرة وإن كان مأخذهما سواء ومجتناهما واحداً فإنهما يختلفان بالمقاصد ويفترقان بالمذاهب ، فما كان محبوباً مستحسناً تفاءلوا به ، وسموه الفأل وأحبوه ورضوه ، وما كان مكروهاً قبيحاً منفراً تشاءموا به ، وكرهوه وتطيروا منه ، وسموه طِيَرة تفرقة بين الأمرين ، وتفصيلاً بين الوجهين »[٥] .

٣ ـ الفأل أن يفعل أمراً أو يعزم عليه ، متوكلاً على الله فيسمع الكلمة الحسنة التي تسره ، مثل أن يسمع : يا نجيح ، يا مفلح ، يا سعيد! ونحو

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٢٥) .
(٢) المصدر السابق (١٠/ ٢٢٥).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٦٠).
(٤) فتح الباري (١٠/ ٢٢٥) .
(٥) مفتاح دار السعادة ص (٦٠١) .

ذلك ، والطيرة بأن يكون قد فعل أمراً متوكلاً على الله ، أو يعزم عليه ، فيسمع كلمة مكروهة مثل : ما يتم ، أو مايفلح ، فيتطير ويترك الأمر ، فهذا منهي عنه (١) .

٤ ـ قال ابن بطال : « جعل الله في فطر الناس محبة الكلمة الطيبة ، والأنس بها ، كما جعل فيهم الارتياح بالمنظر الأنيق والماء الصافي ، وإن كان لا يملكه ولا يشربه »(٢) .

وقال ابن القيم : « وليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة ، وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يلائمها ، ويوافقها مما ينفعها ، كما أخبرهم أنه ﷺ حُبِّبَ إليه من الدنيا النساء والطيب . . وكان يحب الحلوى والعسل »(٣) .

٥ ـ ـ وهو أهمها ـ ما ذكره الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ حيث قال : «والفرق بينهما أن الفأل الحسن لا يخل بعقيدة الإنسان ، ولا بعقله ، وليس فيه تعليق القلب بغير الله ، بل فيه من المصلحة والنشاط والسرور وتقوية النفوس النافعة . . . » قال : « وصفة ذلك أن يعزم العبد على سفر أو زواج أو عقد من العقود أو على حالة من الأحوال المهمة ، ثم يرى في تلك الحال ما يسره ، أو يسمع كلاماً يسره مثل : يا راشد أو سالم أو غانم ، فيتفاءل ، ويزداد طمعه في تيسير ذلك الأمر الذي عزم عليه ، فهذا كله خير وآثاره خير . وليس فيه من المحاذير شيء»(٤) .

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٦٦ ، ٦٧) .

(٢) فتح الباري (١٠/ ٢٢٥) .

(٣) مفتاح دار السعادة ص (٦٠٠) .

(٤) القول السديد في مقاصد التوحيد ص (٣١) ضمن المجموعة الكاملة جـ٣ .

وقال ابن القيم : « فقوله : « **لا طيرة وخيرها الفأل** » ينفي عن الفأل مذهب الطيرة من تأثير أو فعل أو شركه ، ويخلص الفأل منها ، وفي الفرقان بينهما فائدة كبيرة ، وهي أن التطير هو التشاؤم من الشيء المرئي أو المسموع ، فإذا استعملها الإنسان فرجع بها من سرف وامتنع بها مما عزم عليه، فقد قرع باب الشرك ، بل ولجه وبرئ من التوكل على الله ، وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله ،والتطير مما يراه أو يسمعه ، وذلك قاطع له عن مقام ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾[1] ، و﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾[2] ، و﴿ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾[3] .

فيصير قلبه متعلقاً بغير الله عبادة وتوكلاً ؛ فيفسد عليه قلبه وإيمانه وحاله . . . فأين هذا من الفأل الصالح السار للقلوب المؤيد للآمال ، الفاتح باب الرجاء المسكن للخوف الرابط للجأش الباعث على الاستعانة بالله والتوكل عليه والاستبشار المقوي لأمله ، السار لنفسه ، فهذا ضد الطيرة ، فالفأل يفضي بصاحبه إلى الطاعة والتوحيد ، والطيرة تفضي بصاحبها إلى المعصية والشرك فلهذا استحب النبي ﷺ الفأل وأبطل الطيرة»[4] .

ضابط الفرق بين الفأل والطيرة :

ويمكننا بعد ذلك أن نحدد ضابط الفرق بينهما ، والذي يجعل الأمر من الفأل الممدوح لا من التطير المذموم ، وهو كالتالي :

---

(١) سورة الفاتحة ، آية : ٥ .

(٢) سورة هود ، آية : ١٢٣ .

(٣) سورة الشورى ، آية : ١٠ .

(٤) مفتاح دار السعادة ص (٦٠٢) .

١ ـ من شرط الفأل أن لا يقصده المتفائل ، فيكون من الطيرة المنهي عنها .

٢ ـ أن لا يحمله على العمل بموجبه ، فإن عمل به فإنه يعتبر من الطيرة الشركية « **إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك** »[١] ، وذلك لأن القلب في مثل هذه الحالة له اعتماد على غير الله ـ وهو الفأل ـ وهذا شرك .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «فهو في كل واحد من محبته للفأل وكراهته للطيرة إنما يسلك مسلك الاستخارة لله والتوكل عليه والعمل بما شرع له من أسباب ، لم يجعل الفأل آمراً له وباعثاً له على الفعل ، ولا الطيرة ناهية له عن الفعل ، وإنما يأتمر وينتهي عن مثل ذلك أهل الجاهلية الذين يستقسمون بالأزلام . . . »[٢] .

لذلك فالمشروع للعبد أن يفعله قبل الإقدام على الأمر « استخارة الخالق، واستشارة المخلوق ، والاستدلال بالأدلة الشرعية التي تبين ما يحبه الله ويرضاه ، وما يكرهه وينهى عنه »[٣] .

* * *

(١) تقدم تخريجه ، وهو ضعيف .
(٢) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٦٧) .
(٣) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٦٨) .

الخاتمة

الخاتمة
نسأل الله حسنها

بعد هذا التطواف مع فصول هذا الموضوع الحيوي المهم . وعند حط عصا الترحال يحسن بنا أن نشير إلى بعض النتائج التي ظهرت في ثنايا البحث ، ومن أهمها :

١ ـ أن التوكل على الله تعالى حال يلتئم من عدة أمور للقلب ، توجب له اعتماداً على الله تعالى وتفويضاً إليه ، وطمأنينة وثقة به ، ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه .

٢ ـ أن التوكل يتبوأ أشرف الرتب وأعلى المقامات من أعمال القلوب التي هي أصل الإيمان ، الذي هو أجل ما تعبد الله تعالى به .

٣ ـ أن التوكل هو الحال الذي يجمع بين علم القلب وعمله .

٤ ـ لا إيمان بلا توكل ، كما لا توكل بلا إيمان .

٥ ـ لا يستقيم توكل العبد حتى يصلح له توحيده ، بل حقيقة التوكل توحيد القلب .

٦ ـ اقتران التوكل بمراتب الدين الثلاث ـ الإيمان والإسلام والإحسان ـ وشعائره العظام ، مشعر بعلو منزلته وأهميته .

٧ ـ لا يمكن لعبد الاستغناء عن التوكل ؛ فإما متوكل على خالقه ومولاه الذي بيده ملكوت كل شيء ، وإما متوكل على مخلوق ضعيف مثله ، لا

يملك نفعاً ولا ضراً ، ولا يملك موتاً ولا حياةً ولا نشوراً .

٨ ـ لا أشرح لصدر العبد ولا أوسع ـ بعد الإيمان ـ من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به .

٩ ـ من يتوكل على الله فهو حسبه .

١٠ـ التوكل من أقوى الأسباب في استجلاب المنافع ودفع المضار .

١١ ـ كثير من المتوكلين على الله تعالى مغبون في توكله ، وبينهم من التفاوت كما بين السماء والأرض .

١٢ ـ أكمل التوكل وأوسعه وأنفعه توكل الأنبياء والمرسلين ، وهو التوكل في إقامة دين الله ، ودفع فساد المفسدين ، وهو توكل ورثتهم .

١٣ ـ التوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ؛ شرك أكبر ، والتوكل على غير الله فيما يقدر عليه المتوكل عليه ؛ شرك أصغر خفي ، ومنه اعتماد القلب على الأسباب .

١٤ـ الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل .

١٥ ـ تعاطي الأسباب المباحة لا ينافي التوكل .

١٦ ـ نحن مأمورون بأن نمارس عبودية اتخاذ الأسباب بجوارحنا ، كما نحن مأمورون بممارسة عبودية التوكل بقلوبنا .

١٧ ـ من أجلّ فوائد تعاطي الأسباب هو القيام بالعبودية لله تعالى وحده .

١٨ ـ يتقى من الأسباب : الاعتماد عليها ، وترك ما أمر الله به منها .

١٩ ـ التداوي المباح من الأسباب المشروعة التي لا تقدح في التوكل ؛ ما دام اعتماد القلب على الله تعالى .

٢٠ ـ التطير مظهر من مظاهر ضعف التوكل .

هذا وإن كان لي من توصية في آخر هذا المطاف ، فهي التأكيد على أن موضوعات أعمال القلوب رغم أهميتها ـ ومن بينها التوكل على الله تعالى ـ لازالت تفتقر إلى اهتمام مؤسساتنا التعليمية النظامية وغيرها ، ولم تعط بعد حقها من الاهتمام والدراسة اللائقة بها .

فحري بالقائمين على شئون هذه المؤسسات ، والمربِّين أن يلتفتوا إلى هذا الجانب العقدي التربوي المهم .

وأن ما نشكوه الآن من مظاهر خطيرة تعصف بأفكار المسلمين ، وخاصة بين أوساط شباب الصحوة ، وبروز الخلافات والتحزبات ، ومجانبة الصواب في كثير من الاجتهادات ، يرجع في مجمله إلى ضعف هذا الجانب، وعدم تحقيقه على الوجه الشرعي ؛ إما لسوء فهم ، أو لجهل ناتج عن غفلة وإعراض .

والله المسئول أن يلهمنا رشدنا ، وأن يرزقنا حسن التوكل عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

ثبت المصادر والمراجع

(أ)

١ ـ الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة ، لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي (ت : ٣٨٧هـ).

ط . الأولى ١٤١٥هـ ، ن . دار الراية للنشر والتوزيع .

٢ ـ الإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة .

تحقيق : سعيد الأفغاني .

ط . ثانية ١٣٩٠هـ ، ن . المكتب الإسلامي .

٣ ـ الأذكار ، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت : ٦٧٦هـ) .

تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط .

ن . دار الهدى للنشر والتوزيع ، ط . الخامسة ١٤١٤هـ ، الرياض .

٤ ـ الإيمان الأوسط ، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الدمشقي النميري (ت : ٧٢٨هـ) .

توزيع مكتبة الفرقان ومكتبة الإيمان .

٥ ـ الإيمان ، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت : ٧٢٨هـ) .

ط . الثالثة ، ن . المكتب الإسلامي .

٦ ـ ابن قيم الجوزية حياته وآثاره . تأليف : بكر بن عبد الله أبو زيد .

ط. أولى (١٤٠٠هـ).

٧ـ أحكام القرآن ، لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي (ت: ٥٤٣هـ) .

تحقيق : علي محمد البجاوي . ط. الثالثة ١٣٩٢هـ .

ن. دار إحياء الكتب العربية .

٨ـ إحياء علوم الدين ، للإمام الغزالي أبي حامد محمد بن محمد (ت: ٥٠٥هـ).

ن. دار المعرفة (٤/ ٢٤٣).

٩ـ أسباب نزول القرآن، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت: ٤٨٧هـ).

تحقيق : السيد أحمد صقر .

ط. ثانية ١٤٠٤هـ ، ن. دار القبلة للثقافة الإسلامية.

١٠ـ إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، لابن قيم الجوزية أبي عبد الله محمد ابن أبي بكر (ت: ٧٥١) .

تحقيق: محمد حامد الفقي .

١١ـ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لشيخ الإسلام أحمد ابن عبد الحليم بن تيمية (ت: ٧٢٨هـ).

تحقيق: د. ناصر العقل .

ط. أولى ١٤٠٤هـ.

(ب)

١ ـ بدائع الفوائد، للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي، المعروف بابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ).

قام بتصحيح الطبعة ومراجعتها وإضافة بعض التعليقات عليها محمود غانم غيث.

ط. الثانية ١٣٩٢هـ، ن. مكتبة القاهرة.

٢ ـ بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي (ت: ١٣٧٦هـ).

ط. ١٤١١هـ، ن. مركز صالح بن صالح الثقافي بعنيزة.

(ت)

١ ـ تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري: إسماعيل بن حماد (ت: ٣٩٣هـ).

ن. مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي (٥/ ١٨٤٥).

٢ ـ تاريخ بغداد أو مدينة السلام. للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ).

ن. دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٣ ـ تأويل مختلف الحديث، للإمام أبي محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ).

صححه وضبطه: محمد زهري النجار.

ط . ١٣٩٣هـ ، ن . دار الجيل ، بيروت ـ لبنان .

٤ ـ تجريد التوحيد ، للشيخ أحمد بن علي المقريزي .

ن . مكتبة السلام العالمية .

٥ ـ التحفة العراقية في الأعمال القلبية ، لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية (ت : ٧٢٨هـ) .

تحقيق : محمود مطرجي .

ط . أولى ١٤٠٦هـ ، ن . دار القلم .

٦ ـ تذكرة الحفاظ للذهبي . الإمام أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي (ت : ٧٤٨هـ) :

صُحح عن النسخة القديمة المحفوظة في مكتبة الحرم المكي تحت إعانة وزارة معارف الحكومة العالية الهندية . ن . دار التراث العربي .

٧ ـ التعريفات ، للعلامة علي بن محمد الشريف الجرجاني ، مع فهرست (ت : ٨١٦ هـ) .

ط . ١٩٧٨م ، ن . مكتبة لبنان .

٨ ـ تفسير البغوي « معالم التنزيل » ، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت : ٥١٦هـ) .

حققه وخرج أحاديثه : محمد عبد الله النمر ـ عثمان جمعة ضميرية ـ سليمان مسلم الحرش .

ط . ١٤٠٩هـ ، ن . دار طيبة ، الرياض .

٩ ـ تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (ت : ٧٧٤هـ) .
تحقيق : عبد العزيز غنيم ، محمد أحمد عاشور ـ محمد إبراهيم البنا .
ن . دار الشعب .

١٠ ـ تقريب التدمرية ، محمد بن صالح العثيمين .
ط . أولى ١٤١٢هـ ، ن . دار الوطن .

١١ ـ تقريب التهذيب ، الإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (ت : ٨٥٢هـ) .
قدم له وقابله : محمد عوامة .
ط . أولى ١٤٠٦هـ ، ن . دار الرشيد .
نسخة أخرى حققها وعلق عليها ووضحها وأضاف إليها : أبو الأشبال صغير أحمد شاغف الباكستاني .
ط . أولى ١٤١٦هـ ، ن . دار العاصمة .

١٢ ـ تلبيس إبليس ، للحافظ الإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي البغدادي (ت : ٥٩٧هـ) :
صححه وعلق عليه : إدارة الطباعة المنيرية بمساعدة بعض علماء الأزهر .
ن . دار الكتب العلمية .

١٣ ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، تأليف : الإمام الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري الأندلسي (ت : ٤٦٣هـ) .

تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير البكري .
ط. ثانيـة ١٤٠٢هـ، ن. وزارة الأوقـاف والشـؤون الإسـلامـيـة بالمغـرب.

١٤ ـ تهذيب الآثار وتفصيل معاني الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار .
تأليف: الإمام محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ).
تحقيق: د. ناصر بن سعد الرشيد ، ود. عبد القيوم عبد رب النبي .
ط. (١٤٠٣) هـ بمطابع الصفا بمكة .

١٥ ـ تهذيب التهذيب ، للإمام شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) .
ط. أولى ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة بالهند سنة ١٣٢٥هـ.

١٦ ـ تهذيب اللغة ، للأزهري: أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت: ٣٧٠هـ) .
تحقيق عبد السلام هارون.
ط. ١٣٨٤هـ ، ن. دار المصرية للتأليف والنشر (١٠/ ٣٧١) .

١٧ ـ التـوكل على الله عـز وجل ، للحـافظ أبي بكر بن أبي الدنـيـا (ت: ٢٨١هـ).
تحقيق: جاسم الفهيد .
ط. أولى ١٤٠٧هـ ، ن. دار البشائر ح: ٣٠ (ص٦٥).

١٨ ـ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، تأليف : سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت : ١٢٣٣هـ) .

ط . رابعة . ن . المكتب الإسلامي .

١٩ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف : الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت : ١٣٧٦هـ) .

ط . ١٤٠٨هـ ، ن . دار المدني بجدة .

(ث)

١ ـ كتاب الثقات لابن حبان ، الإمام الحافظ محمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي البستي (ت : ٣٥٤هـ) .

ط . أولى، ن . دار الفكر، طبع تحت مراقبة الدكتور محمد عبد المعيد خان ، مدير دائرة المعارف العثمانية .

(ج)

١ ـ جامع البيان عند تأويل آي القرآن ، تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت : ٣١٠هـ) .

ط . الثالثة ١٣٨٨هـ ، ن . شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ مصر .

٢ ـ الجامع الصحيح ،وهو سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى سورة (ت : ٢٧٩هـ) .

تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط . ثانية ١٣٩٨هـ، ن . شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

(ح)

١ ـ الحث على التجارة والصناعة والعمل والإنكار على من يدعي التوكل في ترك العمل والحجة عليهم في ذلك .
تصنيف أبي بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلاّل (ت: ٣١١هـ)
ط. الأولى ١٤٠٧هـ، ن. دار العاصمة .

٢ ـ حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة، لمحمد بن عبد الهادي المصري .
ط. الثانية ١٤١٣هـ، ن. دار الإعلام الدولي، القاهرة .

٣ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ) .
ط. ١٣٩٤هـ مطبعة السعادة .

(د)

١ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) .
ضبط النص والتصحيح وإسناد الآيات ووضع الحواشي والفهارس بإشراف الناشر .
ط. أولى (١٤٠٣هـ)، ن. دار الفكر .

٢ ـ دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية .
جمع وتقديم وتحقيق : د. محمد السيد الجليند .
ط. أولى ١٣٩٨هـ، ن. دار الأنصار .

٣ـ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت:٤٥٨هـ) .

تخريج : د. عبد المعطي قلعجي ، ن. دار الكتب العلمية .

(ر)

١ ـ الرسالة القشيرية، لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري (ت: ٤٦٥هـ) .

ط. الثانية ١٣٧٩هـ ، ن. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر.

٢ـ الرقى على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة وحكم التفرغ لها واتخاذها حرفة ، د. علي بن نفيع العلياني.

ط. أولى ١٤١١هـ ، ن. دار الوطن.

٣ـ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء للإمام الحافظ محمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي البستي (ت: ٣٥٤هـ).

تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد عبد الرزاق حمزة، ومحمد حامد الفقي .

ن. دار الباز للنشر والتوزيع ـ مكة المكرمة .

(ز)

١ ـ زاد المسير في علم التفسير . لابن الجوزي: أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت: ٥٩٧هـ) .

تحقيق: محمد بن عبد الرحمن عبد الله، خرج أحاديثه: السعيد بن بسيوني زغلول.

ط. أولى ١٤٠٧هـ، ن. دار الفكر (٢/ ٢٤).

٢ - زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ت: ٧٥١هـ).

تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط.

ط. الرابعة عشر ١٤٠٧هـ، ن. مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية.

٣ - الزهد، الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني.

تعليق الشيخ: محمد بن عبد الرزاق آل حمزة.

ط. ١٣٩٦هـ، ن. دار الكتب العلمية.

٤ - الزهد، ويليه كتاب الرقائق لعبد الله بن المبارك المروزي (ت: ١٨١هـ).

تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

ن. دار الكتب العربية، بيروت - لبنان.

(س)

١ - سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني.

ط. الثانية (١٣٩٩هـ)، ن. المكتب الإسلامي.

٢ - سنن ابن ماجه الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني

(ت: ٢٧٥هـ).

تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ن. دار الفكر.

٣ - سنن الدارمي، للحافظ أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (ت: ٢٥٥هـ).

طبع ونشر: السيد عبد الله هاشم يماني المدني، المدينة المنورة ١٣٨٦هـ.

٤ - السنن الكبرى، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، وفي ذيله الجوهر النقي لابن التركماني (ت: ٧٤٥هـ).

ن. دار الفكر.

٥ - سنن النسائي (ت: ٣٠٣هـ)، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، وحاشية الإمام السندي (ت: ١١٣٨هـ).

نسخة أخرى عناية وترقيم وفهرسة: عبد الفتاح أبو غدة.

ط. الثانية (١٤٠٦هـ)، ن. دار البشائر الإسلامية.

٦ - السنة، لأبي بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلاّل (ت: ٣١١هـ).

دراسة وتحقيق: د. عطية الزهراني.

ط. الأولى ١٤١٠هـ، ن. دار الراية.

٧ - السنة، للإمام أبي عبد الرحمن عبد الله بن إمام السنة أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٩٠هـ).

تحقيق ودراسة: د. محمد بن سعيد بن سالم القحطاني.

ط . أولى ١٤٠٦هـ، ن. دار ابن القيم .

٨ـ سير أعلام النبلاء ، تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) .

خرج أحاديث الكتاب وأشرف على تحقيقه : شعيب الأرناؤوط .

ط . الثانية ١٤٠٤هـ ، ن. مؤسسة الرسالة (٩/ ٣٤٦).

٩ـ السيرة النبوية لابن هشام .

تحقيق : مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي .

ط . الثانية ١٣٧٥هـ شركة مصطفى البابي الحلبي بمصر .

(ش)

١ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، تأليف : أبي القاسم هبة الله بن الحسين ابن منصور الطبري اللالكائي (ت: ٤١٨هـ) .

تحقيق: د. أحمد سعد حمدان .

ن. دار طيبة .

٢ ـ شرح السنة للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت: ٥١٦هـ).

تحقيق : شعيب الأرناؤوط .

ط . ١٣٩٤هـ . ن. المكتب الإسلامي.

٣ـ شرح العقيدة الطحاوية ، لعلي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي (ت: ٧٩٢هـ).

تحقيق: جماعة من العلماء، تخريج: محمد بن ناصر الدين الألباني.
ط. السادسة ١٤٠٠هـ، ن. من المكتب الإسلامي.

٤ ـ شرح معاني الآثار للإمام أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري الطحاوي الحنفي (ت: ٣٢١هـ):

تحقيق: محمد زهري النجار.

ن. مطبعة الأنوار المحمدية.

٥ ـ الشريعة، لأبي بكر بن محمد بن الحسين الآجري (ت: ٣٦٠هـ).

دراسة وتحقيق إلى نهاية الجزء العاشر، رسالة مقدمة لنيل درجة التخصص العليا (دكتوراه) بقسم العقيدة في كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى (١٤٠٩هـ).

٦ ـ شعب الإيمان، للبيهقي أبي الحسين أحمد بن الحسين (ت: ٤٥٨هـ).

تحقيق: محمد السيد بن بسيوني زغلول.

ط. أولى ١٤١٠هـ ن. دار الكتب العلمية (٢/ ٥٧).

٧ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تأليف الإمام أبي عبد الله محمد بن الشيخ أبي بكر (ت: ٧٥١هـ).

تحرير: الحساني حسن عبد الله.

ط. ثانية، ن. مكتبة دار التراث.

(ص)

١ ـ الصحاح، للجوهري إسماعيل بن حماد .

تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار .

ط . ثالثة ١٤٠٤هـ دار العلم للملايين (٥/ ١٨٤٥) ، مادة (وكل) .

٢ ـ صحيح الترغيب والترهيب، للحافظ المنذري .

اختيار وتحقيق : محمد ناصر الدين الألباني .

ط . ثانية ١٤٠٦هـ ، ن . المكتب الإسلامي .

٣ ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) .

تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني .

ط . أولى ١٣٨٨هـ ، ن . المكتب الإسلامي .

٤ ـ صحيح الكلم الطيب ، لشيخ الإسلام ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم الحراني الدمشقي (ت : ٧٢٨هـ) .

بقلم : محمد ناصر الدين الألباني .

ن . المكتب الإسلامي .

٥ ـ صحيح مسلم بشرح النووي .

ط . ١٣٤٩هـ ، ن . المكتبة المصرية ومطبعتها .

٦ ـ صحيح مسلم ، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت : ٢٦١هـ) .

وقف على تحقيقه وتصحيحه : محمد فؤاد عبد الباقي .

ط . أولى ١٣٧٥هـ ، ن . دار إحياء الكتب العربية .

(ض)

١ - ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) . تأليف محمد ناصر الدين الألباني .

ط . الثانية ١٣٩٩هـ ، ن . المكتب الإسلامي .

(ط)

١ - طبقات الحنابلة ، للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى (ت : ٥٢٦هـ) .

ن . دار المعرفة (١/ ٤١٦) .

٢ - طبقات الشافعية الكبرى ، لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت : ٧٧١هـ) .

تحقيق : محمود محمد الطناجي وعبد الفتاح محمد الحلو .

ط . أولى ١٣٨٣هـ .

٣ - طبقات الصوفية ، لأبي عبد الرحمن السلمي (ت : ٤١٢هـ) .

تحقيق : نور الدين شريعة .

ط . الثانية ١٤١٦هـ ، ن . مكتبة الخانجي بالقاهرة .

٤ - الطبقات الكبرى ، لابن سعد محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري المكنى بأبي عبد الله (ت : ٢٣٠هـ) .

ط . ١٣٩٨هـ ، ن . دار بيروت .

٥ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين ، لابن قيم ا لجوزية محمد بن أبي بكر (ت: ٧٥١هـ) .

ط . الثالثة ١٤٠٠هـ، ن . المكتبة السلفية ـ القاهرة (ص٢٣٩) .

٦ ـ الطيرة والفأل (التشاؤم والتفاؤل) في ضوء الكتاب والسنة ، تأليف: محمود بن خليفة الجاسم .

ط . أولى ١٤١٣هـ ،ن. دار ابن حزم .

(ظ)

١ ـ ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ، رسالة مقدمة لنيل درجة التخصص العليا (الدكتوراه) بجامعة أم القرى ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ قسم الدراسات العليا الشرعية ـ فرع العقيدة .

إعداد: سفر بن عبد الرحمن الحوالي (١٤٠٥هـ) .

(ع)

١ ـ العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ، للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي التميمي القرشي (ت: ٥٩٧هـ) .

تحقيق: الأستاذ إرشاد الحق الأثري .

ط . الثانية ١٤٠١هـ ،ن. إدارة العلوم الأثرية باكستان .

٢ ـ عون المعبود شرح سنن أبي داود ، للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي .

تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان .

ط . الثالثة ١٣٩٩هـ ، ن. دار الفكر .

(غ)

١ ـ غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب ، تأليف الشيخ محمد السفاريني الحنبلي (ت : ١١٨٨هـ) .

ط . ١٣٩٣هـ مطبعة الحكومة بمكة .

٢ ـ الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل في معرفة الآداب الشرعية . لعبد القادر الجيلاني الحسني .

ن . المكتبة الثقافية .

(ف)

١ ـ الفائق في غريب الحديث ، للعلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت : ٥٨٣هـ) .

تحقيق : علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

ط . ثانية ، ن . عيسى البابي الحلبي .

٢ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢هـ) .

ط . الثالثة ١٤٠٧هـ ، ن . المكتبة السلفية ـ القاهرة (٣/ ٤٤٩) .

٣ ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، لمحمد بن

علي بن محمد الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ).

ط. ثانية ١٣٨٣هـ، ن. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

٤ ـ الفوائد، للإمام ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي (ت: ٧٥١هـ).

ن. زكريا علي يوسف.

٥ ـ في ظلال القرآن، سيد قطب

ط. الثانية ١٣٩٥هـ، ن. دار الشروق.

(ق)

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ القاموس المحيط، للفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب.

ط. الثانية ١٣٧١هـ. ن. مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي (٤/ ٦٧) مادة (وكل).

٣ ـ القول السديد في مقاصد التوحيد ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت: ١٣٧٦هـ).

ط. ١٤١١هـ، ن. مركز صالح بن صالح الثقافي بعنيزة.

٤ ـ القول المفيد على كتاب التوحيد، شرح فضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين.

اعتنى بها د. سليمان بن عبدالله بن حمود أبا الخيل ، ود. خالد بن علي ابن محمد المشيقح .

ط. أولى ١٤١٥هـ ، ن. دار العاصمة .

(ك)

١ ـ الكامل في ضعفاء الرجال ، للإمام أبي أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني (ت: ٣٦٥هـ).

تحقيق: لجنة بإشراف الناشر.

ن. دار الفكر .

٢ ـ كتاب التوحيد وإخلاص العمل لوجه الله عز وجل، لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الدمشقي (ت: ٧٢٨هـ)، مع مقدمة عن قضية الدين والفلسفة .

تحقيق وتقديم: د. محمد السيد الجليند .

ط. الثانية ١٣٩٩هـ.

٣ ـ الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة ، للشيخ عبد الله بن محمد بن عبدالوهاب .

ط. الثانية ١٤٠٠هـ ، ن. المطبعة السلفية ـ القاهرة (ص٦ـ٧).

٤ ـ الكلم الطيب ، تأليف: شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الدمشقي (ت: ٧٢٨هـ).

تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني .

ط. الثالثة ١٣٩٧هـ ، ن. المكتب الإسلامي.

٥ ـ الكليات. معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، لأبي البقاء أيوب ابن موسى الحسيني الكفوي (ت: ١٠٩٤هـ).

قابله على نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهارسه : د. عدنان درويش ومحمد المصري.

ط. أولى ١٤١٢هـ ، ن. مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان.

(ل)

١ ـ لباب النقول في أسباب النزول. تأليف : جلال الدين السيوطي.

ط. أولى ١٩٧٨م ، ن. دار إحياء العلوم.

٢ ـ لسان العرب، لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم (ت: ٧١١هـ).

ط. ١٣٨٨هـ ، ن. دار صادر ودار بيروت.

مادة : (وكل) (١١/ ٧٣٤).

٣ ـ لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرق المرضية. تأليف: الشيخ محمد بن أحمد السفاريني الأثري الحنبلي.

ط. الثانية ١٤٠٢هـ، ن. مؤسسة الخافقين.

(م)

١ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر

الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ). بتحرير الحافظين الجليلين العراقي وابن حجر .
ط. الثالثة ١٤٠٢هـ. ن. دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان .

٢ - مجمل اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس (ت: ٣٩٥هـ).
تحقيق : زهير عبد المحسن خلكان .
ط. أولى ١٤٠٤هـ ، مؤسسة (٣/ ٩٣٤) مادة (وكل).

٣ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ت: ٧٢٨هـ).
جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد .
ط. أولى ١٣٩٨هـ.

٤ - مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
جمع وترتيب: فهد بن ناصر السليمان .
ط. أولى ١٤١٢هـ ، ن. دار الوطن.

٥ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية) لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي .
تحقيق : الرحالي الفاروق - عبد الله بن إبراهيم الأنصاري - السيد عبدالعال السيد إبراهيم - محمد الشافعي صادق العنابي .
ط. أولى ١٣٩٨هـ ، ن. مؤسسة دار العلوم .

٦ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم محمد ابن أبي بكر الزرعي (٧٥١هـ).

تحقيق : محمد حامد الفقي .

ط . الثانية ١٣٩٣ هـ (٢/ ١٢٦) .

٧ـ مسائل الإمام أحمد ، تأليف : أبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق ابن بشير بن شداد السجستاني .

ط . أولى ١٣٥٣هـ ، ن . دار المعرفة .

٨ـ المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة . جمع وتحقيق ودراسة عبد الإله بن سلمان بن سالم الأحمدي .

ط . أولى ١٤١٢هـ ، ن . دار طيبة .

٩ـ المستدرك على الصحيحين، للإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي .

ن . دار الكتاب العربي ـ بيروت .

١٠ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل .

ن . المكتب الإسلامي ـ دار صادر .

١١ـ مسند الشهاب للإمام القضاعي .

١٢ـ المصنف في الأحاديث والآثار ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة إبراهيم بن عثمان أبي بكر بن أبي شيبة الكوفي العبسي (ت: ٢٣٥هـ) .

تحقيق : عبد الخالق الأفغاني .

ط. الثانية، ن. الدار السلفية بالهند.

١٣ ـ المصنف، للحافظ أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت: ٢١١هـ).

تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

ط. ثانية ١٤٠٣هـ، ن. المكتب الإسلامي.

١٤ ـ معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، تأليف الشيخ: حافظ بن أحمد حكمي (ت: ١٣٧٧هـ).

ن. جماعة إحياء التراث.

١٥ ـ معالم التوحيد.

صنفه: د. مروان بن إبراهيم القيسي.

ط. أولى (١٤١٠هـ)، ن. المكتب الإسلامي.

١٦ ـ المغني، لابن قدامة أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي (ت: ٦٢٠هـ)، على مختصر أبي القاسم عمر بن حسين بن عبد الله ابن أحمد الخزفي.

ط. ١٤٠١هـ، ن. مكتبة الرياض الحديثة.

١٧ ـ المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، أبي القاسم الحسين ابن محمد (ت: ٥٠٢هـ).

تحقيق: محمد سيد كيلاني.

ط. دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان ص٥٣٢.

١٨ـ المنجد (قاموس).

١٩ـ المنهاج في شعب الإيمان لأبي عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي (ت: ٤٠٣هـ).

تحقيق: حلمي محمد فودة.

ط. أولى ١٣٩٩هـ، ن. دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان.

٢٠ ـ موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ).

تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة.

ن. المطبعة السلفية ومكتبتها.

٢١ ـ الموطأ للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه.

تصحيح وتخريج: محمد فؤاد عبد الباقي.

ن. دار إحياء الكتب العربية.

٢٢ ـ موقف ابن الجوزي من الصوفية.

إعداد: علي بن صالح الحتوشي، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير ـ قسم العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين ـ جامعة أم القرى (١٤١٤هـ).

٢٣ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت: ٧٤٨هـ).

تحقيق: علي محمد البجاوي.

ط. أولى ١٣٨٢هـ، ن. دار المعرفة.

(ن)

١ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت: ٦٠٦هـ).

تحقيق: طاهر الزاوي، ومحمود الطناجي.

ط. ١٣٨٣هـ، الناشر: المكتبة الإسلامية.

٢ ـ النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد.

تصنيف: أبي سليمان جاسم الفهيد الدوسري.

ط. أولى ١٤٠٤هـ، ن. دار الخلفاء للكتاب الإسلامي.

٣ ـ نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس، للحافظ الإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ).

تحقيق: محمد بن ناصر العجمي.

ط. أولى ١٤١٠هـ، ن. دار البشائر الإسلامية.

٤ ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ).

ط. الأخيرة، ن. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

* * *

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

* سورة آل عمران *

* سورة النساء *

* سورة المائدة *

* سورة الأنفال *

* سورة التوبة *

* سورة النحل *

* سورة الإسراء *

* سورة الكهف *

* سورة مريم *

* سورة الأنبياء *

* * *

فهرس الأحاديث

* حرف الألف *

* حرف الباء *

* حرف الثاء *

* حرف الحاء *

* حرف الخاء *

﴿ حرف الدال ﴾

﴿ حرف الذال ﴾

﴿ حرف الراء ﴾

﴿ حرف الشين ﴾

﴿ حرف الطاء ﴾

٭ حرف العين ٭

٭ حرف القاف ٭

٭ حرف الكاف ٭

* حرف اللام *

✽ حرف الميم ✽

* حرف النون *

* حرف الهاء *

* حرف الواو *

* حرف الياء *

فهرس الآثار

* حرف الألف *

* حرف التاء *

*** حرف الحاء ***

*** حرف الذال ***

*** حرف الراء ***

*** حرف السين ***

*** حرف الفاء ***

* حرف القاف *

* حرف الكاف *

* حرف اللام *

* حرف الميم *

* حرف الهاء *

* حرف الواو *

* حرف الياء *

* * *

فهرس الموضوعات

المحتويات

المحتويات الصفحة

المحتويات الصفحة

المحتويات الصفحة

المحتويات الصفحة

المحتويات | الصفحة

المحتويات | الصفحة

المحتويات الصفحة